

الرحلة إلى أمريكا

محمد لبيب البتونوي



الرحلة إلى أمريكا

تأليف

محمد لبيب البتونوني



الرحلة إلى أمريكا

محمد لبيب البتونوني

الناشر مؤسسة هنداوي

المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

بورك هاوس، شيبت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة

تلفون: + ٤٤ ١٧٥٣ ٨٢٢٥٢٢

البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org

الموقع الإلكتروني: <https://www.hindawi.org>

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ليلى يسري

التقديم الدولي: ٢٤٠٢ ١ ٥٢٧٣ ٩٧٨

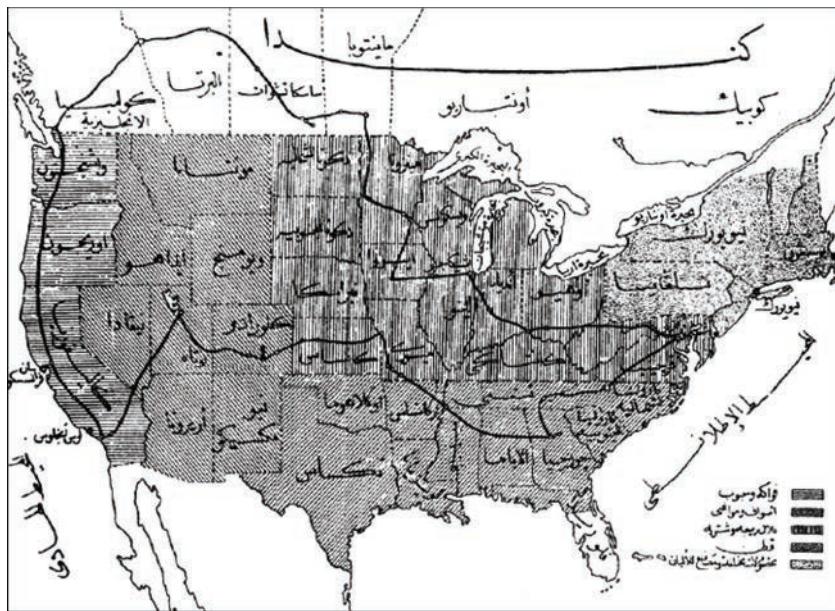
صدر هذا الكتاب عام ١٩٣٠.

صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢١.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف مُرخصة بموجب رخصة

المشاع الإبداعي: تَسْبُبِ المُصَنَّفِ، الإصدار ٤٠. جميع حقوق النشر الخاصة بـنص العمل

الأصلي خاضعة للملكية العامة.



خريطة زراعية للولايات المتحدة.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلوة والسلام على رسله وأنبيائه.

وبعد؛ فإنني كنت أمني نفسي من زمن بعيد بالسفر إلى الولايات المتحدة لأشاهد بها حقيقةً ما كنت أطالعه في الجرائد والمجلات، مما كان يستعصي على الخيال تصويره وتصديقه، من طفرتهم في الدنيا، وسرعة عروجهم في درجات الحضارة على صغر سنّهم القومي، وعدم ارتکازهم على مدنیاتٍ أهليةٍ قديمةٍ في تلك البلاد، التي لا يرجع تاريخ حضارتها ومدنیتها الحاليتين إلى أكثر من قرن ونصف تقریباً، وهو عمر قد يتجاوزه عمرُ الأفراد، كل هذا كان يُسْتَحْثِنُ إلى تخصيص وقتٍ من أوقاتي لزيارة هذه الديار النائية الناهضة، والتي بلغت الغاية التي لا تراها في صناعتها، وزراعتها، وثروتها، وما ليتها، حتى أصبحت - وخصوصاً بعد الحرب العظمى - صاحبة المنزلة المحترمة في دول المكشونة، والكلمة التي لا تُرُدُّ في سياسة العالم، والقرار النافذ في إشقاء الأمم وإسعادها!

وفي أواخر أبريل من سنة ١٩٢٧م بينما كنت أفكِر في الرحلة إلى بلاد أرُوح فيها نفسي من عناء عملي، وألْجأُ إليها هرباً من قيظ الصيف في مصر، قرأت دعوةً إلى مؤتمر التربة الزراعية الذي تقرر انعقاده في مدينة واشنطن في ١٣ يونيو من سنة ١٩٢٧م، فلَبِّيْتُ هذا النداء بفطنة كبرى، وقصدت في الحال أوروبا، وسافرت منها إلى العالم الجديد، مع بعض أعضاء المؤتمر من المالك المختلفة.

ولقد رأيت - كما هي عادتي في رحلاتي - أن أُشْرِكُ بني قومي معي في مرئياتي ومشاهداتي، وفي كلّ ما كنت أحْسُ به من كمالٍ في تلك البلاد ونقصٍ في بلادي، رغم ما

كان يصيّبني من تَعَبٍ ونَصَبٍ في التحرير والتحبير والبحث والاستقصاء والترجمة، في وقتٍ كان حقيقةً بأن أرتاح فيه من عناء السفر المطرد ليلاً ونهاراً في مسافة شهر تقريباً.

وكنت أبعث إليهم برسالاتي التي كانت تُنشر في جريدة الأهرام الغراء، ولم أكن أرجو من ذلك كله غير قيامي بالواجب القومي. وما كثُر على طلب إخواني - حفظهم الله - بجمع هذه الرسائل، لبيت أمّهم، وضمّمت إليها ما تيسّر لي جمّعاً من صور تلك البلاد التي يجب أن تُسمَّى - بحقٍ - ببلاد العجائب والغرائب.

وبينما كنت أفكِّر في تنفيذ إرادتهم، طلب مني حضرة السيد محمد أمين الخانجي الكتبِي القيام بطبعها، فسمحت له شاكراً همّته.

والله تعالى ينفع بها، وهو الموفق للخير والسداد، الميسِّر للرشاد والإسعاد.

محمد لبيب البتوني



إحدى نساء سكان الولايات المتحدة الأصليين.

الرحلة إلى أمريكا

(١) من العالم القديم إلى العالم الجديد

أذاع جناب المستر هوبسن — مندوب الولايات المتحدة المستديم في معهد الزراعة بروما — دعوته بمصر لمن يريد الالتحاق بفرقته من العالم الزراعي بأوروبا؛ للسفر إلى واشنطن، للاطلاع على أعمال مؤتمر التربة الأرضية بالولايات المتحدة، ثم التنقل في ولاياتها الوسطى إلى سان فرنسيسكو، ومنها إلى كندا، متنقلين في جملة الولايات منها، ثم يعودون إلى نيويورك في مدة لا تقل عن شهرين.

سمعتُ هذا النداء فأسرعت بالكتابة إلى المستر هوبسن بروما، فأجابني بأن ألقاه في يوم ٢٧ مايو على رصيف إحدى شركات الملاحة الأمريكية بلوندرا، فസافرت من الإسكندرية يوم ١٤ مايو على إحدى مراكب الشركة الفرنسية، وكان معنا على هذه المركب جناب مسيو وديع هرميس المدير الوطني لبنك مصر في باريس، ومعه بعض موظفيه من شباب مصر. وهنا أرجو القارئ يسمح لي بـألا ترك هذا المقام من غير أن أبدى آيات الثناء على همة حضرة النابغة العظيم طلعت بك حرب، وحضرت العامل المجد فؤاد بك سلطان، مديرى بنك مصر؛ للمشاريع الاقتصادية الجمة التي يقومان بها، ولا يزالان يزيدان كل يوم حجرًا متيناً في أساس عظمة البلاد المالية والصناعية.

تركتُ باريس إلى لوندرا في يوم ٢٦ مايو، وفي اليوم التالي ذهبتُ إلى المرفأ الذي نركب منه مرکبنا إلى نيويورك، ولقد كان سروري عظيماً عندما عرفتُ أن من إخواننا المصريين في هذه السياحة، حضرة محمد ذو الفقار بك، وعمر راتب بك.

سار بنا المركب في نهر التايمز بعد الغروب، وكان سيره وئيداً؛ لتكلاف الضباب الذي غطى صفحة الجو واتصل بدخان آلاف المراكب التي كانت تسير أو ترسو في مياه النهر، بما

أصبح معه التنفس شاقاً على الرئتين، وفي الصباح حمدنا الله على رؤية كوكب النهار يملأ الجو بنوره، وهنا رأينا رجال فرقتنا مؤلفة من عشرين إنساناً، من ألمان، وتشيكوسلوفاك، وطلبيان، وإسبانيين، وكان الأولون أكثرهم عدداً، استمر البحر يومين وهو مسالم لنا بما كان فيه من دموعاً تملئنا غبطة وسعادة، وإذا به قد تغير من غير إنذار سابق! وقد صار لون الماء أسود قاتماً، وكأن الأمواج كانت تتتسابق إلى مركبنا وعلى رأسها ذلك الزبد الأبيض الذي لا أدرى إذا كانت ترفع به رايات السلام أو الاستسلام. وقد ظهر الأقيانوس أمامنا، وسمات الغضب بادية على وجهه الذي كنت تقرأ في أسايريه كل علامة من علامات الخطر، وإذا نظرت إلى الأمواج وجذتها قد فغرت أفواهها لابتلاع كل ما يصادفها في طريقها، فوالله ما الأسد مدّ إليك ببراثنه، ولا النمر كشر عن أنيابه، ولا النيران قد اندلعت إليك ألسنتها، بأشنع منظراً، ولا أبعث على الخشية من رؤية جبال هذه الأمواج، تترامي بعضها فوق بعض، كأنها تقصدك بيد القضاء لتجرّك إلى عالم الفناء.

وبينما ترى رأس مركبنا تغوص في الماء، وذنبها في الهواء، إذا بجانبها يغترف من اليم، والجانب الآخر يحذو حذوه، وإذا هي بجملتها تطير في الجو فتتطير معها العقول، وتتصعد الأرواح بحركتها إلى الحناجر، والصفراء فيما بين هذا كله قد انفرزت إلى المعدة، وكأنّي بها قد تحجرت وأصبحت لا يزحزحها عن مكانها إلا يد القدر، وكانت بها أحشاء كل إنسان تخرج من بين شفتّيه، وقد استعصت على المرء كلماته وخطواته، فلا تسمع أذناه كلاماً، ولا يستطيع فكره مراماً، ولا يقبل فمه غذاءً، ولا تقوى رجله على خطوة واحدة تنقله من مكان إلى مكان آخر.

قلوب واجفة، وأرواح مرتعدة، متشبعة بكل أنواع الجزع والفزع، تنقلها إلى جسوم كانت تفارقها حياتها، ولا أدرى إلى رحمة الله أو إلى نقمته!

وكان كل شيء في المركب يتحرك بحركتها! ولو نظرت إلى الصالون وإلى من فيه من الجلوس، وقد أخذت كراساتهم تتحرك شمالاً وجنوباً، وشرقاً وغرباً، متتبعةً حركة المركب، لعرفت أن كل شيء حتى الجمادات منزوعة الإرادة، مروعة فوق سطح الأقيانوس! وبالجملة، فقد كنا بين رجلين؛ متجلّ تجري أحشاوه بين أذنيه وأحصصيه! ومنمدد لا يدرى أهو من الأحياء أم من الأموات! وما كنت أعتقد قبل اليوم أن هذا المخلوق الضعيف الهين اللين غير المتنع، الجماد الحي، الساكن المتحرك، يستحيل إلى هذا الوحش المفترس الذي يتمثل الموت فيه، ويتشكل الفناء في فيه، وهل يمكن هذا الإنسان أن يشعر بعظمة الوجود بقدر ما يشعر بها وهو على سطح الأقيانوس؟

نعم، قد يشعر الإنسان في وقت من الأوقات بقوّة فيه وعظمة! لكنه إذا كان في وسط هذه الlanـاهـيـة المـائـيـة لا يقع نظره فيها إلا على ما يـدـ بـصـرـه من هذا الأفق البسيط، شـعـرـ بمـقـدـارـ ضـعـفـه وبـصـغـرـ هوـيـته التي تـكـادـ تـضـمـنـ أـمـامـ عـظـمـةـ الطـبـيـعـةـ المـائـةـ أـمـامـهـ، وماـ كانـ أـشـدـ مـاـ تـجـسـسـ لـنـاـ مـنـ خـطـرـ هـذـهـ السـفـرـةـ، وـأـنـ نـصـيـبـنـاـ مـنـهـاـ سـيـكـونـ نـصـيـبـ التـيـتـانـيـكـ.^١ ولكن نجاح لندرج في وصوله سـالـماـ إـلـىـ بـارـيسـ يـوـمـ قـيـامـنـاـ مـنـهـاـ، كانـ يـبـعـثـ فـيـنـاـ الـآـمـالـ، وـيـدـهـبـ عـنـاـ بـعـضـ ماـ كـانـ بـنـاـ مـنـ رـهـبـةـ.

أمـضـيـنـاـ يـوـمـينـ وـنـحـنـ بـيـنـ غـضـبـاتـ الـأـقـيـانـوسـ الـتـيـ ماـ كـانـتـ تـنـقـطـعـ دـقـيقـةـ وـاحـدـةـ! وـماـ كـانـ أـسـعـدـنـاـ عـنـدـمـاـ دـخـلـ عـلـيـنـاـ خـادـمـ الـمـرـكـبـ فـيـ صـبـاحـ الـيـوـمـ الثـالـثـ مـبـشـراـ بـجـمـالـ الـوقـتـ، وـهـدـءـ الـبـحـرـ! فـأـخـذـنـاـ فـيـ لـبـسـ ثـيـابـنـاـ وـصـعـدـنـاـ إـلـىـ ظـهـرـ الـسـفـنـةـ الـتـيـ ثـبـتـ قـدـمـهـاـ، وـثـابـ إـلـيـهـاـ عـقـلـهـاـ، وـأـخـذـتـ تـسـيرـ عـلـىـ وـجـهـ الـمـاءـ بـخـطـوـاتـ الـرـازـانـةـ وـالـثـبـاثـ، وـكـانـ الـبـحـرـ فـيـ حـالـيـهـ كـالـرـجـلـ الـعـظـيمـ: عـظـيـمـاـ فـيـ غـضـبـهـ، كـبـيـراـ فـيـ حـلـمـهـ. وـهـنـاـ اـنـتـشـرـتـ أـمـامـيـ صـفـحـةـ الـتـارـيـخـ، وـمـاـ صـادـفـهـ الرـحـالـوـنـ وـالـمـكـتـشـفـوـنـ مـنـ الـأـخـطـارـ، مـمـاـ نـقـرـاـ عـبـارـاتـهـ وـلـاـ نـعـيـرـ أـدـنـىـ تـقـدـيرـ لـمـاـ صـادـفـهـ مـنـ عـنـاءـ، وـلـاـ لـمـاـ لـاقـوهـ مـنـ صـعـوبـاتـ وـأـخـطـارـ! ذـكـرـتـ أـولـئـكـ الرـحـالـيـنـ مـنـ الـعـرـبـ، كـابـنـ بـطـوـطـةـ، وـإـدـرـيـسـيـ، وـابـنـ جـبـرـ وـغـيرـهـمـ، وـقـدـ تـمـلـأـتـ أـمـامـيـ تـلـكـ الـفـلـكـ الـتـيـ كـانـواـ يـرـكـبـونـهاـ فـيـ اـكـتـشـافـاتـهـمـ، تـلـكـ الـفـلـكـ الـتـيـ هـيـ عـبـارـةـ عـنـ جـمـلةـ قـطـعـ خـشـبـيـةـ تـتـصـلـ بـعـضـهـاـ

^١ التيتانيك هي أكبر سفينة عُرِفت لـلآنـ، تـجـلـتـ فـيـهاـ عـبـقـرـيـةـ الصـانـعـ إـلـىـ الـحدـ الـذـيـ توـهـمـهـ النـاسـ مـمـاـ لـيـكـنـ لـقـوـةـ الـطـبـيـعـةـ أـنـ تـؤـثـرـ عـلـيـهـ بـأـيـ حـالـ مـنـ الـأـحـوـالـ، وـحـسـبـكـ أـنـ تـعـلـمـ أـنـ حـمـولـتـهـ كـانـتـ ٤٦ـ أـلـفـ طـنـ، وـتـفـرـيـغـهـاـ ٦٠ـ أـلـفـ طـنـ، وـكـانـ تـتـرـكـ مـنـ خـمـسـ طـبـقـاتـ، يـتـصـلـ بـعـضـهـاـ بـعـضـ بـوـاسـطـةـ مـصـاعـدـ كـهـربـائـيـةـ، وـكـانـ بـهـاـ صـالـوـنـاتـ لـلـاجـتمـاعـ، وـالـتـدـخـينـ، وـالـاسـتـراـحةـ؛ وـالـأـلـعـابـ الـخـتـافـةـ وـغـيرـهـاـ، وـغـرـفةـ الـمـائـةـ طـولـهـاـ ٣٥ـ مـتـرـاـ، وـعـرـضـهـاـ ٢٩ـ مـتـرـاـ، وـكـلـهـاـ مـنـ أـحـسـنـ مـاـ وـصـلـتـ إـلـيـهـ يـدـ إـبـدـاعـ الصـنـاعـيـ، وـكـانـ بـهـاـ حـدـيـقةـ نـضـرـةـ، وـحـمـامـ بـحـرـيـ، وـمـلـعـبـ لـلـتـنسـ، وـقـاعـاتـ لـلـأـلـعـابـ الـرـياـضـيـةـ. وـكـانـ لـكـثـيرـ مـنـ غـرـفـ النـومـ بـهـاـ حـمـامـاتـهـاـ وـصـالـوـنـاتـهـاـ الـخـصـوصـيـةـ. وـبـالـجـمـلـةـ فـقـدـ أـنـقـقـ عـلـىـ إـنـشـاءـ هـذـهـ السـفـنـةـ ٢ـ مـلـيـونـ جـنيـهـ! وـسـافـرـتـ لـأـوـلـ مـرـةـ فـيـ ١٠ـ أـبـرـيلـ سـنـةـ ١٩١٢ـ مـنـ بـلـادـ الـإـنـجـلـيزـ قـاصـدـةـ نـيـويـورـكـ، وـعـلـيـهـاـ مـنـ الرـكـابـ ٢٤٠٠ـ مـسـافـرـ، جـُلـهـمـ مـنـ أـصـحـابـ الـأـمـوـالـ وـالـكـتـابـ وـالـعـلـمـاءـ، وـفـيـ بـرـيـدـهـاـ أـكـثـرـ مـنـ ٧ـ مـلـيـونـ مـطـرـوفـ. وـبـعـدـ أـرـبـعـةـ أـيـامـ مـنـ سـفـرـهـاـ كـانـتـ تـقـطـعـ فـيـ أـنـثـائـهـاـ عـشـرـينـ عـقـدـةـ فـيـ السـاعـةـ اـنـقـضـتـ عـلـىـ أـتـمـ مـاـ يـتـصـورـهـ الـإـنـسـانـ مـنـ الـهـنـاءـ وـالـصـفـاءـ، قـلـبـتـ لـهـاـ الـطـبـيـعـةـ ظـهـرـ الـجـنـ قبلـ وـصـولـهـاـ إـلـىـ نـيـويـورـكـ بـيـوـمـ أوـ بـعـضـ يـوـمـ، وـقـطـعـ عـلـيـهـاـ طـرـيقـهـاـ جـبـلـ مـنـ الـثـلـاجـ يـرـتفـعـ نـحـوـ ٣٠٠ـ مـتـرـ فوقـ سـطـحـ الـمـاءـ، فـصـدمـهـاـ صـدـمـةـ جـعـلـتـ عـالـيـهـاـ سـافـلـهـاـ، وـأـصـبـحـتـ هـيـ وـمـنـ فـيـهـاـ حـدـيـثـ الـعـرـبـةـ وـالـتـارـيـخـ!

بعض، وليس فيها من مستلزمات الراحة من شيء، وما كانت تمنع من خطر أو تقوى على ردّ بلاء من مكدرات الأيام! يا الله لهذه الفلك وما يحتزموها به من الحال التي تتلاشى أمام أية رطمة أو صدمة! تلك الفلك التي ليس فيها من قوة تُسِيرُها غير قوة سواعد ركابها الذين كانوا يتداولون مجاديفها حين يقلب الريح ظهره لما فيها من شراع لا يدين له على دافعه شيء من التيارات الهوائية، فضلاً عن تلك العواصف التي كثيراً، بل كثيراً جدًا ما نراها على سطح الأقيانوس.

تذكري كولومب وهو في سفينته مع نفر من قومه لا يتجاوزون عدد أصابع اليد، وهم يتداولون المجاديف، ولا بوصلة تقودهم، ولا بخار يسيرهم، اللهم إلا علهم البسيط بسير النجوم. ذكرت هذا الرجل العظيم، وهو في طريقه إلى جهة الغرب ليصل في يوم ما إلى الجهة المقابلة لإسبانيا من العالم الأرضي، وقد كان يريد أن يتحقق مما شاع وذاع في تلك الأيام من فكرة دوران الأرض أو كرويتها. تذكري تلك الصعب التي قابلتها في طريقه، وتلك الأخطار التي كانت تحف بسفينته، وتلك العقبات التي كانوا إذا جاؤوها واحدة منها تمثلت لهم أخرى أشنع وأفظع، حتى وصل بهم حظهم إلى جزر خليج المكسيك! وهنا أرجو أن يسمح لي حضرات القراء بذكر كلمة بسيطة عن تاريخ هذا الرجل العظيم:

(٢) كريستوف كولومب

كريستوف كولومب، بحار طلياني من جنوه، التحق بخدمة الملك فرديناند بإسبانيا، ولقد كانت تقوم بخياله فكرة كروية الأرض، وهو مذهب كوبيريكون الذي خالف به مذهب بطليموس، وصادف في طريقه ما صادفه شهداء العلم في الأزمنة المنصرمة.

وفي ٣ أغسطس من سنة ١٤٩٢م أبحر كولومب ومعه ثلات سفن شراعية من مرافق فالوس بإسبانيا، وسار إلى جهة الغرب ليعود إلى إسبانيا من جهة الشرق، وفي ١٢ أكتوبر وصل بعد جهاد كبير إلى بعض جزر خليج المكسيك، ثم عاد إلى بلاده من الطريق الذي جاء منه، ليجهز نفسه باستعداد أكبر لرحلته الثانية التي اكتشف فيها بعض سواحل أمريكا الجنوبية. وقد تكررت روحاته إلى إسبانيا وجيئاته منها. وفي رحلته الرابعة كاد يموت هو ومنْ كان معه جوعاً؛ لطول الزمن الذي قضوه على سواحل القارة الجديدة بما كان سبباً لوقوع الخلاف فيما بينهم، فاضطروا إلى العودة إلى بلادهم في سنة ١٥٠٤م، وهنالك سعياً به إلى الملك فرديناند الذي غضب عليه ونكبه، وما زال في نكتة حتى مات بائساً فقيراً.

وكان له من جهاده في كشف هذا العالم الجديد حظ طارق بن زياد، وموسى بن نصیر في فتح إسبانيا! ذهب كلّ منها طعمة لنيران الحسد والوشيات وجهل الملوك واستبدادهم!

(٣) هل الحظ للحاسبيين؟

لقد كان بإسبانيا في ذلك الوقت بحار طلياني اسمه أمريك فسبيس «ولد في فلورانسا في مارس سنة ١٤٥١م» وكان قد التحق بخدمة عائلة مديشي النبيلة في إشبيلية عندما عاد كولومب من إحدى سفراته، وسمع أمريك من كولومب شيئاً كثيراً عن هذه البلاد، فعن له أن يسافر إليها، وفي سنة ١٤٩٩م ركب البحر حتى وصل إلى القارة الجديدة، وقطع على ساحلها الشرقي جملة أميال، وكتب مذكراته بما شاهده فيها، ولما عاد إلى إسبانيا في سنة ١٥٠٠م قدمها إلى أحد أمراء مديشي. وفي سنة ١٥٠١م انتظم أمريك في خدمة ملك البرتغال الملك عمانوئيل، فطلب إليه أن يرسله في رحلة إلى سواحل البرازيل، فجهزه إليها وكتب وهو هناك تقريراً بما شاهده فيها وأرسل به إليه، ونشرت هذه الرسائل وذاع أمرُها بين الناس، فنسبوا إليه كشف هذه البلاد الجديدة، وسموها باسمه «أمريك» أو أمريكا.

وقد أصبح اسمه اليوم ملازماً لما في هذه البلاد من العلم والفن والجلال والعظمة والمال والقوة والمنعة، بل رمزاً لهذه المدينة، ولهذه الحضارة التي بدأَتْ كلَّ حضارة قبلها، وهي لا تزال راقية في مدارج سموها لا تقف في طريقها موانعُ الزمان ولا صعوبات الطبيعة إلا تغلبتُ عليها، بما لها من تلك الإرادة الهائلة التي تراها في شذوذها وقوتها، كأنها صادرة عن عالم آخر غير هذا العالم الإنساني.

وبعد يومين من سيرنا في هذا الجو الجميل والهواء العليل، إذا بأخيرة الضباب تتلاشى إلى جونا، بما أصبح معه النهار أشبه بليل حalk، حتى صرنا لا نبصر أبعد من «دربيزن» السفينة، وهنا أخذت المركب تصرّف باستمرارٍ خوفاً من وجود سفينة أخرى تكون في طريقها، والحمد لله لم تقابل شيئاً من ذلك، واستمر الضباب إلى نصف الليل، وهنا شعرنا ببرد شديد أيقظنا من نومنا، والتزمتنا معه سرعة التدثر والتزمل، وكان صغير المركب يزداد بما لم نعلم له من سبب.

وفي الصباح علمنا - مع شكرنا لله - أننا مررنا بقرب خمس قطع ثلجية كبيرة (آيسبرج)، كانت تغوص على سطح الأقيانوس، وما كان صغير المركب إلا ليتعرف به قومدانها من قوة رجوع الصدى مقدار بعدها عنا أو بعدها منها، والحمد لله الذي جعل اتجاهها إلى غير جهتنا، وما كان أكثر ثنايتنا على الله تعالى أن لم يكن نصبينا منها ما كان

نصيب الطيار «ولنجسر» مع طائره الأبيض الذي يزعمون أن برودة هذه المثالج هي التي تحمدّ معها زيت طيارته، فوقفت عن العمل وسقطت حيث لم يعثروا لها على أثر لأنّ. ذهبت ببرودة الجو، وبدأ الحر بفترة يذكّرنا بما كنا نسمعه عن جو أمريكا، وخصوصاً في أمريكا الوسطى وما إليها، ولم نعلم لذلك من سبب إلا ما عرفناه أخيراً من أننا كنا نجتاز بمركبنا تيار «جولف ستريم» الذي حرارته أكثر من درجة الغليان، وهو يُصدّر من خليج مكسيكا، ويعمل دورته في المحيط الأطلantي حتى يصل إلى بحر الشمال.

ويقال: إن أحسن وقت للسفر في الأطلانتي هو شهر يونيو وأغسطس، أما يوليو فتثور فيه رياح الانقلاب الصيفي، وسبتمبر تثور فيه رياح الانقلاب الخريفي، أما الشتاء فليس فيه من ثبات للبحر الخضم، فالمراكب تكون فيه عرضة لتقلبات العواصف، كلما وُجدت، وهي تكاد لا تنتهي في هذا الوقت.

وما زلنا سائرين بين تقلباتٍ من غيمٍ إلى صحوٍ، ومن جموعٍ إلى اطمئنان، حتى وصلنا إلى مياه نيويورك والحمد لله بعد تسعه أيام من قيامنا من لوندرا.

وأول ما ظهر لنا من هذه المدينة العظيمة تلك الكتلة البناية الهائلة التي كانت في نظرنا تصلُّ الأرض بالسماء، ولما اقتربنا من الشاطئ رأينا في وسط مينائها تمثلاً للسيدة الحرية، وهو تمثال قام على صخرة في وسط الميناء، وقد رفع يده اليمنى إلى السماء كأنه يشير إلى القادمين إلى هذه البلاد بالدخول إليها متعمدين بحريرتهم، تلك الحرية التي هي شعار هذه البلاد، والتي قامت عليها حيويتها وعظمتها. وهل قامت الأمم في طريق مدنيتها وعظمتها إلا على الحرية الصحيحة التي تطلق للمرء زمامه في دائرة القوانين الدينية والاجتماعية؟ لا كما يفسرها بعضهم من أنها إطلاق الإرادة فيما لا حدّ له ولا قيود، وهو تعريف باطل. وهل وصل عربي البداية إلى تلك المدنية التي كانت من أرقى مدنيات العالم إلا بما كان له من تلك الحرية البدوية؟ كما أن الأمريكي المتحضر إنما وصل بحريرته إلى مدنية هي أرقى المدنيات وإلى حضارة لم يُسمع بمثلها فيما فات.

ومن داخل الميناء قريباً من تمثال الحرية جزيرة أليس، وهي جزيرة صغيرة فيها بناء كبير خاص بنزول المهاجرين إليه ليُكشف عنهم طبيعاً، وبعد فحص أوراقهم قانونياً، إما أن يُسمح لهم بالدخول أو يبقون في مقرّهم حتى يعادوا إلى بلادهم، ومن ينزل منهم إلى أرض هذه البلاد يكون تحت رحمة القضاء والحظ إنما صعود إلى السماء أو بقاء في الحضيض، وليس من وسط بينهما في هذه البلاد.

ولقد كانت قبل الحرب الأوروبية أبواب البلاد مفتوحة على مصاريعها لكل من أراد الهجرة إليها، فخشى الأميركيان بعد الحرب أن يُشَمِّر الناس في أوروبا للهجرة إلى أراضيها،

وربما وصل عددهم إلى حد يُخشى منه على بلادها، فسُنوا قانوناً في سنة ١٩٢١ م يقضي بـألا تقبل الولايات المتحدة في بلادها من كل دولة إلا ما كان مجموع المقيمين فيها لا يزيد على ثلاثة في المائة من أهاليها. وفي سنة ١٩٢٤ م سُنوا قانوناً آخر يقضي بأن تكون هذه النسبة اثنين في المائة فقط، وقد منعوا هجرة اليابانيين بتاتاً كما منعوا قبل ذلك هجرة الصينيين، ومع هذا كله فصعوبة الكشف الطبي على المهاجرين من شأنها رفض عدد غير قليل منهم، فيعودون إلى بلادهم مقهورين وهم يلعنون الساعة التي مررت فيها بخاطرهم .



منظر مباني نيويورك من البحر.

ولما نزلنا إلى البر وجدنا عمال الجمرك في انتظارنا، فأخذنا في فتح حقائبنا جميعها؛ علهم يعثرون على شيء يأخذون عليه ما يزيدون به ذهبهم. والحق يقال: إن الجمرك عندهم ليس على ما يُحمد من النظام رغمًا عما فيه من الشدة التي لا معنى لها! وربما كانت هذه الشدة للبحث عن مهرّبات المشروبات الروحية.

ولما انتهينا من الجمرك ركبنا الأوتوموبيلات إلى اللوكندة التي كانت تنتظر حضورنا، وقد أدهشتنا لأول مرة حركة الآلاف من الأوتوموبيلات في شوارع المدينة بما لم ترَ له مثالاً في مدينة أخرى في مدن أوروبا.

وهنا أحدثك عن نيويورك: هذه المدينة العظيمة التي تعدادها الآن هو تعداد القطر المصري في أوائل القرن العشرين.

(٤) نيويورك

هي مدينة ... لا أحد وصفاً يفي بعظمتها! ولكن إذا كان الحاسبون وضعوا الصفر على يمين العدد فنقله من درجة الأحاد إلى العشرات إلى المئات إلى الآلاف، فأنا أشير عليك أن تضع إلى جانب لفظ «عظيمة» كلمة جدًا مكررةً ثلاثة مراتٍ لتنقلها إلى درجة الآلاف، وهي أول الوحدات العددية عند الأمريكان، وبالجملة فهي أكبر مدينة في العالم كله.

أما شكلها فمستطيل بين نهرتين: النهر الشرقي من جهة الشرق، ونهر هدسون من جهة الغرب، وهما النهران العظيمان اللذان لا تهدأ فيهما حركة المراكب البخارية التي تنقل صادرات البلاد الشمالية والغربية إلى ثغرها العظيم، وتنتقل واردات البلاد الأجنبية إلى داخلية الولايات الشرقية والشمالية من الاتحاد الأمريكي، والقسم الذي بين النهرتين إلى المحيط الأطلسي هو المدينة القديمة ويسمونه المدينة الواطئة أو الجنوبية، أما ما فوقه إلى الشمال فيسمى « منهاتان ».

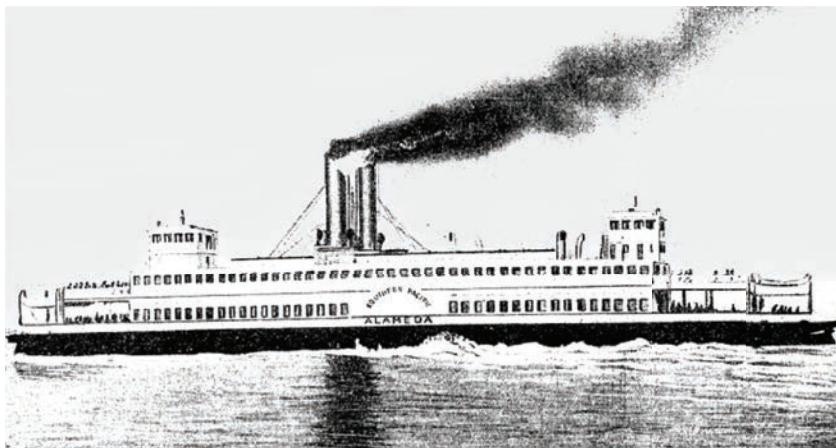
وأول من استكشف هذا المكان البحار الإنجليزي هدسون في سنة ١٦١٠م، وسمّي النهر باسمه، ثم بني فيها الهولنديون أمكنته ياؤون إليها وسموها «مستدام الجديدة»، ولكن الإنجليز أجلوهم عنها في سنة ١٦٦٤م وسموها «نيويورك»، وكان عدد أهلها في ذلك الحين ٢٥٠٠ نفس، وكان في حرب الاستقلال سنة ١٧٦١م ٢١٠٠٠ نفس، وفي سنة ١٨٠٠م ٦٠٠٠٠ نفس، وفي سنة ١٨٥٠م ٥١٥٠٠ نفس، وفي سنة ١٨٩٧م ٢٠٠٠٠٠ تقريرًا. وهي الآن تموج بالسكان الذين لا يقل عدهم عن تسعة ملايين نفس، منهم مليونان يسكنون خارج المدينة. وسكانها اليوم وإن كانوا يس挺للون برأية واحدة، هي رأية الولايات المتحدة، فهم خليط من إنجليز وفرنسيين وألمان وأيرلنديين وبولنديين وطليان وروسين، وغيرهم.

وعلى يمين هذا القسم النهر الشرقي، وفي صفتة الشرقية مدينة بروكلن، وفي شمالها مدينة لونج أسلاند، وهما ضاحيتان عظيمتان من ضواحي نيويورك، ويصلها بالمدinتين المذكورتين جملة أنفاق تحت النهر، وكبارٌ فوقه، أحدهما كوبرى بروكلن الشهير، وهو هذا الكوبرى المعلق الذى ليس له نظير في الدنيا، وطوله ٦٠٦ قدمًا، وعرضه ٨٦ قدمًا، وتكليفه ٢٦ مليون ريال تقريباً، وهو يرتفع عن مياه النهر نحو ١٣٣ قدمًا. ويَبعُد عنه

الرحلة إلى أمريكا

بقليل كوبري «منهاتن»، وفي كليهما طريقان للراجلين وطريقان لل ترام الكهربائي وأخران للمركبات المختلفة، ويمتاز الأول بطريقين للقطر الكهربائية.

وعلى الشاطئ الغربي من نهر هديسون مدينة «نيوجرزا»، وفي شمالها مدينة «هوبكن»، وتتصل بهما مدينة نيويورك بمواصلات عديدة بعضها تحت النهر، وببعضها فوقه خصوصاً بواسطة المعديات البحرية الكبرى، وهاتان المدينتان من ضواحي نيويورك. وكأنى بهذه الضاحيـات الأربع كلها معامل لصناعات مختلفة وسكانها من العمال بطبيعة الحال.



إحدى المعديات في نهر الهديسون من شاطئ إلى آخر.

والمدينة الواطئة شوارعها ضيقـة، وخصوصاً شارع «وول ستريت»^٢، الذي هو أكبر نقطة مالية في العالم كله، ويقولون: إن نصف ذهب العالم مكـس بين أركانه، وفيه العـمارـات الشـامـخـات، تلك التي يـسمـونـها «ناطـحـات السـحـاب»، ومـا يـُلـفـتـ نـظرـكـ فيـ هـذـاـ

^٢ أظن أن حضرات القراء يذكرون كثرة ورود هذا الاسم أخيراً في جرائد العالم كلها؛ لأنـهـ كانـ مـسرـحـ النـكـباتـ المـالـيـةـ التـيـ أـثـرـتـ تـأـثـيرـاًـ سـيـئـاًـ عـلـىـ الحـالـةـ الـاقـتصـادـيـةـ الـعـامـةـ فـيـ أـنـحـاءـ الـعـالـمـ.

القسم أن ترى الناس يسيرون فيه وأعينهم في أم رأسهم، متوجهة إلى ذلك السمو الذي يُذَكِّرنا بقصة صرخ النمرود الذي بناه ليصل به إلى السماء.

ومن هذه البناءات بناية لشركة اسمها «شركة وضع الأمانات»، في دورها الأرضي ٢٥ ألف خزانة حديدية بين ظلام حalk بطبعتها، وأرضها من الكاوتشوك، من تحته أحراج كهربائية تدق في مقر الحارس عند أية حركة من غير أن يسمعها من حدث منه؛ وللهذا محل باب لا يفتح إلا بحالة ميكانيكية ينزل بها الباب مع ما يحيط به من كتل الرخام مسافة ٣٠ سنتيمتراً، والباب من الصلب سُمِّكه ٥٠ سنتيمتراً.

و قبل الدخول إلى هذا المحل يجب على الداخل أن يقول كلمة المرور السرية إلى الحارس، وقد يصل ارتفاع بعض هذه الخزائن إلى ٣ أمتار. وبالجملة فهذه الخزائن من الصلابة بحيث لا تعمل فيها قلل المدافع، وقد وضعوا في سقف المكان أنابيب إذا فتحت من مكان معلوم للحارس ملأت المكان بخاراً حاراً يقتل الذين يجرءون على الدخول فيه مهما كان عددهم، كما أن بابه لو قفل لا يكون للنيران ولا للماء سبيل للدخول فيه، وأغلب البنوك في «وول ستريت» مشتركة في هذا المحل، ولها خزانة أو جملة خزائن تضع فيها ذهبها.

وإذا كان في الولايات المتحدة ١١ ألف مليونير منهم ٧٤ إيرادهم أكثر من مليون، فسواهُم مقيم في نيويورك، وأعظم البناءات الموجودة في المدينة الواطئة هي: وول ورث بلدنج، إدامس بلدنج، كينار بلدنج، ترينتي بلدنج، وينهال بلدنج، سنجر بلدنج ... إلخ! وكان أعظم البناءات في نيويورك إلى سنة ١٩١٣ م هذا البناء الذي يسمونه حديدة المكواة؛ لأنه على شكلها، وهو في ميدان مدسون، وفيه عشرون طبقة، وكان إلى ذلك الوقت محل إعجاب كل من وقع نظره عليه، أما الآن – وقد وصلت البناءات إلى ستين طبقة، وهم يصلون الآن فيما يصل إلى ما فوق المائة – فقد أصبح بناء الفلات أمراً عاديًّا صرفاً، ويحمل هنا أن نذكر لك البناء الذي يقابله من النهاية الأخرى بميدان مدسون وهو ما يسمونه «متروبوليتان طور»، وهي كنيسة على نظام كنيسة سان مارك بفنصيا، ومناراتها تصعد في الجو إلى ارتفاع مائتي متر.

وفي هذه المئارة أكبر ساعة في العالم، قطُرُها ثمانية أمتار، وارتفاع أرقامها عن قاعدتها متر، وعقارب الدقائق طوله خمسة أمتار وزنته ٥٠٠ كيلوجرام، وعقارب الساعات طوله ٤ أمتار وزنته ٣٤٠ كيلوجراماً، وحركة هذه الساعة بالتيار الكهربائي، وتدق كل ربع ساعة بواسطة أحراج تسمع صوتها من بعد جملة كيلومترات من محيطها، وما أشد

عجبك إذا رأيت هذه الساعة ليلاً وقد ظهرت أرقام ساعاتها ودقائقها وثوانيها وعقاربها كلها منارة بواسطة مصابيح صغيرة كهربائية ذات ألوان مختلفة تأخذ بالألباب، وهنا نكتفي أن نذكر لك إحدى هذه البناءيات حتى تكون على علم بشيء من عظمتها.

(٥) وول ورث بلدنج

هذا البناء العظيم سمي باسم صاحبه، ذلك العصامي الذي كان في أول هذا القرن عاماً بسيطاً في دكان صغيرة، فأشار على صاحب الدكان بأن ينجز في الأشياء الصغيرة التي لا يزيد ثمنها على عشر ريال ونصف عشر ريال، ذلك بأن يضع مائدة في وسط محله ويوضع عليها هذين الصنفين من الأشياء، فسمع الرجل هذا الرأي ونجح فيه بعض الشيء، وبعد مدة يسيرة ترك وول ورث هذا المحل وفتح له محلًا مستقلًا صغيراً يبيع فيه هذه الأشياء بنوعيها، فلم يفتح له باب النجاح، فنَّقل مركز المحل إلى جهة أخرى فنجح نجاحاً عظيماً، فأضاف إلى ذلك محلًا ثانياً فنجح، ثالثاً فرابعاً فخامساً، وكلها كانت في منتهي النجاح،وها هي الآن محالة، وبعبارة أخرى مجال تجارته الواسعة في كل جهة من جهات الولايات المتحدة، بل وفي إنجلترا نفسها، وكلها على سعتها وكبرها وعظمها لا تتبع إلا بهذه القيمة التي أضافت على أصحابها مئات الملايين، بحيث أصبح من أعاظم سراة البلاد، وتجد في هذه الدكاكين الهائلة كل ما يلفت نظر الناس إليها من أصوات فونوغرافات جميلة، وصور بائعات رشيقات، ونظافة ورواء وبهاء، حتى لكانك في محل «الماس بيته».

وهذا البناء يتكون من ستين طبقة^٣ فيما فوق القاعدة الهائلة التي يرتكز عليها، وهي شبكة من الصلب تنزل في هذه الأرض الصخرية إلى مسافة بعيدة بأعمدة من الصلب، مفرغة من الوسط ملئت بالأسمنت، حتى إذا تertiتوا من كونها تحمل هذا الجسم الهائل أقاموا هذا البناء الذي كله مكاتب للأعمال التجارية التي لا حصر لها.

وقاعدة هذا البناء تتكون من ثلاثة طبقات في باطن الأرض، وُضعت فيها الآلات التي تولد الكهرباء للمساعدة التي تراها على الدوام في حركة لا تُعرف للراحة وقتاً، لا ليلاً ولا نهاراً.

^٣ والآن يقيمون بناء في وسط نيويورك من ٨٥ طبقة، وقرروا أن يُعمل فوقه مطاراً تنزل إليه الطيارات التي تقطع الأقيانوس بدل نزولها في المطار الحالي الذي يبعد ٧٥ كيلومترًا عن المدينة.



بنية وول وورث بنويورك.

وكتلة البناء فوق الأرض ارتفاعها ۲۴۱ متراً، وبها ثلاثة وجهات، بها تسعه مداخل، اثنان منها يتصلان بمحطة السكة الحديدية التي تحت الأرض، وفي هذا البناء خمسة آلاف شباك في وجهاته، وضعها في غاية الجمال والتناسب، تحيط بها تلك النقوش القوطية العجيبة.

أما داخله فحوائط من الرخام الجميل الملئ الذي أشوابه من بلاد اليونان، وسقفه من الفسيفساء المذهبة البديعة الصنع.

وفي البدروم غير الآلات الكهربائية محل فيه بركة كبيرة للعوْم، وإلى جانبها حمامات تركية مفتوحة أبوابها ليلاً ونهاراً لمن يريد الاستحمام بها، وفيه أيضاً أمكنة للأكل والزينة. وفي هذا البناء ٣٤ مصعداً، منتشرة في جميع جوانبه، يصعد واحد منها كل نصف دقيقة، وحركتها مستمرة ليلاً ونهاراً، بحيث ينتقل فيها كل يوم خمسون ألف نفس، ومنها ما يسير بصفة إكسبريس لا يقف إلا في الأدوار الهامة، ومنها ما يقف في جميع الأدوار. وقد أحاطوا هذه المصاعد بما يحفظها من كل خطر فيما لو قطعت أسلاكها الرافعة؛ ذلك أن قاعدة المصعد إذا نزلت ارتكزت على مرتبة لينة رُكِبتْ على منطقة فُرِغَتْ من الهواء؛ لتحمل عنها صدمة الضغط الشديد بحيث لا يُحْسَن فيها بهزة ولا بوكرة، وقد وضعوا أثناء تجربة هذه الحالة في قعر المصعد كوبه معلوقة بالماء، فلم تَسْلِ منها قطرة واحدة على جدر الكوبة في نزوله بعد قطع أسلاكه!

وقد أحاطوا هذا البناء بما يمنعه من الحرائق؛ بحيث لو اشتعلت النيران في مكتب من المكاتب لا يمكن بأي حال أن تتصل بالمكتب المجاور له؛ ذلك لأن جُذُر المكان كلها من البناء المسلح، وأبوابه من الصلب، وشبابيكه مغلفة بشبكة من الحديد، وفي أسفل البناء مضخة عظيمة أنايبتها واصلة إلى الطبقة السطين، فإذا فُتحَتْ فوهتها تفجر منها الماء بنسبة ٢٠٠٠ لتر في كل دقيقة.

ومجموع من يشتغل في هذا المكان خمسة عشر ألف نفس، وفيه ٢٠٠٠ تليفون، والبريد يُحمل إليه يومياً ١٥٠ ألف مظروف، ولكل مكتب أسطوانة يلقون فيها بكتبهم، فتنزل إلى مخزن في أسفل البناء يصل إليه عمال البريد فيأخذونها منه ٢٧ مرة في كل أربع وعشرين ساعة، وفي هذا المكان نقطة بوليس، وفيه من عمال الصيانة والنظافة من يقوم بجميع حاجاته، وفيه مستشفى للعمال وطبيب وممرضة.

وقد صَدِّعْتُ إلى قيَّته مع صديق لي هو حضرة الفاضل أمين أفندى رستم، ولكن كان الضباب من تحتنا كثيراً بحيث لم نتمكن من مشاهدة منظر المدينة، وأجرة الصعود فيه لكل شخص نصف ريال، ومجموع ما يُحَصَّلُ من هذه الأجرة سنوياً مليون ريال.

إلى زاوية من هذا القسم يبدأ شارع برودوبي، ولا يزال إلى النهاية الشمالية من المدينة، وربما كان أطول شارع في الدنيا، وطوله أكثر من اثنين وعشرين كيلومتراً، وفي هذا الشارع الحركة التجارية بمعناها الحقيقي، وفيه أكبر المحال التجارية في نيويورك، وأكبرها وأعظمها هي محال وناميكر، ومحال جميل، ومحال ميسى، وهي تماثل محال البون مارشيه واللوفر والبيراميد في باريس، وإن كانت الأولى أكبر، والحركة فيها أكثر،



مرفأً متنزه على الشاطئ الأطلسي.

ترى كل شيء في هذه المحلات، حتى السينما، حتى التمثيل، حتى المطاعم من أي صنف، وبالجملة ففيها من كل معنى طرب، وقد أذاع أحدها عهداً بأنه إذا أتى أي إنسان وطلب أي طلب لم يكن موجوداً في محل تجارتة أعطاوه المحل خمسة آلاف ريال، ومن هذا تعرف أن كل واحد من هذه الأمكنة فيه كل ما يدور حتى بالخيال من كل شيء يصح وجوده. والدكاكين الكبيرة والبنوك وغيرها مما على شاكلتها ليس لها حراس ليلاً، بل لها أجراس أوتوماتيكية في أبوابها ومنافذها، إذا مستها يد إنسان قامت قيامتها بما لها من اتصال بمركز البوليس، فيحضر لوقته ويضبط الواقعه من غير مبلغ إلا صوت صدى هذه الطبيعة الراقية.

ووثمن الأرض في هذا الشارع غالية جداً، وخصوصاً إلى جهة وول ستريت، وقد بيعت به نقطة خمسون ياردة مربعة تكون زاوية على شارعين بستة ملايين دولار «هذا أخبرني به أحد كبار التجار السوريين بنويورك، وهو الخواجا شالوم نمرة ٢٤٤ بالشارع الخامس.» وفي هذا الشارع قسم لإخواننا السوريين، لهم فيه فنادق ومطاعم وأمكنته تجارية، منها الكبير ومنها الصغير، ويقدرون عددهم بهذه المدينة بثلاثين ألف نفس، وصل غير واحد منهم إلى دائرة الملايين، ولهم بها بيوت تجارية كبيرة، من أشهرها: محل تجارة ملوك إخوان بالشارع الرابع، وشغفهم في الحرائر، ومحل بردويل إخوان بالشارع الخامس،

وعملهم في الحرير والسجاجيد، وللسوريين بنك في الشارع الخامس بنويورك اسمه بنك لبنان، والتجارة السورية هنا محصورة في الحرائر، والمخشّات والمطرّزات والأواني النحاسية الشرقية المنقوشة وغير المنقوشة، ولهם بنويورك جريدة عربية تُدعى «البيان» و«مرأة الغرب».

وهاتان الجريدتان القيمتان لهما فائدتان: الأولى نقل أخبار الشرق إلى بني اللغة العربية الذين في أمريكا، والثانية: نقل أخبار أمريكا إلى بني اللغة العربية في الشرق، مما لا يتيسر العثور عليه في غير هاتين الجريدين، وهذا يدلّ على أنّ السوريين هنا لهم روابط قوية، واعتبارهم لقوميتهم — حتى مع تغيير جنسيتهم إلى الأمريكية — يدلّ على ما فيهم من روح حية لا تزال تنادي مثوى الآباء والأجداد، وهذا غير ما في قوتهم المعنوية من مساعدٍ من يقدّ عليهم من أهل جنسهم، فيمهدون له الطريق للعمل، ويخففون عنه أثقال الغربة حتى يجد إلى الحياة بجهاده سبيلاً.

وعلى ذِكر الجرائد العربية هنا، أقول: إن الصحافة في أمريكا مركزها من الإجلال والاحترام، ولا برهان على ذلك أظهر من أن رئيس الولايات المتحدة مستر كولدج كان يرأس جلسة من جلسات نقابتها في شهر يونيو الماضي، ولا غرابة في هذا؛ فإنَّ أغلب الرجال العظام بأمريكا يمْتُون بصلة إلى الصحافة في مبدأ أمرهم.

وفي نيويورك جرائد كثيرة جدًا من سياسية وتجارية وصناعية ورياضية وتمثيلية، وغيرها من مجلات أسبوعية وشهرية، وأهم الجرائد اليومية هي، نيويورك تيمس ونيويورك هرالد، وقد نكتفي بذكر شيء عنهم لتعريف شيئاً عما يقال له جريدة هنا.

فنويورك تيمس، يطبع منها يومياً ٢٥٠ ألف نسخة، والنسخة مؤلفة من ٢٤ صفحة، وتطبع يوم الأحد ٦٠٠ ألف نسخة، والنسخة مؤلفة من ٦٠ صفحة، والاشتراك في الجريدة بنسبة ٧٠ / ١٠٠ من الأعداد المطبوعة، ومطبعة الجريدة تطبع في الساعة الواحدة ٤٠٠ ألف نسخة مطبقة ومعنونة، وعدد العمال بها ٢٢٠٠ عامل، ومصاريف المطبعة يومياً ٤٠ ألف دولار.

وأما نيويورك هرالد، فتطبع يومياً ٣٣٠ ألف نسخة، ذات ٨٠ صفحة، وتطبع يوم الأحد ٤٠٠ ألف نسخة، ذات ١٨٠ صفحة، وفيها من العمال ١١٠٠ عامل، وتستهلك يومياً من الورق ٢٠ طناً.

ولقد كنت أظن أن إخواننا المصريين أبعد الناس عن الهجرة، وأنهم لا يحبون الرحلة، ولا يميلون إلى الاغتراب، حتى علمت بأنه يوجد في ناحية شيكاجو رجل مصرى اسمه



منظر الأمواج العالية على شاطئ المحيط الأطلسي.

أحمد حسنين، هاجر إلى الولايات المتحدة واشتغل فيها حتى وصل من طريق التجارة إلى ثروة غير قليلة، وقد علِمْتُ أنه يخاطب مع قنصلية مصر بنيويورك لمساعدته في إرسال ولده إلى إحدى مدارس القطر المصري حتى لا يُحرم من لغة آبائه. فهل كان السيد أحمد حسنين هو الشذوذ الوحيد الذي تثبت به قاعدة عدم ميلنا إلى الهجرة؟ والأرمن هنا كثيرون، وقد وصل منهم شخص اسمه بول آدم إلى أن صار له بنك خاص في شارع ٤٩، ومنهم كثير من ذوي النفوذ، وقد حالوا بنفوذهم وشدة قوميتهم بين الولايات المتحدة وما كانت تريده من عقد معاهدتها مع تركيا.

ومع فخامة المباني في وول ستريت فمجموعها ليس فيه شيء من التنااسب؛ لأنك تجد العالي منها بجوار الواطئ، والشكل الحديث بجانب القديم، مما جعل بين هذه الشامخات فراغاً لا بد أن يمتليء يوماً من الأيام بما يزيد في تشاكله وتناسقه.

وكيفية بنائهم لهذه الشامخات: أن يحفروا في أرض هذه المدينة الصخرية قاعدة عمقها ثلاثة أو أربعة أمتار، ثم يحفرون فيها حُفراً بعيدة الفارق في زواياها الأربع، وفيها يضعون كُتلًا كبيرة من الحديد، وهذه الكتل تكون أركانَ العمارة الخارجية، ويقيمون في داخلها كتلاً أخرى ربما كانت أصغر منها، لكل تربيع كبير تتكون به الداخل والطرق، ثم مربعات أصغر تتكون منها الغرف ويصعدون بهذه التخشيبة الحديدية إلى الارتفاع

الذي يرغبون فيه، وهنا يبدعون في وضع سقف كل دور على حدته، مع بناء محيط البناء بالمادة التي يرغبون فيها من رخام أو آجر أحمر أو أبيض، حتى إذا اكتمل البناء وضعوا أبوابه ونوافذه ثم طلوه بما أرادوه من ألوان مختلفة، غالباً من اللون الذهبي الذي يكاد يكون شعار هذه المباني الهائلة، تلك المباني التي لا تمضي بضع سنوات على نيويورك حتى تراها عمّت شوارعها جميعها؛ لأنهم من الآن يهدمون البناء التي من الشكل القديم ليقيموا مكانها شيئاً من تلك الشامخات، وكثرة الصلب في هذه الشامخات يُرى أثره في المراكب الداخلية إلى نيويورك والخارجية منها؛ فإنها تُحدث بها اضطراباً في بوصالتها على مسافات بعيدة.

والسبب في التجأهم إلى هذه البناء الهائلة، هو زيادة السكان زيادة مستمرة، وزيادة العمل طبعاً مع غلوّ أرض نيويورك وضيقها؛ لأنها محصورة بين النهرتين، ولأن صخرية الأرض تساعد عليها، وهم الآن يهدمون المباني التي على النظام القديم مهما كانت جديدة، ومهما كانت لا تقل عن ست أو سبع طبقات؛ ليبنوها على نظام الشامخات. وفي هذا القسم أكبر بورصات العالم، نذكر لك باختصار ما زرناه منها.

(٦) بورصة الأوراق المالية

زرتنا «أعضاء المؤتمر» هذه البورصة بدعوة من غرفة نيويورك التجارية، وهي مكان عظيم دخلنا إليه من بابه العمومي، وصعدنا إلى دوره الثاني أو الثالث مع مندوب هذه الغرفة، ومنه دخلنا إلى إيوان يُشرف على متسع مربع في الدور الأرضي يبلغ طوله نحو ٥٠ متراً في مثلاها (أو تزيد)، وهذا الوسط ممتئ بالناس الذين تراهم في جيئاتهم وغدواتهم كالنمل أزعجها شيء في جُحرها، فإذا بها تغدو وتتروح بسرعة هائلة، وهي في شدة الاضطراب، والفارق بين هؤلاء وبينها أن الناس في حركاتهم في هذا الوسط تراهم يصرخون هنا وهناك بأثمان الأسهم المليئة أو المشتركة، وفي حائط البناء لوحان كبيران أحدهما في اليمين، والآخر في الشمال، وهما مُقسّمان إلى مربعات صغيرة (تقريباً عشرة سنتيمترات مربعة) وفي وسط المربعات علامات حمراء أو خضراء، تراها على الدوام متحركة بحركات أوتوماتيكية بمختلف الأسعار في كل وقت «ونذلك بواسطة تيار كهربائي».

وفي هذه الصالة عشرون مكتباً للتلغراف منتشرة في وسطها، تأتي في كل دقيقة بأسعار جميع الولايات المتحدة، كما أن في جهتي الصالة مكاتب للسماسرة الذين لهم حق العضوية في البورصة، وكل مكتب له تليفون خاص يذيع به الأخبار إلى عملائه في وقتها، ورسم العضوية في هذه البورصة أربعون ألف جنيه، لكل من أراد أن يكون عضواً فيها.



اجتماع المضاربين خارج بورصة نيويورك.

وهذا المكان فيه أكبر حركة مالية في العالم كله، ويكتفي أن تعرف بأنه يباع فيه في اليوم الواحد ثلاثة ملايين من مختلف الأوراق والسنادات المالية، وهو محل إسعاد الألوف من الناس وإشراقها في كل ساعة، بل في كل دقيقة من دقائق الزمن، فبينما ترى الرجل بجوارك غنياً لا يتكلم إلا بمئات الألوف، إذا به بين كلمة وأخرى ينفض وفاضه بكل غضاضة! وإذا بالآخر قد رَأَقْتُه يد الحظ مرة واحدة إلى مكانة ما كان يحلم هو بها، وهما نتيتان لازمتان للظهور والمخاطر اللتين هما من صفات الرجل الأمريكي، وكثيراً ما ترى ملوك الأموال أنفسهم ينزلون عن عروشهم وسط هذه المعارك!

(٧) بورصة القطن

أما صالة بورصة الأقطان بنويويورك، فهي عبارة عن ٢٥ متراً في ١٥ متراً، وفي وسطها دائرة فيها البائعون والمشترون، وفي جانب منها هؤلاء الذين يكتبون الأسعار، وبحركة

أوتوماتيكية تكتبها آلات في لوح كبير على إحدى حوائط الصالة بحيث يَطَّلع عليها من يُعْتَنِي بالنظر إليها.

وفي جانب منها على ارتفاع نحو مترين ونصف الواح خضراء يكتب فيها الأسعار التي تأتي من الخارج بالطباشير عمالٌ على آذانهم سماعات التلغراف اللاسلكي، وفي الصالة لوح مبين فيه قوة الرياح واتجاهاتها في مناطق القطن، وكذلك حركة السحب والأمطار في الجهات التي تنزل بها من الولايات القطنية، وفي هذا اللوح علامات حمراء وصفراء وزرقاء ذات اتجاهات مختلفة، وهي تبين حركات البارومتر؛ فاللون الأحمر للصحو، وتحته درجة الحرارة مبينة، والأصفر للمطر، ومكتوب تحته مقدار الكمية التي نزلت منه، والأزرق – وأظنه – للرياح، وتحته مقدار قوتها واتجاهاتها، وهذا اللوح يغيّر مرتين كل يوم، مرة في الصباح، ومرة بعد الظهر، وعمل هذه البورصة خاص بالقطن الأمريكي، أما القطن المصري فالعمل فيه خاص ببورصة نيو أورليانس.

وفي الجملة فحركة العمل في هذه البورصة أقل منها في بورصة السندات المالية.

(٨) بورصة المحاصيل

مكان هذه البورصة فسيح جدًا، وفيه جملة موائد عليها المحاصيل المختلفة، فترى في جهة المحاصيل الزراعية من قمح وذرة وشعير وبطاطس وما إلى ذلك من شحم وزيوت مختلفة، وإلى جانبِ منها المحاصيل الأرضية من فحم وحديد وقصدير وبترول وغير ذلك، وفي هذا المكان سماسرة يعرضون العينات على المشترين، وعلى كل حال فالبائع والشراء في هذه البورصة بطبيعته؛ لأنَّه مرتبط بأسعار العالم كله، وهي أبعد البورصات عن المخاطرة.

وقد أخذَت صورتنا في إحدى غرف هذه البورصة، وفيها وَزَعَت علينا الغرفة التجارية (على أعضاء المؤتمر) أوسمة شرف، وقدَّم إلينا رئيس هذه البورصة الأخيرة طعام الغداء في مطعم قريب منها جزاً الله خيرًا.

وفي شارع برودوبي نمرة ٥٧ إدارة للبولييس السري لجميع الولايات المتحدة، اسمها «بالكيرتون»، وهي في وسط المحال التجارية والبنوك والمصارف المالية، وعملها لحساب هذه المحال في الغالب، ويصحُّ أن يكون بعض من يكلفهم أمره من الأفراد، ومهمتها البحث وراء اللصوص الذين ينشلون من البنوك، والعصابات التي تهاجم قُطْر السكك الحديدية، والتي تهجم بما لها من قوة على بنوك الأريفا، وخصوصاً التي لم تدخل منها في هيئة الإدارات التي تمون هذه الفرقة البوليسية، والأمريكان يسمُّون هؤلاء اللصوص Zeggs.

وهم فئة شريرة تصل بها الجرأة إلى غايتها والقصوة إلى نهايتها، وكيفية سرقتهم للبنوك: أن يضعوا في ثقب الخزانة جانباً من ... ثم يغلقون الثقب بمادة ... وبواسطة كبسولة ينفجر الباب، ولهم تحايل غريب في غش الحالات المالية وقبضها مما لا معنى هنا لذكره (أرجو معدرتني في عدم ذكر هذه المواد لخطرها).

ورجال الفرقـة البوليسـية تساعدهـا مصلحة تحقـيق الشـخصـية مـسـاعـدة هـامـة، وأـفـارـادـها من جـمـيعـ الطـبـقـاتـ؛ بـحيـثـ يـوجـدـ مـنـ يـمـكـنهـ أـنـ يـذـلـلـ فـيـ الصـالـونـاتـ المـعـتـبـرـةـ، وـمـنـهـ الـطـرـفـاءـ وـالـأـدـبـاءـ الـذـينـ يـمـلـكـونـ نـاصـيـةـ الـحـدـيـثـ بـفـكـاهـاتـهـمـ، وـهـمـ فـيـ كـلـ مـبـاحـثـهـمـ فـيـ حـزـمـ وـسـكـيـنـةـ مـنـ غـيرـ أـنـ يـشـعـرـ أـحـدـ بـصـفـتـهـمـ الـحـقـيـقـيـةـ، وـهـنـاـ أـلـفـتـكـ إـلـىـ مـاـ يـسـمـونـهـ عـنـدـنـاـ بـالـبـولـيـسـ السـرـيـ الـمـكـتـوبـ عـلـىـ وـجـهـهـ تـلـكـ الـيـافـطـةـ «ـحـضـرـتـهـ بـولـيـسـ سـرـيـ»ـ كـفـانـاـ اللـهـ شـرـ تـلـفـيـقـاتـهـ!

وبـمـنـاسـبـةـ الـكـلـامـ عـلـىـ الـبـولـيـسـ السـرـيـ أـقـولـ لـكـ: إـنـ يـوـجـدـ فـيـ نـيـوـيـورـكـ نـادـ خـطـرـهـ جـسـيمـ، وـشـعـارـهـ وـخـيمـ، هوـ «ـنـادـيـ الإـجـرـامـ»ـ يـجـتـمـعـ فـيـهـ أـولـئـكـ الـذـينـ لـاـ قـلـبـ لـهـمـ وـلـاـ رـحـمـهـ فـيـهـمـ، وـيـقـرـرـوـنـ القـتـلـ أـوـ الـفـتـكـ بـكـلـ فـرـيـسـةـ أـوـرـدـهـاـ سـوـءـ حـظـهاـ بـيـنـ أـيـدـيـهـمـ، وـهـذـهـ الـفـتـةـ الـمـنـحـوـسـةـ مـنـبـثـةـ فـيـ كـلـ الـوـلـاـيـاتـ الـمـتـحـدـةـ، وـخـطـرـهـاـ فـيـ نـيـوـيـورـكـ رـبـيـماـ كـانـ أـقـلـ مـنـ خـطـرـهـاـ فـيـ جـهـةـ أـخـرىـ، وـضـحـايـاـ هـذـهـ الـفـرـقـةـ الـشـرـيرـةـ فـيـ الـبـلـادـ الـكـبـرـىـ نـسـبـتـهـاـ هـكـذـاـ فـيـ كـلـ مـائـةـ أـلـفـ نـفـسـ: نـيـوـيـورـكـ ٥ـ وـنـصـفـ، فـيـلـادـلـفـيـاـ ٨ـ، شـيـكـاجـوـ ١٢ـ مـنـفـيـسـ ٧٠ـ.

وـالـبـولـيـسـ يـنـسـبـ هـذـهـ الـجـرـائـمـ إـلـىـ الـأـسـالـيـبـ الـتـيـ يـتـعـلـمـونـهـاـ مـنـ مـنـاظـرـ السـيـنـيـماـ الـتـيـ لـاـ تـنـطـبـقـ عـلـىـ مـصـلـحـةـ الـجـمـهـورـ، وـعـلـىـ الـكـتـبـ السـاقـطـةـ، وـعـلـىـ دـرـرـةـ بـتـ الـقـضـاءـ فـيـ قـضـاـيـاهـ.

وبـمـنـاسـبـةـ الـكـلـامـ عـلـىـ هـذـاـ النـادـيـ أـقـولـ لـكـ: إـنـ بـنـيـوـيـورـكـ نـادـيـاـ مـنـ السـخـافـةـ بـمـكـانـ، هوـ «ـنـادـيـ الـمـنـتـحـرـينـ»ـ، هـذـاـ النـادـيـ يـجـتـمـعـ فـيـهـ كـلـ مـنـ وـقـفـتـ بـهـ آمـالـهـ عـنـ الـوصـولـ إـلـىـ غـايـاتـهـ مـنـ حـبـ، أـوـ زـوـاجـ، أـوـ ثـرـوـةـ، أـوـ أـيـةـ صـفـةـ مـنـ صـفـاتـ الـحـيـاـةـ، وـأـعـضـاءـ هـذـاـ النـادـيـ يـجـتـمـعـونـ مـنـ وـقـتـ لـآخـرـ، وـيـعـمـلـونـ قـرـعـةـ عـنـ الـذـيـ لـاـ بـدـّـ وـأـنـ يـنـتـحـرـ مـنـهـ!

وـقـدـ يـنـتـحـرـ مـنـهـ فـيـ نـيـوـيـورـكـ كـلـ سـنـةـ ماـ يـقـرـبـ مـنـ أـلـفـ شـخـصـ، نـحـوـ ثـلـثـهـ مـنـ النـسـاءـ وـالـأـطـفـالـ، وـيـبـلـغـ عـدـدـ أـعـضـاءـ هـذـاـ الـكـلـوبـ ١٥ـ أـلـفـ نـفـسـ.

وـقـدـ تـأـلـفـتـ تـلـقـاءـ هـذـاـ الـخـطـرـ الـإـنـسـانـيـ «ـجـمـعـيـةـ النـجـاهـ»ـ، وـمـهـمـتـهـ أـنـ تـكـتـبـ إـلـىـ أـعـضـاءـ هـذـاـ النـادـيـ الـخـبـيثـ بـكـلـ نـصـحـهـاـ وـإـرـشـادـهـاـ، وـتـسـاعـدـهـمـ عـلـىـ الـإـقـلاـعـ عـنـ فـكـرـتـهـمـ بـأـيـةـ وـسـيـلـةـ مـنـ الـوـسـائـلـ.

وقد صارى القول أن أهل نيويورك — بصفة عامة — لكل طائفة منهم أندية يجتمعون إليها وقت فراغهم من أعمالهم، فالطلبة لهم أندية كثيرة، والعاملة لهم أندية مختلفة، والتجار لهم أندية عديدة، ولكل جالية أندية خاصة بها، فالإنجليز لهم أندية، والفرنسيون لهم أندية، وهكذا ...

وإذا كانت حالة البلاد العامة تلبس اللباس الديموقراطي في مظهرها، فإن كثيراً من هذه الأندية تلبس لباسها الاستقراطي؛ فلا يُقبلون فيها إلا منْ كان في درجة من الوجاهة وسعة المال، وحتى الطلبة لا يُقبلون في أندية هؤلاء القراء الذين وإن جمعتهم معهم قاعات الدراسة، فقد تُفرق بينهم ما يقumen به من خدمتهم بعد فراغهم من الدرس، وهي أنانية لا تتفق مع الديموقراطية التي يدّعونها ويرفعون عقيرتهم بها.



كوبري منهاثان بنويورك.

(٩) قسم منهاثان

هذا هو القسم العالى أو الش资料ي من مدينة نيويورك، وهو القسم الجديد، ويبتدىء من المدينة الواطئة متوجهًا إلى الشمال إلى مسافة ثمانية أميال تقريبًا، أعني إلى قنال هارلن الذي يفصلها عن مدينة برونزكس، وهي ضاحية كبيرة في شمالها، ومتوسط عرضه فيما بين

النهرين نحو ميلين، وتخترق هذا القسم جملة شوارع رأسية تقطعها جملة شوارع أفقية، وكأنهم فرغوا من الأسماء التي يسمون بها الشوارع عادة؛ فوضعوا نمواً وصفية للرأسية، ونمواً عديمة للأفقية، فيقولون عن الأول: الشارع الخامس أو السادس، وفي الثانية الشارع خمسة أو ستة، وقد يبلغ العدد في نمر الأفقية نحو المائتين، وأهم شارع المدينة هو الشارع الخامس، ويتلوه الرابع من جهة بارك أفنيو، وفي الأول أكبر المحال التجارية وأفخمها، على أن جميع الشوارع سواء كانت رأسية أو أفقية لا تخلوا من الحركة التجارية، وبينتهي الشارع الخامس إلى الحديقة المتوسطة، وعليها فيما يلي هذا الشارع مساكن الخاصة، مثل منزل استور وفندريلت، وجراي، وفرنك، ويقدرون بيت الأخير بخمسة ملايين وأربعمائة ألف دولار، ويقدرون ما فيه من الأثاث والرياش بخمسة عشر مليون دولار!

والحديقة المتوسطة مستطيلة، واتجاهها من الجنوب إلى الشمال، وفيها أمكناً لبعض الحيوانات المفترسة كالسباع والذئب والنمور والدباب وغيرها، كما يوجد فيها جملة محالًّا للألعاب الرياضية، كالتنس والجولف وغير ذلك، وفيها بركتان للتجديف، ومساحتها ٣٥ هكتاراً، ويقطع «منهاتن» التراموايات الكهربائية، والسكك الحديدية التي تسير في الهواء على قواعد من الحديد، ترتفع عن سطح الأرض بنحو ثمانية أمتار أو أكثر، ثم السكك الحديدية التي تسير تحت الأرض، وهي هنا أقل جمالاً من مثلاها في لوندرا وبرلين وبارييس، ويسير تحت الأرض أربعة قُطْر، الواحد تلو الآخر إلى جهات مختلفة، ولا بد من يركبها أن يكون له علم باتجاهاتها، خصوصاً مع سرعتها الهائلة وعدم وجود خرائط لها بالقطارات تساعد المسافر بها على تحديد سفره بها كمثيلاتها في البلاد التي مرَّ ذِكرها.

وعند اتصال الشارع الخامس بالشارع ٤٢ تجد مكتبة المدينة، ويقولون: إن هذه النقطة أكثر بقاع الأرض حرقة، ويقدرون المارّين فيها على أرجلهم يومياً بما يزيد على مائتي ألف نفس، أما حركة الأوتوموبيلات، فإن لها منظماً يقيم في جهة مرتفعة وسط الطريق ليرشدها بواسطة أنوار كهربائية، فالأخضر للوقوف، والأخضر للمرور، وكثيراً ما ترى هذا المنظم أوتوماتيكي يعمل بواسطة آلة كهربائية، وبهذه الطريقة أمكنهم أن يقللوا من الخطر الملزם مثل هذه الحركة الهائلة، وبناءً هذه المكتبة فخُّ و فيه أكثر من ثلاثة ملايين كتاب، ويزورها يومياً ما بين ثمانية وعشرة آلاف زائر!

أما حركة البريد فإني أكلُ إليك وصفها بعد أن أقول لك: إن متوسط ما يأتي إلى مدينة نيويورك وحدها كل يوم مائة مليون من الخطابات، وينقل إليها البريد البري على القطارات، والجوي على الطيارات.

الرحلة إلى أمريكا

وأما السكك الحديدية، فإنها تنقل كل يوم فيها نحو نصف مليون من الناس، والراموايات التي تسير على وجه الأرض تنقل سنويًا خمسمائة مليون من النفوس. أما السكك الحديدية العالية، والتي تحت الأرض، فهي تسير في المدينة بامتداد ٨٠٠ ميل، وكان عدد من ركب فيما في سنة ١٩٢٥ م بليونين وخمسمائة مليون نفس، والأجراة التي حصلتُ منهم ١١٩ مليون دولار.



أحد المناظر على شاطئ المحيط.

وفي نيويورك ٤٧ كُبرىً للحركة العامة على نهر هيدسون، وعلى النهر الشرقي، وكانت حركة المرور عليها في سنة ١٩٢٥ م كما يأتي:

عدد	
١٤٤٩١٨٢٠	قُطُر ترام وقُطُر كهربائية عالية
١٠٣٧٧٠٧٢٠	مَركبات مختلفة الأنواع
٦٥٨١٥٩٠٨٠	عَدْدٌ مِنْ مَرَّ عليها من الأنفس راجلين أو راكبين

وكان نصيب كوبري بروكلن من ذلك:

عدد	
٢٢٠٢١٢٠	قُطْر ترام وقُطْر كهربائية عالية
١٧٠٣١٦٤	مَركبات مختلفة الأنواع
٥١٠٧١٧٤٠	عدد مَنْ مَرَّ عليه من الأنفس

أما السكك الحديدية بمعناها المعروف عندنا، فيكفي أن أقول لك: إن في «منهاتن» اثنتي عشرة محطة، تنتهي إليها كل يوم مئات من القُطُر، ويدخل منها إلى المدينة يومياً أكثر من أربعين ألف نفس، وأكبر هذه المحطات هي محطة ... جنرال سنترال ... ويقال: إنها أكبر محطة في العالم، ثم محطة بنسلفانيا، وهما من العظيم بحيث لا تتسع كلِمتَي لشرح واحدة منهما، ويصح أن أقول لك: إن محطة مصر كلها في مساحة وهو من أبوابها، وحركة القطر في هذه المحطات كلها تحت الأرض، وكل قطار يخرج من المحطة تَجُرُّه قاطرة كهربائية إلى خارج المدينة، وكذلك الداخل إليها تُدْخِلَه قاطرة كهربائية؛ خشية الدخان الذي ينشأ عن الفحم في القاطرة البخارية.

وفي نيويورك ثلاثة شركات لإنارتها بالنور الكهربائي، ولها فيها ثلاثة مكتبات هائلة، مجموع قوتها ٦٠٠٠٠ ألف حصان بخارية.

وفيها شركة للتليفونات يبلغ عدد موظفيها ٦٣١٠٦ نفَس، والمشتركون فيها يبلغ عددهم ١٥٦٤١٢٠ مليوناً وخمسمائة أربعة وستين ألفاً ومائة وعشرين مشتركاً. ومن هذا وذلك تعلم أن الحركة هنا حركة هائلة ولكنها عملية صرف، وهذا يُظهر لك جلياً من عدم وجود مكتبات في نيويورك تليق بعظمتها، وأقصد بالمكتبات تلك التي تبيع الكتب للجمهور، وتحدها بالقاهرة تماماً دائرة الأزهر والأزبكية والظاهر، سألت بعض المقيمين هنا عن مكتبة أشتري منها كتاباً، فقال لي بعد تفكير: «توجد مكتبة في الشارع الخامس»، ومن هذا تعلم أن ليس للقوم من زمن يقرءون فيه شيئاً مما يُذَكَّر في الكتب، فكل قديم عندهم لا قيمة له، بل الجديد هو المرغوب فيه؛ لذلك ترى الجرائد عندهم لها المركز الأول، خصوصاً التي تبحث عنها عن المال والصناعات والتجارة، وللمجلات المركز الثاني، وقد ترى لبعض سراة الناس غراماً بحيازة الكتب، ولكن لا ليقرأ فيها؛ بل يُذَهِّبُها و يجعلها ضمن رياش منزله ليزيده جلاً وفخامة.

ويكفي أن أقول لك عن حركة الناس في نيويورك: إنها وقت الظهر عند انصراف الناس من أعمالهم للغداء حركة هائلة، خصوصاً في الشوارع الكبرى مما يلي المدينة الواطئة، أما في الصباح وفي المساء، فإذا عرفت أن تعداد نيويورك هو تسعه ملايين نفس، يقطنها منهم سبعة ملايين، واللليونان يسكنان في الضواحي، فiatesون إليها في الساعة الثامنة صباحاً، وينصرفون منها في الساعة السادسة مساءً، وفي هذا الوقت رأيت الحركة هائلة في شوارع السيتي (المدينة القديمة)، وفي الشوارع التي بها المحلات التجارية الكبرى، فالتراموايات والقطارات التي على الأرض فوقها وتحتها تراها كلها مكتظة بالناس، بعضهم فوق بعض، وترى في الطرق الأوتوموبيلات الخصوصية والأتوبياث والتوكسات والموتسكلات، كلها تراها في حركة لا يُمْكِن وصفها.

أما من يَسِيرُ على أفاريز الطرق، فهم في حركتهم أشبه شيء بحركة النمل في هيجانها، وكانت تتحرك فيها بحركة المجموع حركة أوتوماتيكية من غير ما إرادة ولا مقصد، ولا تزال هذه الحركة العامة إلى الساعة الثامنة مساءً، فتحفُّ نوعاً من يقصد أبواب المطاعم والتياشيرات والسيماتوغرافات، وما إليها من محلات اللهو أو الرياضة النفسية.

وفي هذه المدينة تتهيج أعصاب الإنسان بكل ما يضعفها، حتى إن أعصاب الدماغ تضعف إلى درجة فقدان الذاكرة، وهذا من شدة التعب الذي ينال الإنسان من كثرة الحركة، وشدة ضغط الجو! وهل تريد برهاناً على شدة هذه الحركة الجهنمية أظهر من أنه كثيراً ما تصاير من المارة من يأخذهم دُوار الأرض بنفس الحاله التي يأخذهم بها دُوار البحر! وفي الجملة فنيويورك عالمٌ وحده قد يضل الإنسان فيه عن كل شيء، وقد يبحث فيه عن نفسه فلا يجدها! خصوصاً إذا كان مثلي من عابري الطريق.

وقد يأخذك العجب كل العجب إذا نظرت إلى الناس وهو في حركتهم الكبرى في الطريق ووجدت ^{أَغْلِبَهُمْ} من النساء. فهل نسبة الإناث هنا أكثر من نسبة الذكور؟ وإذا سلمنا بذلك. فهل هذه النسبة تتمشى على كل الولايات المتحدة؟ وإذا كان هذا صحيحاً فهل تعدد الزوجات عند طائفة المورمون من الأمريكيين وهم على دين النصرانية له أصل يتصل بذلك؟

ومما يلفت نظرك في نيويورك أنه لا تجد إنساناً في يده عصاة مطلقاً، حتى ولو كان به عرج، وفي وقت المطر تجد في يد بعضهم وخصوصاً السيدات «مطريات» ولكن عامة الناس، وعلى الأخص الشبيبة نساء ورجالاً، تراهم متنطفقين برداء خفيف من الكاوتشوك؛ حتى إذا انقطع نزول المطر فلا يضره أن يُمسِك به في يده.



المسلة كليوباترة في سنترال بارك بنويورك.

أما الكنائس في الولايات المتحدة فلا حصر لها، وفي نيويورك وحدها ١٧٠٠ كنيسة عدد القُسُس بها أكثر من ٢٤٠ ألفاً، وفيها من اليهود ١٧٥ ألفاً، ومن العبيد أكثر من ٢٠٠ ألفٍ. وخَيْر ما تُدْهَش له آداب الاجتماع في الطريق؛ فإن النساء يَسِّرن بحالة عامة محترمات لأنفسهن، بحيث لا يرتفع نظر امرأة أو شابة أو بنت في عين أي رجل في الطريق؛ لذلك تراهن يَسِّرن حيث شئن وهن في حماية القانون والشعب، وإذا تعدد أي إنسان على واحدة بكلمة أو بنظرة كان البوليس ثالثهما.

وأهل نيويورك يخرجون عصر كل يوم في الصيف إلى جهة على المحيط في بروكلن اسمها «كوتى أيلن» والمواصلات إليها إما بطريق الأقيانوس، أو بالطريق الحديدي الهوائي،

أو الذي تحت الأرض، وهناك عربات كبيرة (أوتوباث) تُوصل من يريد إلى هذه الجهة في مسافة ساعة، وأجرتها ريال في الذهاب ومثله في الإياب.

توجهت إلى هذه الجهة فوجدت الناس قد حشدت فيها بمئات الآلاف، ويتتوفر في هذه الجهة كثير من دواعي التسلية كما ترى صورة صغيرة منها في لونابارك بمصر الجديدة، وبجوار هذا كله دكاكين كثيرة بها من أنواع الماكل (على الماشي)، وترى الناس منكبّة عليها، نساءً ورجالاً، فيأخذون ما يشتهون، وكلّ يده في جيبيه، والأخرى في فمه، ولا يزالون يأكلون في الطريق بكل قابلية، وإن شئت فقل بكل شراهة، لا فرق بين آنسة لطيفة أو شابًّا متأنق أو عامل من العمال، وقد يمشون في الطريق بلباس البحر؛ لأنهم في مدده.

ومن ضمن ما في هذه المنطقة من الألعاب خيل يركبونها ويجرّون بها أشواطاً بعيدة في دائرة مخصوصة لها، وقد رأيت كثيراً من الشابات — مع قصر ملابسهن — يركّبن مثل ما يركب الرجل، ويجرّين في هذا الميدان، رغم مخاصمة الهواء للملابسهن، ولكنها قوة الإرادة مع شدة الحرية التي قد ترجع بهم في كثير من الأمور إلى نقىض ما يقصد الشارع منها.

وأما سراة الناس فيذهبون إلى جهة اسمها أطلانطق سيتي، فيقضون بها أيام عطتهم، وهي تبعد عن نيويورك ثلاث ساعات في السكك الحديدية.

وفي نيويورك كثير من الحدائق العمومية، ومن أكبرها حديقة برونكس ومساحتها ٢٦ هكتاراً، وفيها بستان نباتي جميل جاً فيه كثير من الأشجار المختلفة التي لأمل الفن عناية بها، أما قسمها الحيواني ففيه كثير من أنواع الحيوان في العالمين الجديد والقديم وشهرته علىخصوص في الطيور والثعابين المختلفة الأنواع، وعلىخصوص البوا.

ويسافر من نيويورك أناس كلّ سنة إلى إفريقيا والهند ليشتري جملة من أصنافها. والبوا يعيش من ٢٠ سنة إلى خمسين، وهو فيشيخوخته لا يأكل إلا قليلاً جداً، وربما مرت عليه ثلاث سنوات من غير أن يأكل مطلقاً! وفي هذه الحال لا بد من تلقيمه غذاءه من وقت إلى آخر، وهو عبارة عن ست بيضات مصروبة في لترين من اللبن، وتلقى في حلق البوا بواسطة خرطوم، والبوا والبيتون لا يأكلان عادة إلا مرة واحدة في كل شهر، فيُلقوه إليهما بالحيوانات الصغيرة وهي على قيد الحياة فتلتقطها وتبتلعها بكل شراهة.

أما دور التعليم في هذه المدينة فهي كثيرة؛ ففيها ١٢ جامعة وكلية، بها نصف مليون من الطلبة، ثم ٥٥٣ مدرسة، بها مليون تلميذ، وأكبر هذه الجامعات هي جامعة كولومبيا، وهي عبارة عن جملة أبنية فخمة على مرتفع على نهر الهيدسون، ومساحتها ٢٨ أكر (فدانًا)، وفيها من الطلبة ٢٩ ألف طالب، ومن المعلمين ١٥٠٠.



مظاهرة نسائية في نيويورك.

والدراسة في هذه الجامعة مدة أربع سنين لمن أراد أن يحصل على درجة «دجرى» أو على درجة «بكالوريوس في الفنون»، أو في الهندسة، أو في المعمار (أرشitector)، أو الحقوق، أو الطب، أو العلوم السياسية، أو الفلسفه، أو العلوم.

أما جامعة نيويورك فتُعَلِّم بها العلوم والفنون المختلفة، وبها قسم للتعليم العملي، وقسم للأشغال، وقسم للإدارة، والتعليم نهاراً وليلًا، وفيها قسم للتعليم مدة الصيف. وفي نيويورك مدارس أخرى كثيرة، منها: مدرسة للصحافة، فيها مكتبة بها عشرة آلاف كتاب! ويأتي إليها كل يوم خمسون من الصحف اليومية الكبرى، وفيها مجموعات للصحف بها نحو مليون صحيفة.

والجامعات والمدارس في نيويورك لا تتسع لتعليم الفقراء الذين لا قدرة لهم على مصاريفها، ومن من الطلبة لا يمكنه دفع المصاريف يشتغل في أوقات الفراغ بنفس الجامعة في أية خدمة، فمنهم الفراشون، ومنهم السفرجية، ومنهم من يكسب ما يدفعه للجامعة من عمل في الخارج بعد مواعيد الدراسة، لأن يشتغل في محل تجاري، أو في مطعم أو غيره، وقد رأيت طالباً في الطب يشتغل بصفة فراش في قنصلية مصر بنьюيورك، وهذا شأن الطالبات أيضاً: يشتغلن في المحلات التجارية أو غيرها بما يحصلن من أجرة تعليمهن، وهي همة تذكرها بالشكر لهؤلاء الأفراد، وكان يجب على الأغنياء هنا أن يعنوا

بمثيل هذا الأمر لولا أن في دمِهم الهرب من كلمة فُقر، ومن كل ما يتصل بها كفيف أو بائس أو مسكون، وهي كلمات عندهم لا يقابلها غير كوليرا، أو طاعون، أو سُلٌّ، مما تجب محاربته والهرب من وجهه.

وفي هذه المدينة كثير من المتاحف العمومية، منها ما هو للتاريخ الطبيعي، ومنها ما هو للآثار العامة، ومنها ما هو للجغرافيا والتاريخ، ومنها ما هو للفنون الجميلة، وكلها آثار قيمة ولكنها في مجموعها لا تصل إلى مثيلها في عواصم أوروبا الكبرى.

وقد ترى في هذه الأخيرة تمثلاً على شكل عربيٍ بين يديه إلى صدره لوحة قرأت فيها لفظ محمد ... الله، وأظن أن بها لا إله إلا الله محمد رسول الله، ومكتوب تحت اسم الجلاة لفظ محمد!

وفي «منهاتان» وحدها ألف وخمسمائة لوكندة من مختلف الدرجات، فهي هنا كمثالهما عندنا، تجد الكونتينانتال وليس ببعيد عنها لوكندة ككتوت، والأجرة هنا تتراوح بين ريال واحد، وعشرين ريالاً للأودة في الليلة الواحدة — وسنذكر لك شيئاً عن بعض اللوكندا لتكون عندك فكرة عامة عنها.

(١٠) لوكندة ولدورف

تشُرف هذه اللوكندة على الشارع الخامس، ولها أبواب على شارعي ٣٣ و ٣٤ — وتتكون من سبع عشرة طبقة، وفيها ١٥٠ غرفة — منها ١٢٠ في كل واحدة حمامها، وكانت كلفة إنشائها ٤ مليون دولار، وصالاتها وباراتها ومطاعمها وغرف التدخين بها تحت تصُرف عموم الناس، وفيها تياترو ودكاكين لكل ما يريد المسافر، مما هو للفوتوغرافيا، والزهور، والزينة، والسيجائر، وعيادات لثلاثة أطباء، ومكتب للصحف، وأخر للتذاكر التياترات، ومكتب للتلغراف، وأخر للبوستة، وكل غرفة فيها صندوق بوستة خاص بها، حتى إذا ورد مكتوب لصاحبها فتحتم عليه الساعة والحقيقة التي وصل فيها، وإذا وصلت إليه بطاقة زيارة توضع في مظروف يُخْتم عليه الثانية التي وصلت فيها وترسل في أنبوبة بواسطة الضغط الهوائي في نصف دقيقة إلى الدور المقيم به، وهناك عمال مخصوصون يوصلونها إليه في الحال، أو يجيبون عليها بأنه غير موجود.

وتوجد لكل طبقة مصاعد خاصة بها، وصالات هذه اللوكندة غنية بكل أنواع الرياش الشمين، وفيه ما يؤجر في الليلة بألف ريال من يريد.

ويوجد في هذه اللوكندة مساكن لا تزيد عن أودة نوم فاخرة، وأودة استقبال صغيرة، وغرفة للتواليت بحمامها ولوازمها، وأودة صغيرة للسفرة وأجرتها في الليلة ٥٠٠ دولار.

وفيها ٨ آلات لتوليد الكهرباء الازمة للإنارة والمصاعد والطبخ والتدفئة والتهدية قوتها ٣٠٠٠ حصان بخارية! ولها وحدها من العمال ١٥٠ شخصاً بين مهندسين وغيرهم، وعندهم على الدوام في جانب من اللوكندة عشرين ألف طن من الفحم لإدارة هذه الآلات. ومصانع الثلج في اللوكندة تُصنَّع كل يوم ٥٠ طنًا من الثلج، يأخذون منه طلبهم والباقي له مشترون في الخارج، ولها آلات للغسيل، وغيرها للتجفيف، وغيرها للكي، وكلها تعمل على الدوام بحال أوتوماتيكية، والذي تغسله وتكونيه يومياً لا يقل عن ٦٠ ألف قطعة بين ملاءات فرش، وفوط، ومفارات، وغيرها.

وفضلات الأكل توضع في براميل خاصة بها، لها معهد يشتريها كل سنة بخمسة آلاف ريال ليستخرج منها الدهن الذي فيها بآلات مخصوصة. وتستهلك هذه اللوكندة كل سنة من الفضيات بمبلغ عشرة آلاف دولار، ومن البلاستيك بثلاثين ألف دولار.

وتستهلك من ورق الخطابات كل سنة بـ ٣٠ مليون دولار.

وتدفع اللوكندة للبلدية ٥٠ ألف دولار لأجل الماء الذي تستهلكه كل سنة، والماء الذي يُسْتَعْمل في حماماتها كله مرشح، والذي يُسْتَعْمل للسفرة مُقَطَّر، ومجموع ما فيها من الخدم ١٦٣٦ بين طباخين وخبازين وسفرجية وليوانجية وغيرها، ومن يبلغ مجموع مرتباتهم ٨٠٠ ألف دولار في السنة، وقد يبلغ إيراد هذه اللوكندة في بعض الأيام مليون دولار!

(١١) لوكاندة مانجر

وهنا أضرب لك مثلاً بلوكندة أخرى نزلنا فيها مع جماعة المؤتمر، وهي لوكندة كبيرة جديدة، فيها أكثر من عشرين طبقة، وهي في الشارع السابع، ولكنها تجارية بالمعنى الصحيح؛ ففي كل أودة منها حمام إما بمفرده أو هو مشترك بينها وبين أودة أخرى، وقد يكون الحمام مقتصرًا على الدش فقط، والماء فيما جميًعا حارًّا وبارد ليلاً ونهاراً، ويجوار ذلك أداة التواليت بكل معناها، ومن هذا تعرف أنَّ ليس لإنسان أن يترك أودته لقضاء حاجته؛ لأنَّ بها كل ما يلزمها، وفيها حنفيَّة مسلطة على حوض الغسيل متصلة بثلاثة الفلتر العمومي المخصص للشرب، تأخذ منها ماء مثلاً في أي وقت شئت، وباب الغرفة عبارة عن دولاب له بابان محدودان، أحدهما داخلها، والآخر خارجها، فتضع ملابسك التي هي في حاجة إلى التنظيف من الباب الداخلي ثم تقوله، فيأتي الخادم كل صباح ويفتح

الباب الخارجي فيننظفها ثم يضعها مكانها من غير أن تشعر به، وإذا فتحت باب غرفتك في الصباح تجد على عتبته أهمَّ الجرائد اليومية، فتأخذها وتقرأ فيها ما تريد، وفي دورها الأرضي مصاعد خمسة أو ستة بجوار بعضها البعض لا تزال صاعدة نازلة بمن يريد. وليس لأحد من الموجودين باللوكندة صلة بالخدم، بل عنده مكتب فيه جميع أدوات الكتابة من حِبْر وورق وظروف وكارتات وأقلام، وعلى المكتب الكتاب المقدس من جهة، ومن جهة أخرى مجلد ضخم فيه جميع العناوين التليفونية التي في المدينة وضواحيها، وبجوار هذا كله كرسي عليه آلة التليفون المتصل بعامل اللوكندة، فإذا أدرت منه شيئاً أمرته به فيأتيك في الحال، وإذا أردت أن يصلك بمنارة أخرى باللوكندة أو المدينة فعل بكل سرعة فتتكلم ما شئت وأنت في سريرك.

وفي اللوكندة صالة للأكل كبيرة لمن يريد أن يأكل فيها، وأجرة الأودة في الليلة تبتدئ هنا من ثلاثة ريالات، ومساحتها في الغالب ٢ متر عرضاً في أربعة طولاً، وفيها نصف هذه المساحة للحمام والتوليب.

وفي جوار باب اللوكندة محل يأخذون فيه الشاي والقهوة أو الأكل الخفيف لمن يريد من أهل اللوكندة أو غيرهم. وتتجدد الحركة في اللوكندة هائلة بحيث تجد الداخل أكثر من الخارج.

وفي نيويورك كثير من المطاعم، ومنه ما هو للخاصة بثمنه العالي، وما هو للعامة بثمن محتمل، ربما لا تصل الأكلة فيه إلى ريال، وهي في عمومها لا بأس بها. وأغلب المطاعم هنا ما يسمونه «الكافيتريا» ونظام الأكل فيها أن ليس فيها جرسونات للخدمة، بل إذا دخل المرء إليها أعطوه ورقة فيذهب بنفسه إلى العامل المختص بتوزيع الأكل ويتناول صينية وسكينة وفوطة من جواره، ويطلب منه ما يريد مما هو معروض أمامه، وكل صنف ثمن معلوم يقيده العامل في الورقة التي بيد الأكل، فإذا أتم أكله حاسب صاحب الصندوق على ما فيها كثيراً كان أو قليلاً.

وليس في نيويورك شيء من تلك القهاوي التي كثيراً ما تجدها في عواصم أوروبا «إلا لوندرا» مما يمكن أن يستريح إليه الغريب على الخصوص فيقضي في دائنته بعض الزمن؛ لذلك ترى الإنسان هنا إن لم يكن له عمل في مصرف أو في محل تجاري أو ما يشبه ذلك، فإنه لا يجد ما يستريح إليه إلا الالتجاء إلى لوكندته أو الدخول إلى أحد الطاعم أو التياترات أو السينماتوغرافات، وكلها هنا كثيرة جدًا، وخصوصاً في الشارع السابع.

أما التياترات فإذا أردتها بمعناها هنا فهي: الفاريتيه أو الهوتفيل، أما التياترو بمعناه الحقيقي — وهو الذي تُبنَى فصوله على العبرة التاريخية — فيكاد لا يوجد هنا، وليس من دليل على ذلك غير رؤيتك لدار الأوبرا وأنها بناء قديم لا يصل بأي حال من الأحوال إلى ما عليه سينماتوغرافات المدينة من فخامة البناء وبديع الشكل، وكأنني بك إذا زُرت سينما برامونت أو روكس أو الكابيتول، وشاهدتَ ما فيها من الأبهاء التي جمعتْ لطافة الشكل إلى جلال المنظر، ورأيتَ هذه السالم الرخامية الفخمة التي توصل إلى الأدوار العالية وما فيها من صالونات للاستراحة كلها موشأة بالذهب وغريب الألوان، ورأيتَ ما إلى ذلك من ثمين الأثاث، وجميل الرياش، وما يتلو ذلك من خَدِمٍ وَحَشَمٍ جَمَعُوا بديع الهنadam إلى حسن النظام، لما ترددتْ لحظة واحدة في أنك في أعظم قصر من قصور الملوك.

فإذا دخلت إلى قاعة السينما وجدتها فسيحة الأرجاء، عظيمة الرواء، تسع من النظارة بضعة الألوف، وليس فيها كرسي واحد غير مشغول بصاحبته، وكثيراً ما ترى العشرات بل المئات من المتفرجين واقفين على أبواب القاعة في كل أدوارها ينتظرون خُلُوًّا مكان لاحتلاله، والسبق للمتقدم؛ ذلك لأن التشخيص مُدته ساعتان، وآخره مُتصل بأوله من أدوار كثيرة من الساعة الخامسة بعد الظهر إلى الساعة الحادية عشر مساءً.

أما التشخيص ذاته فقد وصل الأمريكان فيه إلى الإبداع في الاختراع، والإغراب في كل باب؛ لأنهم يستقدمون من أوروبا أعظم **المُشَخَّصِين والمُشَخَّصَات**، ويفيضون عليهم ميازيب الأموال حتى يَصْلُوا في الرواية من جمال الإحسان إلى كمال الإتقان.

وقد يتخلل التشخيص فصول من الرقص الصامت الذي لا يَتَكَلَّم إلا بحركات صاحباته، يتلو ذلك شيء من الغناء والموسيقى، وقد يبلغ عدد الأوركستر في هذه السينماتوغراف إلى مائة كلهم من كبار الفنانين، إذا لعبوا نَوْرَهُمْ وهم في وسط تiarات تلك الألوان الكهربائية التي تتناسب مع القطعة التي يمثلونها ذهب بك الخيال كُلَّ مَذَهَب، وتصورتَ أنك في عالم آخر هو ما ترتاح إليه النفوس، وتسموا إليه العقائد، ومن هذا ترى أن السينما هنا في أرقى درجاته وأتم آياته.

وَجَوْ نيويورك غير صحي بالمرة؛ لأنه شديد الحرارة صيفاً مع ما يصحبها من الرطوبة التي تهيج الأعصاب وتکاد تزهق منها النفوس! وفي الشتاء ترى جوها شديد البرودة بما تکاد تُجَمَّد منه الدماء في عروقها — وهي ومدرید على خط عرض واحد — أما هواوها فكله متسم بما يختلط به من البنزين المحترق من مئات الألوف من الأوتوموبيلات التي لا تنقطع حركتها فيها ليلاً ولا نهاراً.



اسكلاه لحمام بحري في ضواحي نيويورك.

ولشددة حرها تجد فيها دكاكين خاصة كثيرة يبيعون فيها شراب البرتقال والأناناس، حتى تراه في دكاكين البقالة والمطاعم والصيدليات وغيرها.

ولا أدرى إذا كانت شدة الحر هي السبب في كونهم يمضغون اللبان بصفة عامة حتى وهم في الطريق، لا فرق بين رجل وامرأة، وشاب وشابة، وطفل وطفلة، وكذلك يبصقون فيه من غير مبالاة!

وعلى كل حال فالذي كتبته عن هذه المدينة لا يخرج عن مذكرات سائح، وهو ليس بشيء يُذكر بجانب ما لم أرَه من مشاهدتها، وقد تُمْرُّ هنا على العين في آنٍ واحدٍ صور كثيرة، ومناظر جمة لا يدرى الكاتب ماذا يتخيّر منها:

تكاثرت الظباء على خراشٍ فما يدرى خراشٌ ما يصيُّ

وما عساك تريد أن أكتب عن مدينة كأن الثمانى والأربعين الولاية المكونة للولايات المتحدة قد اندمجت فيها مع من انضم إليها من زوار وتجار ممالك أخرى، بحيث تستلزم الإحاطة ببعض حقيقة ذلك تحليلًا واسعًا نفسانيًّا واجتماعيًّا وصناعيًّا وتجارياً واقتصاديًّا، خصوصًا في مدة يسيرة كالتي أقمتها فيها؟

هذه هي نيويورك التي كل ما تقوله عنها كتب الجغرافيا بمصر هي هذه الكلمة:
«ونيويورك مشهورة بكورني بروكلن».

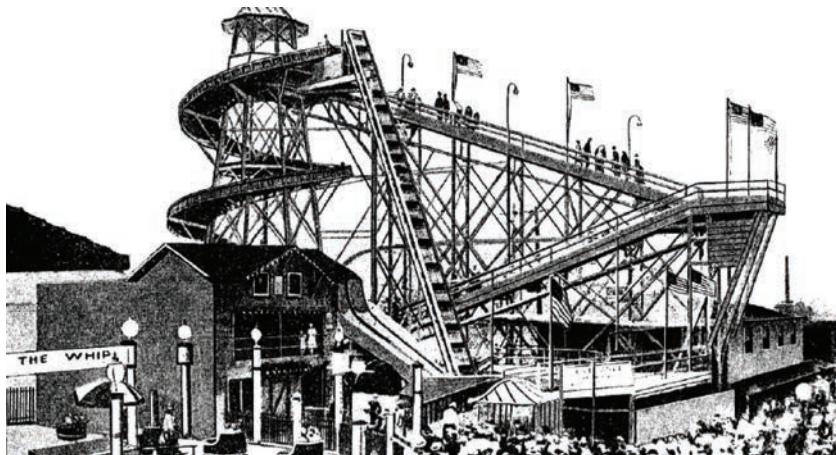
(١٢) حول نيويورك

نزة في النهرين

أَعْدَّت الغرفة التجارية نزهة نهرية لأعضاء المؤتمر، فَقُمْنَا بعد الغداء الذي قُدِّمَ لنا، وَعَدِّيْنا إلى جهة نيوجرسي في السابوي (الطريق الحديدي الذي يمر تحت النهر)، وهناك رأينا يختاً جميلاً أَفْلَانَا وسار بنا إلى النهر الشرقي، وهنا ظهرت لنا نيويورك بعظمتها، وكانت مراكب النقل تغدو وتروح أمامنا بكثرة هائلة، والذي لَفَتَ نظرِي منها بصفة خاصة مركب ذات سطح مستطيل تحمل سبع عربات من عربات السكك الحديدية لتنقلها من شاطئ إلى شاطئ آخر من هذا النهر العظيم، ومن أَعْجَب ما رأيناه في محطة نيوجرسي عربات خاصة لنقل الفاكهة، فيها مثالج تُلطَّفَ من حرارتها؛ حتى تصل إلى مواردها سليمة من كل ما يُؤْتَرُ فيها، وهناك معديات هائلة ذات دورين لتعدية الناس من جهة إلى أخرى، والدور الأول مخصص للعربات بجميع أنواعها، والثاني خاص بالركاب، بهذا وذلك كانت عظمة المدينة تمثل أمامنا في هدوء وسكينة حتى كأننا في حلم من الأحلام.

دَخَلْنَا إلى النهر الشرقي، فرأينا على يمينه ويساره من مرافع الشركات البحرية والنهيرية ما لا يُحْصِيه العدد، وبعد قليل مَرَرْنَا من تحت الكوبري العظيم التاريخي الذي يربط نيويورك ببروكلن (كورني بروكلن)، وهو يرتفع فوق رءوسنا بأربعين متراً، وكانت حركة العربات والترا莫ائيات والقطُّر الكهربائية تَصْلِنَا من ناحيته بما يضم الآذان، وقد بدا لنا منظر هذا الكوبري بعظمته الحقيقية، بل بدا لنا وهو مُعلَّق بين السماء والأرض في هذا الطول المروع، ولا يتصل بالأرض إلا على قاعدتين من البناء قام عليها من كل جهة عمودان هائلان يَبْلُغُ ارتفاعهما عن سطح الماء اثنين وتسعين متراً، وعن سطح الشارع بنحو عشرة أمتار تقريباً، وكل عمودين متقابلين يربطهما جبل ضخم من الصلب، اتصلت به فروع مائلة تَحْمِل هذا الكوبري العظيم، ثم مَرَرْنَا من تحت الكوبري «منهاتن»، وربما كان أكبر وأعظم من سابقه، ولكن الفضل كان على كل حال للمتقدم، وبعد ذلك مَرَرْنَا من تحت جملة كبار تسير فوقها قُطُّر السكك الحديدية الهائلة، وكنا في أثناء ذلك نرى في جهة بروكلن شيئاً كثيراً من المصانع والمعامل لا يمكن وصفه ولا حصره إلا بعد

مداخنه التي كانت تخترق الجو بكثرتها، وتملؤه بدخانها الكثيف، ويكفي أن تعرف أن في بروكلن من المعامل ما يشتغل بها مليونان أو ثلاثة من العمال.



ساقية الهواء في أحد المنتزهات بجوار نيويورك.

كلما سِرْنا إلى الأمام تَجلَّتْ لنا عظمة المدينة الصناعية والتجارية: هذه عن يسارنا، وتلك عن يميننا، هذه بما فيها من محلات التجارية وما لها من المرافئ الصغيرة على طول النهر، وتلك بما يُحِيمُ على جُوها من دخان معاملها التي لا تحصى. ولكن لمْ كُلُّ هذه الدهشة ونيويورك هي مملكة في مدينة قد انحصرت فيها بِنَاسِها ومصانعها ومتاجرها ومساكنها؟

وكلما سِرْنا إلى جهة الشمال رأينا البناء تَضْمُرُ، والمساكن تَصْفُرُ، وتَظْهَرُ من على يسارنا «جهة نيويورك» متراصّةً بعضها بجوار بعض، كما يظهر من الجهة الأخرى فيلات كثيرة منتشرة على أرضٍ قد فُرِشَتْ ببساط الجازون الأخضر، وأظنهما مساكن خلوية لسرادة القوم، ومن هذا تَعْرُفُ أن لا نسبة بين ما في جنوبها من عظمة البناء، وما في شمالها من بساطته.

وفي نهاية قanal هالم الذي يصل النهر الشرقي بنهر هيدسون بـأأن المبني الجميلة تظهر من الجهتين، وكانت القُطُرُ الكهربائية بكثرة سيرها على الكباري المتعددة التي

على نهر هيدسون دلالة على كثرة الحركة في هذه الجهة، وبعد قليل من سيرنا على جامعة كولومبيا، حتى إذا اتصلنا بنهر هيدسون من جهة الجنوب وجدناه قد عَظَمَ في اتساعه وظهرت على جانبه المباني الجميلة التي يسكنها سراة القوم، خصوصاً الجهة اليسرى (الشرقية)، وهي أهداً وأنظف جهة في المدينة، ويسمونها «ريفسايد»، والنهر في هذه الجهة ضعف النيل مرتين، وهو في فيضانه أو أقل من ذلك قليلاً، وما زلت سائرين بين فخامة هذه المعالم ومعالم هذه الفخامة، حتى ظهرت لنا هذه المراكب الجسيمة التي تقطع الأطلنطي أو الباسفيك إلى العالم القديم من جهة الشرقية أو الغربية، وهي في مرفقها على طول بضعة كيلومترات من جانبي الهيدسون، وأعظم المراكب التي تسير إلى أوروبا «لفياطان»، وحمولتها ٦٥ ألف طن، وكانت لألمانيا قبل الحرب، والآن للولايات المتحدة، ثم «ماجستك»، وهي لإنجلترا، وحمولتها ٥٥ ألف طن، ثم «باريس» لفرنسا، وحمولتها ٣٧ ألف طن.

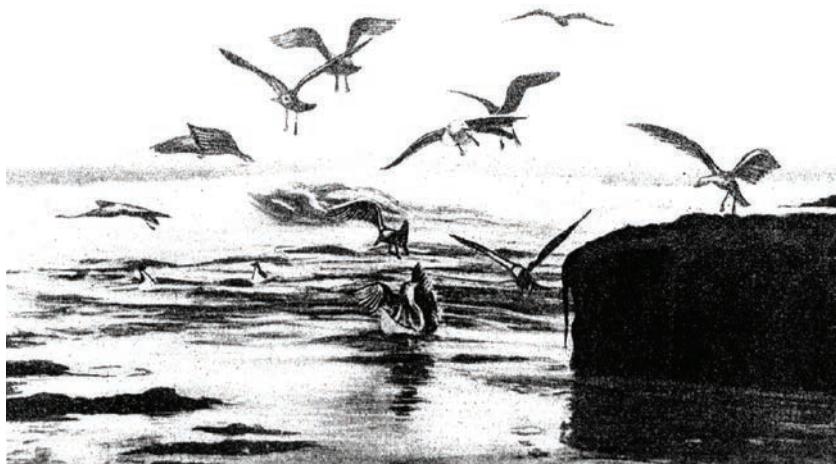
وفي نهاية الساعة السادسة مساء وصلنا إلى الجهة التي أنهينا منها، وعدنا من طريق السابوي إلى فندقنا، شاكرين للغرفة التجارية كرمها وحفاوتها.

وفي اليوم التالي دعانا الغرفة إلى نزهة خارج المدينة، وأرسلت مركبات الأتوبياث الكبرى إلى منزلنا، فركبناها وسارت بنا تخترق شوارع المدينة حتى خرجنا إلى آخر شارع برودوبي، وهنالك سرنا بين البساتين اللطيفة حتى وصلنا إلى المعمل الكيماوي الزراعي للمدينة، والذي أدهشني فيه آنسات يعلمُن في التحاليل الكيماوية، ويدرسن طبيعة النباتات والزهور، وقد رجوت أن يكون لشبابنا مثل هذا الحال، والحق يقال: إنني كنت أراني في هذا الوسط العلمي والفنى خجلاً من وقوفي في نقطة أقرب إلى الجهل منها إلى العلم، إن لم تكن هي الجهل بعينه، مع أن بلادنا زراعية، ونحن محرومون فيها من كل شيء من هذا القبيل.

وقد رأينا بهذا المكان محل درجة الحرارة فيه عشرة تحت الصفر، ثم آخر حرارته الأربعون فوق الصفر، يدرس القوم فيهما طبائع نباتات مختلفة، وبعد زيارتنا عدنا إلى منزلنا.

وفي صباح اليوم الثالث أعدّ لنا الغرفة التجارية ما يلزم من الأوتوموبيلات الكبيرة لزيارتنا جامعة «نيوبرونسويك» التي شُيدَت في سنة ١٧٦٦م، وكذلك محطة التجارب الزراعية بها، وهي على نحو خمسين ميلاً من نيويورك، فوصلنا إليها قبيل الظهر، وهناك خُرِّينا بين زيارة الجامعة أو زيارة معمل الأدوية، فرغبت في زيارة المعمل؛ خوفاً من أن

أجد في الجامعة لغة لا أفهمها! كما هو الحال عندنا، خصوصاً وقد كانت في آخر أيام دراستها، وعلمت أنها في يومها التالي ستوزع لقب الدكتوراه على مائتين من طلبتها بين شبان وشابات! فهل يأتي الزمن الذي نرى فيه هذه النتيجة عندنا؟ هل يأتي الزمن الذي نرى فيه أمهات المستقبل عندنا في مستوى هذه المرأة في قيمتها النفسية وتفوقها العلمي؟



بعض الصخور على شاطئ المحيط.

دخلتُ مصنع الجوادر الطبية «إخوان جونسون» مع طائفة من رجال المؤتمر، فبدأنا بزيارة المطبعة التي تطبع الإعلانات والعناوين التي يضعونها على زجاجات أو صناديق الأدوية، وهي تُقرّب في كثِيرٍ منها من مطبعة مصر، وفيها تُصنَّع علب الكرتون على اختلاف أشكالها.

ثم صعدنا دوراً آخر، فوجدنا آنسات، هذه تملأ العلب، وتلك تغلفها بورقة وتضعها على سكة حديدية صغيرة تتحرك بحركة أوتوماتيكية، فتنقلها إلى جهة أخرى فيأخذونها ويرتبونها في صناديقها للتصدير، ثم صعدنا إلى دور آخر فرأينا به القطن الملوج الخاص بالصيدليات قد لُفَّ على أسطوانات كبيرة، تدور بسرعة، ومن دونها آنسات يقطعنها بمقاييس مخصوصة بسرعة تسخير سرعة الأسطوانة، ثم يَضْعُنَ ما يُقطَعُنَه على

شريط من الحديد متتحرك إلى جهة يأخذونها منه ويلفونه ويضعونه في صناديقه، وكل هذا بسرعة أوتوماتيكية، ثم تسير هذه الصناديق إلى أفران درجة حرارتها ٢١٥ فرنهار، وتستمر فيها ساعة ونصف ساعة؛ لقتل ما عساه يكون بها من الميكروبات.

ثم زُرْنَا دوراً فيه أسطوانات كبيرة عليها القماش الخاص بالأربطة، وهي تدور، ومن دونها آنسات يقطّعنوه بحساب مخصوص، ومن دونهن غيرهن يضعنه في عليه ثم يُذهبُ به إلى أفران التعقيم.

وجميع الأيدي التي تشتغل هنا كانت تتحرك بحركة أوتوماتيكية مع حركة الآلات حتى كأنها كلها مرتبطة ببعضها البعض مما يدهش له الناظر، وعسى أن يرى بنك مصر ويفكر في إيجاد هذه الطريقة في عمل القطن الخاص بالصيدليات، فهو — مع سهولة عمله — من أحسن موارد الكسب.

وبعد زيارتنا للمعمل اجتمعنا بإخواننا الذين زاروا الجامعة وساروا بنا إلى حيث قدم لنا طعام الغداء من محل إخوان جونسون أصحاب معمل الأدوية.

وبعد الغداء أخذ الخطباء يتكلمون من كل صوب شاكرين للجامعة وإخوان جونسون، وكم كنت أغبط بنفسي وأنا بين هذه الأوساط العلمية التي كانت تفيض عبريتها بتلك العبارات الضخمة من أنواع التمجيد والتعظيم لحكوماتهم الأوروبيية، كلّ بِلُغَتِهِ، خصوصاً الدكتور ليتمان رئيس الجامعة، شاكراً لهم ولحكوماتهم! وهنا تمشي في عروقي دم الغيرة عندَ ذِكر وطني المحبوب بين هذه المجموعة الدولية، وقُمْتُ مستأذناً في الكلام وقلتُ هذه الكلمة باللغة الفرنسية:

كنت أود أن يباح لي الكلام بلغتي، حتى كنت أكون أقوى مني الآن على التعبير عما يخالجي من آيات الشكر لهذه الفرصة التي تشرفتُ فيها بالاندماج في مجتمعتكم الموقرة، وإنني رغمًا عما اقتصرتْ عليه عبارة الدكتور ليتمان من ذِكر الجنسيات الأوروبيية المحترمة أرفع صوتي باسم مصر وطني المحبوب بإبداء آيات الشكران والامتنان لهيئة الجامعة الجليلة، ثم ليُبَتْ جونسون الكريم، وللجنسيّة الأمريكية بصفة عامة على ما رأيناهم من كرمهم وعنائهم.

وبعد أن تُرجمتْ عبارتي بالإنجليزية قام الدكتور ليتمان وشكّرني بكلمات رقيقة.

وبعد النداء ركبنا الأوتوموبيلات إلى الأرض التي يعملون بها التجارب، وهي أرض ملحية حمضية، فرأينا جميع التجارب التي عملوها فيها تدور حول تسبيخها بالأزوٰت أو



طريق على شاطئ المحيط الأطلسي.

الجير أو سلفات النشار على نسب مختلفة، إما بمفردها وإما بإضافة بعضها إلى بعض، وكل هذه فيها تنتائجها من ضعف أو قوة في الإنتاج. فهل عندنا تجارب من هذا القبيل تقوم بها وزارة الزراعة؟ وهل إذا عملت ذلك تذيع النتيجة على الأمة؟ حتى لا تحرم من الفائدة التي تنتج عن أبحاثها؟

وبعد ذلك توجهنا إلى عزبة يسمونها عزبة الأبقار، فوجدنا الأبقار في إسطبلاتها وهي ١٨٠٠ بقرة كلها حلوى، وكيفية وجودها هنا أن توضع رعوتها في مربعات مستطيلة من قضبان من الحديد عرضها نحو ثلثين سنتيمتر بحيث يمكن فتحها من أعلى، وهذه المربعات مصنوعة بحالة تُمكّن البقر من أن تتحرك برأسها أعلى شاعت وهي تتحرك بحركتها، وفيما وراء الأبقار قناة مسقفة ينزل إليها روثها وبولها، وفي أول القناة حنفية إذا فُتحت تَنَجَّر منها الماء لغسيل هذه القناة، ويسير الماء الملوث إلى حفرة خارج الإسطبل، ولهذه الحالة تجد رأس البقرة سليمة، وأذانها لا شائبة فيها، لا كحالها عندنا! وكل بقرة من هاته الأبقار تعطي ٢١ ألف رطل من اللبن في كل عشرة أشهر! ولكل مائة منها إسطبل على حِيَّته تربط فيه مقابلة، وغذياؤها عيدان النزرة الجافة المقطعة قطعاً صغيرة ومعطونة بحيث تراها كتفل خشب العرقسوس بعد نقعه في الماء، وقد ظهر فيه رائحة التخمير، ويضعون عليه البنجر المقطع قطعاً صغيرة، ولهذا وذاك آلات مخصوصة، أما البرسيم فإنه يجفونه بالآلات يضعونه فيها من جهة وهو أخضر، فيخرج من الأخرى

وهو مطحون كدقيق الحنطة، فيملئون منه أكياساً يحفظونها للتغذية الماشي في الشتاء، وتُحلب الأبقار ثلاثة مرات كل يوم بواسطة رجال مخصوصين، وبعد ذلك يُنقل اللبن إلى معمل قريب من الإسطبلات فيوضع في زجاجات معقمة ويرسل بها إلى نيويورك.

وبعد أن زرنا النقطة التي فيها المباحث على طبيعة الأرض زرنا مكان التجارب علىأشجار الفاكهة، وهم يرثون النيوكوتين على الشجر المصاب بالميکروبات وعندهم مربعات من قضبان الحديد مترين في مترين ارتفاع ثلاثة أمتار مكسوة بالقماش، وهي أشبه شيء بالبارافانة (الدروة)، يحيطون بهاأشجار الفاكهة وقت إزهارها لحمايتها من الرياح من جهة، ومن جهة أخرى لحماية مادة التوليد التي يضعونها فيها؛ ذلك أنهم يأتون بزهرة من ذكور الأشجار الجيدة فيضعونها في وسط زهرة شجرة الإناث ف يتم التلقيح ويوجد التمر.

وبعد أن فرغنا من زيارة الأبقار ومكان الألبان سيرنا إلى محل الإداره، وهو مكان جميل في وسط خضراء نضرة، وهناك وجدنا صاحب العزبة قد جهز لنا العشاء الخلوى في هذا الهواء الخالص على نظام الكافيتريا الذي شرحناه لك في مقدمة هذه الرسائل، فأكلنا أكلة لا أذكر أني أكلت أحسن منها، وكان موظفو الإداره يدورون علينا من وقت إلى آخر بكل ما لذ وطاب، وبناتها يدرن علينا بأصناف الفاكهة والمثلجات، ونحن بين يدي هذه الطبيعة الجميلة تحفُّ بنا الأشجار وتطلّنا سماءً أذكّرتنا بسماء بلادنا الزاهرة في وقت غربت شمسه، وكمل أنسُه، وبالجملة فقد كان جمال الطبيعة وجمال الوقت وجمال الصنيع، مما لا يُنسى لهذا العالم الذي بلغت أريحيته إلى ما لا يمكن أن تراه في عالم آخر. وفي الساعة الثامنة ركبنا أوتوموبيلاتنا إلى نيويورك فوصلناها في الساعة العاشرة.

ونيويورك عاصمة ولاية باسمها في طول المحيط الأطلantي، وهي أغنى ولايات أمريكا ومساحتها ١٢٧٣٥٠ كيلومترًا مربعًا، وقتل أرينا يقسمها إلى قسمين، وفي شمالها جبال أديرونداك، وفيها غابات غنية بالأشجار الجميلة، وأرض هذه الولايات تشقّها جملة أنهار منها: نهر هيدسون، وموهاوك، ودولوار، وسيسكهانا، والنهر الأسود، وفي شمالها بحيرة أونتاريو يحيط بها جملة بحيرات صغيرة.

وفي ولاية نيويورك جملة مدن عظيمة: منها مدينة بافالو وهي مدينة عظيمة سكانها أكثر من نصف مليون، وهي مشهورة بمصانع الحديد ومطاحن الدقيق، ومدينة روشر، ومدينة سرقوسة، ويزرع في هذه الولاية البطاطس والغلال والدخان والبنجر بكثرة، وفيها معامل كثيرة لكل أنواع الصناعات للنسيج وال الحديد والسكر وغير ذلك.



أبقار معرضة للبيع وبجوار كل منها لوحة بما تنتجه من اللبن والزبدة وفي ذلك أكبر ضمان للمشتري.

و قبل أن أترك هذه المدينة أو هذه المملكة في مدينة أقول: إنني زُرت قنصليتها فوجدت قنصلها عسل بك من أرقى مَن يُعهد إليهم بمثل منصبه، وجدت فيه رجلاً عاملاً أدبياً لطيفاً، والعمال الذين معه بصفة عامة ممن تهناً بهم وزارة خارجيتنا، وهنا أذكر شيئاً أعجبني من حضرة القنصل، ولا أريد أن أترك نيويورك من غير أن أذكر أهميته: عندما حضرت إلى القنصلية لتوسيعه كان عنده رجل من كبار السوريين في نيويورك، فلما قابلناه بعد خروجه من عنده أخذ يحدثنا بما كان يتكلم معه فيه هذا الرجل، وهو أن يساعدوه في إيجاد معرض من الصناعات المصرية في نيويورك، ولا شك أن الصناعات عندنا محصورة في المنسوجات البلدية التي تُصنَّع في دمياط والمحلة الكبرى، ومصر على الخصوص، وفي عمل قطع المشربيات والأدوات النحاسية التي تُعمل في الخان الخليلي، فإذا راجت هذه الصناعات في الخارج فلا بد أن تجُرَّ إليها بعض الصناعات الأخرى التي قد يتحرك أربابها بعامل الرغبة في المكسب، وربما جرَّ ذلك إلى تعديل وتحويرِ ترقى به هذه الصناعات مما يكون فيه خير البلاد، وهنا أقول: إن مأمورية التمثيل لمصر في الخارج لا يصح أن تقتصر على وضع الإمضاءات على جوازات السفر فحسب، أو كتابة تقارير لا فائدة منها للجمهور، بل يجب أن يكون مركزه مركزاً عملياً بالمعنى الصحيح، ببحث فيه عن كل ما يرقى به بلدته في تجارتها وصناعتها، بل في كل شأن من شأنها الحيوية.

(١٣) من نيويورك إلى واشنطن

في الحادي عشر من شهر يونيو سنة ١٩٢٧ م ركبنا عرباتنا إلى محطة نيوجرسى على الضفة اليمنى من نهر هيدسون، ومنها ركبنا قطار السكة الحديدية إلى واشنطن، وكان الحر شديداً بحيث يصل إلى ٣٦ درجة سنتجراد، وقد تحرك القطار في الساعة العاشرة صباحاً، وسار يقطع أرضاً ليست مستوية، وفيها من العشب الأخضر ما هو غذاء للماشية، كما فيها بعض مزارع القمح وكانت السنابل قد بدأت تتكون فيها، وقد ترى في هذه الأرضي بعض أشجار الفاكهة منتشرة على طول الطريق وغيرها منأشجار الغابات، ولكنها ليست بنصرتها الأوروبية؛ لأن الطقس هنا بين حرّ شديد أو برد قارس، وكنا نمُّ في طول طريقنا على مدنٍ عليها أثر الصناعة من كثرة ما عليها من دخان المصانع.

وأهم مدينة مررنا عليها في طريقنا هي مدينة فيلادلفيا عاصمة ولاية بنسلفانيا، وكانت عاصمة الاتحاد الأمريكي من سنة ١٧٩٠ م إلى سنة ١٨٠٠ م، وهي الآن من أكبر مدن الولايات المتحدة، وعدد سكانها ١٨٢٥٠٠ وهي مشهورة بتجارتها الواسعة مع الخارج، وفيها كثير من مغازل القطن التي تَسْتَوْرِد كمية كبيرة من القطن المصري، وأهم مصانعها الحديدية مصانع بلدوزين، وهي أكبر مصانع للفاطرات البخارية للسكك الحديدية، وفي هذه المصانع نحو ١٤ ألف نفسٍ يعملون ليلاً ونهاراً، ويستغلون أكثر من ٢٠٠ قاطرة كل سنة! وهي من صنف القاطرات الجسيمة التي يبلغ ارتفاعها ٥ أمتار عن شريط السكة الحديدية، وزنتها ١٤٠ طنًا، وفي هذا المعلم يحرقون نحو عشرة آلاف طن من الفحم الحجري كل شهر، وفي مكاتبها أكثر من عشرين مهندساً ومائة رسام.

وفي هذه المدينة أكبر مطبع الولايات المتحدة، وهي مشهورة باسم «كارتس دوفيلادلفيا» ولا أدرى كيف يكون مبلغ دهشتك إذا رأيْت هذه الإدارة الهائلة ولم تر فيها شيئاً من الكتب مُقدّماً للطبع! في حين أنك تجد فيها شيئاً كثيراً جداً من النشرات والمجلات.

وأهم ما يطبع فيها من المجلات الأسبوعية «المجازين الثلاث»، ويُطبع منها كل أسبوع مليونان ونصف مليون نسخة في اثنين منها، ومتلليون ونصف في الثالثة!

ومن باب الفائدة نذكر لك كلمة عن هذه الإدارة لتعرف شيئاً مما يقال له مجلات هنا، كما عَرَفْتَ بعض الشيء عما يقال له جرائد يومية في كلامنا على نيويورك.

هذه المطبعة لها بناء مكوّن من إحدى عشرة طبقة في أحسن ميادين فيلادلفيا، ومسطحه أكثر من ثمانية آلاف متر مربع، بحيث يكون مسطح جميع طبقاته نحو عشرين



بنية البرلمان بواشنطن.

فدانًا، والطبقة التاسعة منه فيها مطعم العمال، ومحل استراحتهم ورياضتهم، ومكان للسينما، ومكان للمحاضرات، والعشرة فيها المطابخ والمستشفى وغير ذلك مما يتعلّق بلوازم العمال، وكل هذه الحال على أحسن ما يكون من النظافة والنقاوة وجميل الأثاث. وفي هذا البناء ١٤ مصعدًا للرجال، وعشرة للبضائع، وفيه ثلاثة آلاف عامل، ويُطبع فيه كل يوم خمسون ألف صفحة تستلزم نحو مائتي طن من الورق الجيد! وفيه من المواتير الكهربائية ما تزيد قوتها عن أربع آلاف حصان بخارية، وذلك كله لإدارة المطابع والإنارة، وعند انتهاء طبع المجلات تُشحن في عربات توصلها بغاية السرعة إلى أماكن تصديرها.

وحيث إننا تكلمنا هنا بشيء عن القاطرات، فيجُمل بنا قبل أن نترك أرض بنسلفانيا أن نتكلم عن مصانع قضبان السكة الحديدية في «بتسبورج» التي هي من أهم مدن بنسلفانيا، والتي بها أكبر مصانع الحديد في العالم.

(١٤) بتسبورج

ويسمونها مدينة الحديد؛ لأن فيها أكبر مصانع الحديد، لا في الولايات المتحدة وحدها، بل في جميع العالم، بحيث لا تُذكر مصانع كروب «بألمانيا» بجوارها في شيء! وعدد سكانها ٦٠٠

ألف نفس، وهي على ملتقى نهرِي اللجاني ومونتجاهيل، وتتصل بما وراء النهرين بجملة كبارٍ، وينتهي إليها ١٥ طريقاً حديدياً، ويقوم منها ويدخل إليها كلَّ يوم نحو أربعمئة قطر من قطر السكة الحديدية، وتبلغ صادراتها كل سنة بـ ٧٥ مليون طن ما بين حديد وفحم حجري وبترول! وأرض هذه الجهة غنية جدًا بهذه المعادن الثلاثة، لدرجة أنهم يزعمون أن معادنها هذه تكفيها على نسبة هذه الصادرات سبعمائه سنة أو تزيد، وخصوصاً في البترول الذي يكثُر فيها جداً، ويُصدّرون منه كل سنة أكثر من ٤٠ مليون برميل، ويُصنَع في هذه المدينة ثلث ما يُصنَع في الولايات المتحدة من قضبان السكك الحديدية، ومن صفائح الصلب، ويُصنَع فيها غير الحديد الزجاج، وفيها معمل كبير لفواكه المجهزة تُصدَر في علبها إلى جميع جهات العالم، وبالجملة فالمدينة كلها مكونة من مصانع مختلفة، وترتها بالليل والنهار كتلة واحدة ملتهبة تتغلغل جذوتها في الجو وتتصل بأعمدة دخانها إلى عنان السماء!

ومن أكبر مصانعها التي تعمل الصلب كتلاً وصفائح: مصنع «هومستيل» وبها من العمال سبعة آلاف وخمسمائة عامل، وتصنع كل سنة أكثر من مليوني طن من كتل الصلب، ومن ضمن آلاتها مطرقة زنتها ١٢٥ طناً!

أما المصانع التي تعمل لقضبان السكك الحديدية فهي: مصنع «أدجار تومسون» وفيها من الآلات ما بها يمكن للعامل الواحد أن يصنع بمفرده في اليوم كيلومتراً من القضبان العريضة التي طول الواحد منها ٣٠ قدماً، ويُصنَع المعمل كل يوم ما طوله ستين كيلومتراً من هذه القضبان.

(١٥) مدينة واشنطن

هي عاصمة الولايات المتحدة، وواقعة على نهر بووثهاماك، وتعدادها نحو ٨٠٠ ألف نفس، وشوارعها واسعة ونظيفة، وتُسمى الشوارع الكبرى التي تتجه من الكابيتول (مجلس النواب) بالأحرف الهجائية، والشوارع التي تقطعها بالأعداد في الغالب، فيقولون: شارع حرف ب مع شارع ١٥ مثلاً. وهذه المدينة مركز سياسي وإداري أكثر منه صناعي وتجاري؛ لذلك تجد أهلها أستقراطيين؛ لأن غالبيهم يعمل في صالح الحكومة. وقد رسم كروكي هذه المدينة في سنة ١٧٩١ م ووضع أساسها «جورج واشنطن» الذي كان رئيساً للولايات المتحدة، وصارت مركزاً لحكومة البلاد المتحدة من سنة ١٨٠٠ م.



منزل واشنطن وهو أول رئيس للولايات المتحدة.

وَسَمِّيَتْ باسم رئيسها المؤقت، وقد أحرق الكابيتول سنة ١٨١٤ م زمن حربهم مع الإنجليز ثم شُيِّدَ بعدها على ما تراه من العظمة والجلال، وكان القوم يتبركون باسم واشنطن حتى أطلقوه على ولاية في الشمال الغربي من الولايات المتحدة، ثم على نحو عشرين مدينة من مدنهم المختلفة في دائرة الاتحاد!

(١٦) جورج واشنطن

هو ذلك الرجل العظيم الذي كَوَّنَ الولايات المتحدة وكان أول رئيس لها، هو ذلك الرجل العظيم الذي وُلدَ في مزرعة أبيه بولاية فرجينيا سنة ١٧٣٢ م. وفي سنة ١٧٥١ كان قومـنـانـاً لـلـفـرـقةـ الـعـسـكـرـيـةـ التـيـ كـانـتـ بـهـذـهـ الـوـلـاـيـةـ،ـ وـكـانـتـ لـهـ مـوـاـقـفـ مـعـدـودـةـ مـعـ الفـرـنـساـويـنـ.ـ وـفـيـ سـنـةـ ١٧٧٩ـ مـ اـنـتـخـبـ عـضـوـاـ بـالـجـمـعـيـةـ الـعـمـومـيـةـ لـهـذـهـ الـوـلـاـيـةـ.ـ وـفـيـ سـنـةـ ١٧٧٥ـ مـ عـيـنـهـ مـؤـتـمـرـ فـلـادـلـفـيـاـ قـائـدـاـ عـامـاـ لـلـجـيـوشـ الـأـمـرـيـكـيـةـ،ـ وـحـارـبـ الإـنـجـلـيـزـ وـأـجـلاـهـمـ عـنـ بـوـسـطـونـ،ـ وـعـقـبـ اـنـتـصـارـهـ عـلـيـهـمـ أـغـنـتـ الـوـلـاـيـاتـ الـمـتـحـدـةـ اـسـتـقـلـالـهـاـ فـيـ سـنـةـ ١٧٧٦ـ مـ،ـ وـماـ زـالـ فـيـ حـرـبـ مـعـهـمـ إـلـىـ سـنـةـ ١٧٨٣ـ مـ،ـ وـكـانـ يـسـاعـدـ الجـنـالـ لـفـايـيـتـ بـجـيـشـ منـ الفـرـنـساـويـنـ،ـ وـفـيـ هـذـهـ السـنـةـ تـمـ الصـلـحـ المـشـهـورـ بـصـلـحـ فـرـسـاـيـ،ـ وـبـهـ اـعـرـفـ إـنـجـلـنـداـ باـسـتـقـلـالـ الـوـلـاـيـاتـ الـمـتـحـدـةـ،ـ وـبـعـدـ هـذـاـ كـلـهـ عـادـ واـشـنـطـونـ إـلـىـ مـزـرـعـتـهـ يـشـتـغلـ بـالـفـلاـحةـ،ـ

حتى إذا تكون البرلان في سنة ١٧٨٧ م انتُخب واشنطن رئيساً له، ثم عَرَضَ عليه قومه تاج البلاد الملكي فرفضه بكل إباء، ولما انتهت الانتخابات البرلمانية انتخب رئيساً لحكومة الجمهورية المتحدة سنة ١٧٨٩ م، وأُعيد انتخابه سنة ١٧٩٥ م، ولكن رَفَضَها لِمَا عُرِضَتْ عليه في المرة الثالثة، وانسحب إلى مزرعته يعيش فيها بين أفراد عائلته كواحد من عامة الناس.

وفي سنة ١٧٩٨ م أُعلنَت الحرب بين فرنسا والولايات المتحدة فَقَبِيلَ واشنطن أن يتَعَيَّنَ قومناً عَامًا للجيوش الأمريكية، وبدأ في تنظيم خط الدفاع، وبعد أن تقرر الصلح في سنة ١٧٩٩ م مات واشنطن إلى رحمة الله فبكَّهُ البلد بكاءً مَرَّاً، وهو إلى الآن وإلى الغد عنوان سعادتها وعظمتها.

وأول واجب رأيته على في هذه المدينة بِصَفَّتي مصرِيًّا هو زيارتي للمفوضية المصرية، فاستقبَلَنَا سعادة الوزير المفوض محمود سامي باشا بما هو معهود فيه من سمو آدابه، وكريم محتده، بما جعل له في قلوبنا أثراً لا تمحوه الأيام.

وهنا يجمل بنا ألا ننسى ما رأيناه من لُطْفٍ وآداب موظفي المفوضية المحترمين، وهم حضرات رمسيس بك السكريير الأول، والعيسى بك، ونور بك، وكانت دار المفوضية حين زرناها لا تليق بها، ولكنهم انتقلوا بعدها إلى دارٍ أَنُور وأَشَرَّ.

وهنا أستميحهم الإذن في أن أُتَبِّعَ عليهم بِلُخْلَمٍ في إجاباتهم على بعض ما كنت أريد الاستفسار عنه من المسائل العامة التي قد تقيد مصರنا العزيزة، حتى لِكَانَهَا سِرًّا من الأسرار السياسية التي هي من شؤونهم الخاصة ومن وظيفتهم المحافظة عليها، وكذلك لا أُخْلِي قنصلية نيويورك من هذا العَتْبِ بعينه، وإن كنت شخصياً لا أنسى كَرَمَ موظَّفيها وأدبها.

وهنا أرجو أن يسمح لي حضرة القارئ بكلمة في هذا الموضوع ليتعرف منها بعض ما عليه السفارات الأخرى بواشنطن:

في اللوكنداط بيانات بالبنایات المهمة التي يوصون بزيارتها، ومن ذلك بعض السفارات الهامة، ومن أهم السفارات هنا سفارة الإنجليز، ويقال: إنَّ مُرَتبَ وزيرها لا يقل عن سبعة عشر ألف جنيه في السنة، غير ما يأخذه من مصاريف التمثيل، وهو ما لا يقل عن نصف مرتبه، وقد بَلَغَنَا أنَّ في هذه السفارة من الموظفين ما لا يقل عن خمسين موظفًا، هذا للسياسة، وذلك للجرائد، وذلك للزراعة، وغيره للتجارة ... وهكذا؛ لِكُلِّ شأن من الشؤون الحيوية موظف خاص به لا يشتغل بغيره، ولا بد أنه مُتَقْنَه وعارف بجميع

الرحلة إلى أمريكا



البيت الأبيض بواشنطن.

مفرداته وتفاصيله، ولا بد أن يستخلص منه ما يفيد دولة، أو بعبارة أخرى: أمته، أما مفهوميتنا فليس فيها غير نفر ثلاثة! وحكومتنا تريد أن يكون ممثلاً رئيساً ومرءوساً، وكاتباً ومحاسبًا، ومحررًا ومتجمماً، أو بعبارة أخرى أن يستعمل نفسه في كل غرض من الأغراض وفي كل لون من الألوان حسب مقتضيات الأحوال، وهو تكليف من لا يريد أن تكون له نتيجة محمودة في عمله.
وهنا نذكر لك باختصار أهم بناءات المدينة.

البيت الأبيض

هو البيت الخاص بسكنى رئيس جمهورية الولايات المتحدة، وهو واقع على دوران ميدان صغير يجمع بين بساطته وعظمته وصغره وفخامتها، وكان واشنطن يلاحظ مع زوجته بنائيته حتى تم في سنة ١٧٩٢م، وقد أحرقت الجنود الإنجليزية في حرب الاستقلال سنة ١٨١٤م، فرُشّوه بالجير ليُخفوا ما تأثر به من اللون الأسود، ومن هذا الوقت سُمِّيَّ بالبيت الأبيض.

وفي جانب من جوانبه جناح فيه مكتب الرئيس، وهو على منتهى بساطته وصغره يعمل فيه ذلك الذي بين شفتيه إسعاد دولة من الدول أو إشقاها، ومعه ياوران وعدد من الكتبة والسكرتاريين، يقوم بتنفيذ أوامره إلى حيث أراد من داخلية بلاده أو خارجها، وليس فيه من الحرس إلا بوليس واحد على بابه، وفي الوقت الذي رأيتاه فيه كانت به عمارة فاللتزمت حكومة الولايات المتحدة أن تستأجر له منزلًا آخر قد لا يصل إلى أصغر منازل الخاصة في مظهره وفي سعته.

وبهذه المناسبة أقول لك: إن رئيس الولايات المتحدة مرتبه ١٥ ألف جنيه في السنة، وخمسة آلاف بصفة مصاريف يُقدّم عنها لحكومته حساباً بالجهات التي صُرفت فيها.

ومن أشهر العمارات التي زرناها عمارة الصليب الأحمر وعمارة عصبة الأمم الأمريكية، وهذه الأخيرة من أحسن عمارت العالم، جمعت إلى عظمة مناظرها جلال داخلها، وكلها مبنية بالرخام الأبيض من الخارج والداخل، وقد دعانا إليها مع أعضاء المؤتمر وزير الزراعة دعوة رسمية، فأقمنا بين بهوها وغرفها إلى فترة من الليل، وانصرفنا شاكرين له كرمه ولطفه.

أما بناء المكتبة العمومية فهو من أجمل ما رأيته في جميع البلاد التي زرتها، وجميع مبانيها تشغل نحو ثلاثة أفدنة ونصفاً، ومع أنهم بدعوا فيها من سنة ١٨٠٢ م فإنهم لم ينتهوا من بنائها إلا في سنة ١٨٩٧ م، وقد تكَلفت مبانيها ستة ملايين من الريالات! ويحيط بالمكتبة بستان جميل، فإذا دخلت من مدخلها العمومي وجدت طرقاً بدعة جدًا أرضيتها من الموزاييك، وحوائطها من الرخام الأبيض، وفي حوائطها بعض صور صُنعت من الفسيفساء المختلفة الألوان يدخلها شيء كثير من الذهب. وهذه الطرقة توصل إلى صالة في منتهى الفخامة كلها من الرخام، وفيها سلم من المرمر يصعد إلى الدور الأول الذي يُرى به طرقة تدور حول مربع مستطيل يحيط به دربزون من المرمر، ويُشرف هذا المربع على الصالة التي في الدور الأرضي، وسقف هذا المكان الهائل مركب على حنایا ترتكز على نحو ستين عموداً من المرمر أسطوانية الشكل، قطعها نحو ثلاثين متراً في ارتفاع أربعين متراً، تعلوها حنایا قامت عليها قبة عظيمة غاية في الإبداع، وفي وسط هذه الحنایا منافذ واسعة للنور، وفي أسفل الدائرة مكاتب المطالعين على شبه ثلات دوائر بعضها أصغر من الآخر، وفي وسطها مكتب دائري في وسطه دولاب من الخشب فيه أدراج

صغيره وحوله عمال، فإذا طلب أحد المطالعين كتاباً قدّم نفرته إلى العامل فيضمها في أحد هذه الدواليب ويضغط على زر فتدهب الورقة بواسطة ضغط الهواء إلى الغرفة التي بها الكتاب، فيوضعه العامل في أنبوبة موصولة إلى ذلك الدوّلاب فيصل إليه بواسطة ضغط الهواء فيسلمه العامل إلى الطالب!



دار الكتب بواشنطن.

ومسافة ما بين المكتبة والبرلمان نصف ميل، فيها نفق يصل بينَّاهين بعضهما بالآخر، فإذا أراد أحد أعضاء البرلمان كتاباً وصل إليه في ثلاث دقائق. أما غرف الكتب فهي في أجنحة خاصة بها ليس في بنائهما شيء من الخشب؛ خوفاً من الحرائق، وفيها من الكتب مليونان وثمانمائة ألف كتاب! على أن تصميمها عمل على أن تسع أربعة ملايين من الكتب.

وبالجملة فهذه المكتبة من أقبح شيء في نوعها، وليس هي الوحيدة في واشنطن، بل هناك دور آخر للكتب لا تقل عنها في مقدار كتبها وإن قلت عنها في روائتها وبهجهتها.

ومن أهم أبنية المدينة وزاراتها جميعها، وخصوصاً وزارة الحرب ووزارة المالية، وفي الدور الأرضي من هذه الأخيرة خزائن الذهب المقدس بين جدرانها، والذي ربما زاد عن

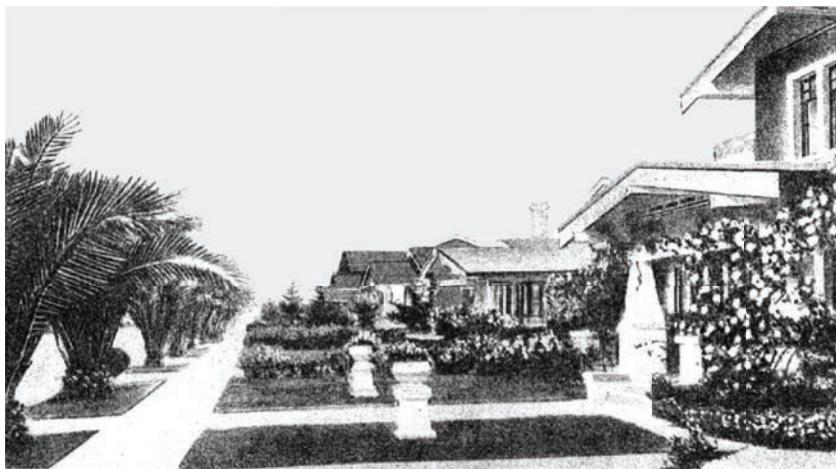
الذهب الموجود بين دفتي العالم القديم جميعه! ومن العجيب أنك لا ترى به حراساً ولا بوليساً، بل تراه محمياً بقوة أوتوماتيكية لا يَعْرِفُها غير من يَعْرِفُ سِرّها! حتى إذا أتاها غريب ووصلتْ رجله أو يده إلى طرف من أطراف الخزائن دَقَّتْ الأجراس من جميع جهات المكان فـيأتي الجيش ويحاصره بغاية السرعة، ويقبض على من أُوْقَعَه سوءُ حظه بين يديه في هذا المأزق الذي لا مخرج له منه.

وأضخم أبنيه المدينة هو الكابيتول (البرلان) الذي تراه قائماً في وسط المدينة على هضبة عالية تتصل منحدراتها بـبستان جميل جداً آية في روائه وبهائه، ويقطع هذا البستان جملة طرق، أبعادها عنه ما جعل لدور الأوتوموبيلات، حتى لا تُسمَع لها حركة مطلقاً في محيطه، ويُصْعد إلى بناء البرلان من جهاته كلها بدرجات واسعة جداً من الرخام تراها في منحدرها العظيم قد اتصلتْ عَظَمَتْها بذلك الجلال الذي يحيط بالبناء الذي تعلوه قبة تکاد تناظح السماء، وعن يمين القبة وشمالها بـناءان عظيمان فخمان، أحدهما لمجلس النواب، والآخر لمجلس الشيوخ، وفي اتجاه كل منهما – على اتصال بالحقيقة من الجهة الأخرى – بناء فخم، فيه مكتب خاص لكل عضو من أعضاء المجلسين، وفيه سكريتير لتحضير المواضيع التي هو في حاجة إليها، ومصاريف هذا كله على الحكومة بطبيعة الحال، وقد كان البرلان وقت زيارتنا للمدينة في عطلة من عمله؛ ولذلك لم أتمكن من زيارته.

وفي الجملة فالبرلان هنا هو كل شيء، بل هو الحياة التي تستمدُ منها البلاد وجودها، وكل عضوٍ من أعضائه إنما هو قوة لبلاده تستعين بها في حل المشكلات، وإنارة الم dilemas، وفي تقيين القوانين، وفي تـشـريعـ الشـرـائـعـ لكل فرع من فروعها الحـيـويـةـ.

وبـنـاءـ البرـلـانـ مرـكـزـ تـتـفـرـعـ مـنـهـ أـنـصـافـ أـقـطـارـ إـلـىـ نـقـطـ مـخـتـلـفةـ مـنـ مـحـيطـ دائـرةـ المـدـيـنـةـ، وـهـذـهـ الـأـنـصـافـ الـأـقـطـارـ الـتـيـ هيـ الشـوـارـعـ الـكـبـرـىـ تـقـطـعـهـ شـوـارـعـ أـخـرىـ أـقـلـ مـنـهـ اـتـسـاعـاـ، إـنـ كـانـتـ لـاـ تـنـقـصـ عـنـهـ جـمـالـاـ وـرـوـاءـ. وـجـمـيـعـ هـذـهـ الشـوـارـعـ لـيـسـ فـيـهـ إـلـاـ حـرـكـةـ هـادـئـةـ لـاـ يـقـلـلـكـ شـيـءـ مـنـهـ لـاـ بـالـلـيـلـ وـلـاـ بـالـنـهـارـ، وـبـالـجـمـلـةـ فـالـحـرـكـةـ فـيـهـ طـبـيـعـةـ تـنـشـطـ نـهـارـاـ وـتـسـكـنـ لـيـلـاـ، لـاـ كـمـاـ تـرـاهـاـ فـيـ نـيـوـيـورـكـ تـأـخـذـ بـينـ طـرـفـ النـهـارـ وـطـرـفـ الـلـيـلـ.

وـمـنـ أـعـجـبـ ماـ تـرـاهـ هـنـاـ آـلـافـ الـأـوـتـوـمـوـبـيـلـاتـ عـلـىـ أـفـارـيزـ الـطـرـقـ مـنـ الـجـهـتـيـنـ؛ لأنـ كلـ وـاحـدـ مـنـ أـهـلـ الـمـدـيـنـةـ مـنـ مـوـظـفـيـهـ وـعـمـالـهـ وـخـدـمـتـهـ يـصـحـ أـنـ يـكـونـ لـهـ أـوـتـوـمـوـبـيـلـ؛



بعض مساكن الأميركيان الخصوصية.

لأن عددها بواشنطن بنسبة واحد إلى خمسة من عموم سكانها، فإذا حضر أحدهم إلى عمله أو قف أوتوموبيله مستظهراً للطريق بجوار الرصيف، حتى إذا فرغ من عمله ركبه وانصرف لحال سبيله.

ومساكن المدينة ليست بالجساممة التي تراها في مساكن نيويورك، بل هي بسيطة جميلة تتربّع من طبقتين أو ثلاث في الغالب، ويُندر منها ما يصل إلى أبعد من خمس أو ست طبقات، ودكاكينها عادية في سعتها، ومن المدهشات ما تراه في كل دكان من صور لنبرج المختلفة، معروضة للبيع على أشكال متعددة، فبينما تراه قائماً، فإذا به طائراً أو مصلحاً لطيارته، أو في بعض استقبالاته الرسمية بفرنسا، أو إنجلترا، أو بلجيكا، في هذه مع ملكها وملكتها، وفي تلك مع مليء عهدها، وفي الأولى مع رئيس جمهوريتها، ثم في استقباله العظيم في واشنطن، وفي استقباله الفخم في نيويورك، ومن أعجب شيء أنك تراه مرسوماً على القماش الخاص بلباس السيدات، وعلى القماش الخاص بالمفروشات، وتري في فترینات الدكاكين كتبًا ضخمة كُتب عليها هذا العنوان «سيرة لنبرج»، وتري بجوار هذا كله تلك المداليلات التي فيها رسمه، ثم صورته على أبواب دور التمثيل مما لا يكاد ترى معه غير صورة لنبرج أو تسمع ذُئْنُك غير اسم لنبرج، ومن هو لنبرج؟

لنبرج

شاب عمره ٢٥ سنة، وهو ضابط في هيئة الطيران الأمريكية برتبة «يوزبashi» فلما رأى أن الأفكار متوجهة إلى الطيران بين العالم القديم والعالم الجديد، خصوصاً وأن الطيار الفرنسي وننجسر لم ينجح فيما أراده من قطع المسافة بين فرنسا والولايات المتحدة، أخذ لنبرج أهبيته للسفر على طيارته وسافرَ من غير أن يُعلِّم من أمره شيئاً، ولم يُخْبر والدته إلا في آخر وقت، فكانت إجابتها له: «لو كنت أعلم بسفرك قبل هذا الوقت لسافرت معك». طار لنبرج إلى شرق الولايات المتحدة قاصداً باريس، فوصلها بعد ٣٢ ساعة لم يَدْقُ فيها نوماً، ولم يستسلم إلى راحة! وكيف ينام من كان الموت يهدده من كل جهة من جهاته الست، خصوصاً في اليوم الأخير الذي قامت فيه عاصفة جعلت الناس في باريس تذهب كل مذهب في حياة الطائر، وسوادهم على عقيدة ما لا يُحْمَد من أمره، ولكن القدر المحتوم خالَفَهم، ووصل لنبرج إلى باريس في نفس الوقت الذي أَعْلَمَ عنه، وهو منتصف الساعة الحادية عشرة مساءً، وكان في انتظاره عشرات الآلوف من الفرنسيين الذين كانوا مع احتفالهم به يرجون أن لو كان هذا الانتصار لمواطنهم وننجسر! ولا عيب عليهم في ذلك؛ لأن الوطنية رحم بين أهلها.

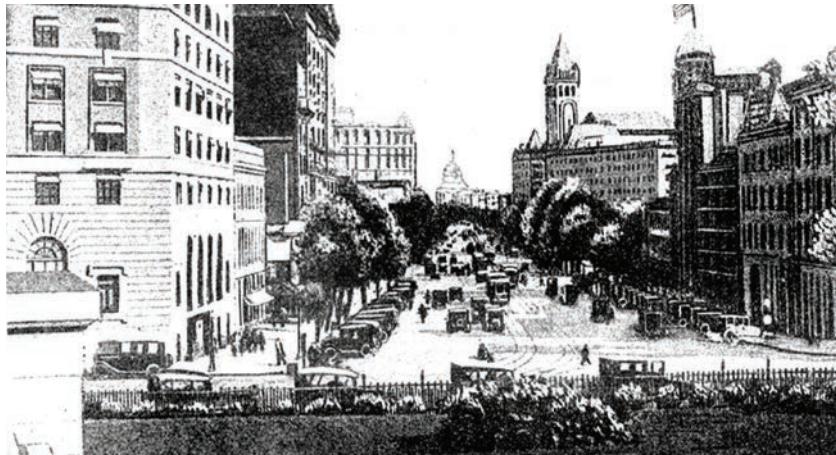
احتفلت الأمة الفرنساوية بالرجل من رئيسها لمروعه وسياها، من كبیرها لصغرها، كما احتفلت به بلجيكا، وإنجلترا، من ملوكها إلى سوقتها، وقدَّمتُ إليه نياشين الشرف من كل صوب، ثم أَرْسَلْتُ إليه حكومته تستدعيه إليها، وبِعْثَ له بطراد حربي ليُقْلِه من مياه فرنسا إلى واشنطن، واستقبلته استقبالاً كبار الفاتحين استقبالاً رسميًّا بِفِرَقَ من رجال الحرب والطيران والبحرية، وفي مقدمتهم رؤساء البلاد مع الرئيس كولاج الذي وضعَ على صدره أكبر أوسمة الدولة، وسلَّمه براءة إمارة آلي من آليات الطيران.

وكان في استقباله من الشعب ما قَدَّرُوه بنصف مليون نسمة! واليوم (١١ يونيو) ميعاد وصوله إلى نيويورك، وستحتفل به المدينة أيما احتفال! ففي كل جهة منها ترى الزيادات وأقواس النصر ذات الأعمدة الذهبية، زينات تقام عندهم لكتاب الرجال! تقام لكل مَظْهرٍ من مظاهر الفتح الذي تستفيد منه الأمة! لا لظاهر عظمة الأشخاص كما هو الحال في الشرق!

وهل هذه الاستقبالات والحفاوات إلا جزءاً وفأقاً للعمل الصالح الذي تتنَّقَعُ به البلاد في خصوصها، والإنسانية في عمومها؟ لم يَصل العلم والفن إلى ما وصلا إليه من مظاهر

الرحلة إلى أمريكا

هذه المدنية السامة إلا بجزاء المحسن على إحسانه، والمتقن على إتقانه، بهذا سار الغرب وأمريكا بخطوات واسعة نحو حضارتهم الحالية التي تُدهش الأ بصار وتستلب القلوب.



شارع بانسلفانيا بواشنطن.

أما في الشرق! فليس للإحسان من جزاء؛ اللهم غير الاضطهاد، أو الانتقاد، أو حسد الحساد؛ ذلك لأن الحياة عندنا تكاد تكون شخصية صرفة! ولا يمكن أن تجتمع مصلحة الشخصيات والعموميات تحت سماء واحدة، وفي نفس واحدة؟ وما دمنا بهذا الخلق فإننا سنكون عالة على الأمم الأخرى في وجودنا، أشبه شيء بتلك المخلوقات الطففية التي تعيش على حساب غيرها.

مسلة واشنطن

حسبنا هنا أثر على مثال آثار بلادنا: مسلة مصرية في شكلها وقدها من بعد كالمسلة التي في ميدان الكونكورد وبارييس، فقلت في نفسي: حتى في قلب أمريكا وصلت آثارنا الخالدة! إلا أنى لما زرتها ذات صباح هالئني ما رأيته من ضخامة هذا الأثر ومن ارتفاعه! وظهر

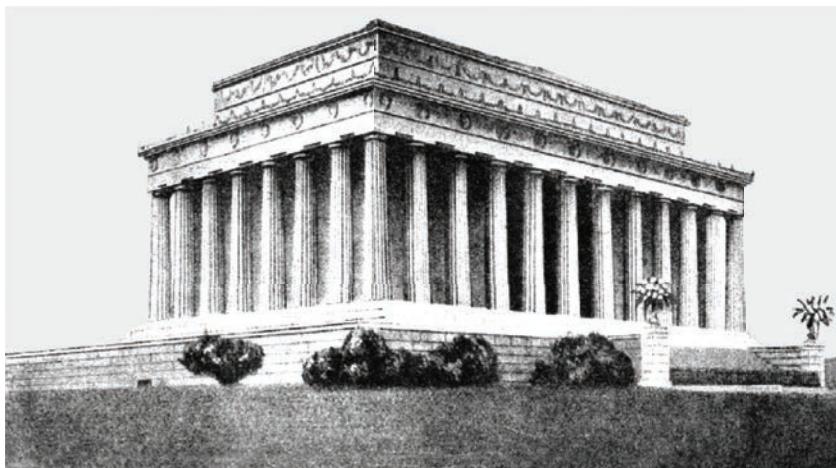
لي أنه إن لم يكن مصرياً في موضوعه فهو مصرى في شكله، وكم لدنية مصر القديمة على العالمين القديم والجديد من يدِ ساعَتْ في تكوين مَذَنِيَّةِهما وحضارتهما.

ولكن ما أسرع معدة الأمم الحديثة القوية في هضم ما لوطَنَا عليها من فَضْلِ لو أنكروه فلا يمكن للتاريخ أن ينكره، أما هذا الأثر فقد شَيَّدُوه لذكرى الرئيس واشنطن، وابتدعوا في إشادته سنة ١٨٤٨م، وتم العمل فيه سنة ١٨٨٥م، ويُصعد إلى قِمَّته بواسطة فينيو كيلير (مَصْدَعْ كهربائي) من داخله، وبَلَغَتْ مصاريفه ٣٠٠ ألف ريال! وارتفاعه ٥٥٥ قدماً، وعرض قاعدته ٥٥ قدماً أو يزيد قليلاً – ومن أعلى هذا الأثر ترى المدينة وشوارعها كأنها مخطوطة، ولا يمكنك تمييز صالح الحكومة الكبرى إلا بما يرفف عليها من هذا العَلَمُ الذي يمثل قوةَ البلاد وعظمتها، وكأنني بروح واشنطن يَنْظُرُ من قمة هذا الأثر بعد قرن ورُبِّعٍ من مَوْتِه ليشاهد هذه المدينة العظيمة التي وضعَ أساسها، ويتمتع برؤية هذه الأمة التي كان أَوَّلَ المجاهدين في استقلالها، والعاملين لحياتها، تلك الحياة التي بَرَهَنَتْ على ما في هذا المخلوق الضعيف الذي يُسَمَّى إنساناً من قوةِ إنْ أَحْسَنَ استعمالها – وصل بها إلى عظمة تستكين أمامها جميع الكائنات، ويستسلم لها سلطان الطبيعة بما فيه من صلابة واستعصاء.

وقد شَيَّدَ هذا الأثر على هضبة في وسط حديقة غناء تنتهي إلى نهر بوتوماك من الجنوب، وبناء البرلان من الشمال الشرقي، وبأثر لنكولن من الجنوب الغربي، ويخرج من النهر خلجان تناسب في وسط هذه الحديقة بما يُحْدِثُ عنها جزر صغيرة متصلة بعضها ببعض، بواسطة كَبَارِ جميلة، وعامَّةُ هذه الجزر داخلة في الحديقة بما يزيدُها رواء وبهاء.

أثر لنكولن

هو بناء مَرْبَعَ قام على الشكل الروماني، وتراه على نجد مرتفع، تدور من حوله تلك الأعمدة الفخمة، ويُصعد إليه بجملة درجات واسعة في عرض البناء، حتى إذا دَخَلْتَ من بابه وجدت بهوًا عظيماً مَرْبَعاً تُرْفَرِفُ عليه روح الجنال، وفي وسطه تجاه الباب تمثال لنكولن، جالساً في صندلية من الرخام، قامت على قاعدة مرتفعة، واتجاه وجهه إلى البرلان، كأنه يشير بذلك إلى أنه هو القوة الوحيدة التي يضع كل إنسان فيها ثقته في وصول البلاد إلى سنام عظمتها ومجدها.



الأثر الذي أقيم للرئيس لنكولن في واشنطن.

وقد نقشت على حائطي المكان من يمين ويسار تمثال هذا الرجل العظيم كلمتان له، نسوق إليك ترجمتها لما فيهما من عظمة الأقوال التي اتصلت بما له من عظمة الأفعال، ففي اليمين:

يجب أن نُشَّمْ عن ساعد الجد في تتميم العمل الذي بين أيدينا مبتعدين عن الأحقاد، مرتبطين بروابط الاتحاد، متصفين بالإحسان، متسلسين بالحق في حقيقة الحق، لا كما نراه نحن بعين الأهواء والأغراض، وحقيقة بنا أن نضمّد من جراحات هذه الأمة، ونخفّف من آلام من حارب من أجلها، مع توجيه عنايتنا إلى من تركوا من خلّف صالح، وتوحيد جهودنا في تعزيز دعائم السلام العام.

وكلمته الثانية:

لقد نزل آباءنا إلى أرض هذه القارة من سبعة وثمانين ربيعاً ليكونوا أمة جديدة، رائدتها الحرية، وشعارها المساواة، ولم يكن دخولنا في دائرة هذه الحرب الأهلية إلا لتعلم إلى أي حد تصل قوانا في احتمال الشدائـد، ويحمل بنا ونحن في هذا الميدان أن نكرم تربته، وأن نخصص جزءاً من دائرة ليكون

المثوى الأخير لهؤلاء الذين ضحوا بحياتهم في سبيل حياة هذه البلاد، أولئك الشجعان الذين نسير نحو سنتهم في كل ما من شأنه تقدیس هذا الميدان، وإن كانت خطواتنا تقصر في ذلك عن خطواتهم، وجهادنا لا يصل إلى منتهى ما وصل إليه جهادهم! قد لا يذكر التاريخ لنا هذه الأقوال، ولكن صفحاته لا بد وأن تتحلى بما كان لهؤلاء البواسل من عظيم الأفعال! وحقيقة بنا أن نكرس أنفسنا لتمكين البناء العظيم الذي وضعوا أساسه، ولتكن غايتنا الوحيدة السير إلى الأمام، ويجب أن نستمد من تلكم الصحايا التي وصلت إلى مقام الشرف إخلاصنا لقضيتنا المقدسة بقدر إخلاصهم لها وتفانيهم في إحيائها، وأن نعمل بأأن حياتهم إنما كانت كلها خيراً وببركة، ولنعلم أن هذه الأمة التي ترعاها عنابة الله ستتمتع بحرية تامة، وأن حكومة الشعب إنما تستمد من الشعب، وتعمل لخير الشعب، وما دامت كذلك فإنها لن تبدي أبداً.

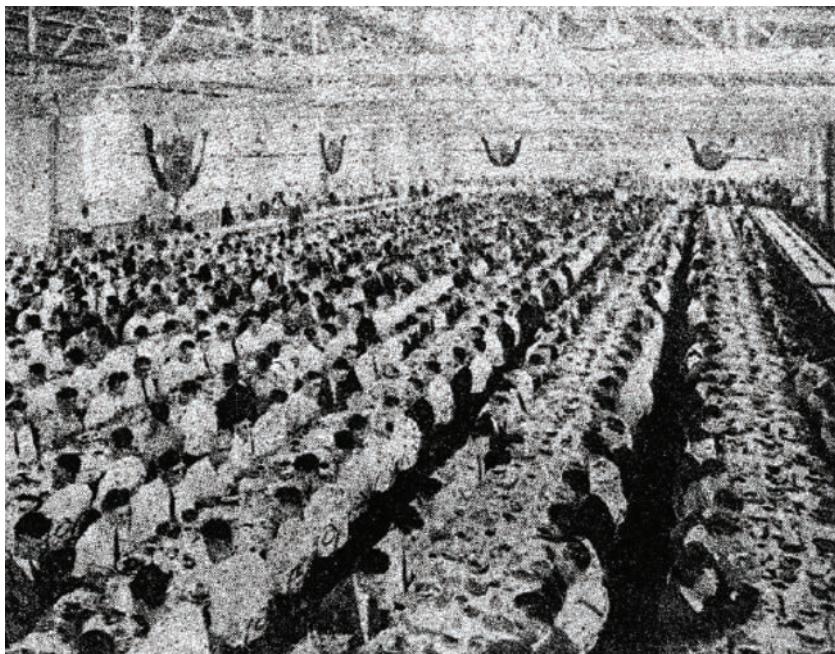
ولنكون لهذا هو إبراهيم لنكولن الذي انتُخب رئيساً للولايات المتحدة سنة ١٨٥٩م، وفي سنة ١٨٦٠م أعلَنَ الحرب على ولايات الجنوب من أجل محو الرقيق، واستمرت هذه الحرب بين ولايات الشمال وولايات الجنوب خمس سنين انتهت بانتصار الشماليين، ومن وقتها انمحى الرقيق في الجمهورية المتحدة! وقد قال كلمتيه اللتين ذكرناهما لك في الميدان الذي انتصر فيه على أخصامه حتى يجمع بين عناصر الأمة من جديد! إلا أن رجلاً من الدعاة إلى استمرار الرقيق قتله غيلة في سنة ١٨٦٥م فقضى مأسوفاً عليه من الجميع! وبمناسبة هذه الحرب التي كانت من أجل العبيد أرى أن أذكر لك هنا كلمة عن العبيد الذين يكُونون الآن عشر سكان الولايات المتحدة!

(١٧) العبيد

نشط الجنس الأبيض أو الأوروبي إلى أمريكا، وجاءَ جهاده مع الحمر، وهم الهنود سكان البلاد الأصليين، جهاداً قضى به قانون الحياة، وكان الأوروبيون في هذه البلاد الجديدة في حاجة إلى من يعمل في تلك الأرض الواسعة التي منَ الله عليهم بها، فنشطوا إلى مشترى العبيد من أفريقيا، وكانوا يستوردون منهم العدد الجم وخصوصاً في الجهة الجنوبية من الولايات المتحدة، ولما زاد عددهم إلى الحد الذي يُخشى منه أخذت رءوس البلاد المفكرة في ولايات الشمال تدرس النتيجة التي قد تؤول إليها كثرة هذا النوع من الناس، وهو

الرحلة إلى أمريكا

متأثر بنذير العبودية، ذلك النير الذي قد تثور به حميته يوماً من الأيام فينفضه عن عاتقه، وربما انضم إليه في هذه الحالة من بقي في شمال البلاد من الحر، فيكونون جميعاً يبدأ واحدة على اللون الأبيض، وكان محل البرمان الآن في واشنطن سوقاً للعبيد، يبيعونهم ويشترونهم فيه؛ لذلك طلبت ولايات الشمال، وكان رئيسها لنكولن، من ولايات الجنوب مَحْو الرقيق وتحرير من في دائرة بلادهم من العبيد، فرفضوا طلبهم وأُعلنَت الحرب فيما بينهم، وانتهت بانتصار الشماليين، ومن ثمَّ أُعلنَ تحرير العبيد في الولايات المتحدة، وهم الذين يعبرون عنهم الآن بالسود.



قاعة لغداء العمال بإحدى معامل الولايات المتحدة.

إلا أن الحاجز كانت ولا تزال بين اللونين في مرافقهم الحيوية! حواجز لا تزال مع كثرة ما في أقوالهم من ذِكر كلمات الحرية والمساواة ملموسة محسوسة، خصوصاً

في ولايات الجنوب التي لا تزال تعتبر اللون الأسود أقل الدرجات الإنسانية، وله فيها تشريع خاصٌ، سواء في الزواج الذي يُحرّم اتصال اللونين بعضهما بالآخر، أو بعدم تسامي الأسود إلى حيث يكون الأبيض مهما كان الأول عظيماً في نفسه، كبيراً في علمه وأدبها! بل وصل بهم هذا التشريع إلى تقرير عدم المساواة بين الدماءين في الجنائيات، وحرمانهم من حق الانتخاب، ومن التوظيف في وظائف الحكومة! وقد يبلغ عدد السود اثنى عشر مليون نفس في الولايات المتحدة، وسوار هذا العدد في ولايات الجنوب التي كثيراً ما يبلغ عدد السود فيها نصف عدد البيض، وخصوصاً في ولايات ماريلاند، وفرجينيا، وكارولينا، وجورجيا، وألاباما، وفلوريدا، ومسيسيبي، ولويزيانا، وتكساس، وأركانساس، وأوكلاهوما، ومسوري، وكانوكى، وبتسى، فهذه الولايات يتکافأ فيها عدد السود مع عدد البيض، أما غيرها من الولايات فالسود فيها أقل من البيض.

وإذا كلمت البيض في ذلك قالوا: إن السود جَرَدُتُم العبودية من الشرف الإنساني، ولا بد من وضعهم حيث وضعتم الله في أحط درجة في سلم الحياة! وكأنهم يمشون هنا على رأي العربي الجلف في القرون الوسطى: «لا تُعطِ العبد الكراع فيطمع في الذراع».

ولكن العربي كان يتحدث عن عبده بمعناه الصحيح. فهل هؤلاء السود لا يزالون عبيداً، حتى بعد أن منحُتهم حرب سنة ١٨٦٠ م حريةهم كاملة؟ وقد يقول لك الأميركياني الأبيض إذا حدثته في ذلك: يجب حصر السود في دائرة هي الضعف بعينه من غير نظر إلى شيء اسمه عواطف، أو رحمة، أو شفقة، أو آداب، أو عدالة، وكأنّي بهم قد نَظَرُوا في صحيفة مصر في القرن الخامس الهجري، ورأوا العبيد الذين استكثرت منهم أم المستنصر الفاطمي، حتى إذا قوي ريشهم ثاروا ثورتهم التي كان من ورائها خراب القاهرة.

وبالجملة فالفارق موجودة هنا محسوسة بين اللونين: ففي سكة الحديد لهم عربات خاصة بهم، ولا يركبون الترام إلا في نهاية عرباته، إنْ وُجدَتْ لهم محلات بها، وقد حُرموا قانوناً من حق مشترى العقار في كثير من الولايات — وفي بعضها استبداداً — وحتى في التيارات لا تعطى لهم الأمكنة الأولى لأنها بطبعتها مخصصة للبيض، وحتى الكنائس لا يجتمعون فيها مع البيض، بل لهم بيع خاصة بهم، ولا يُنادي الأسود بلفظ «السيد» مهما بلغ من علمه وفضله، وإذا وُجدَ خادمان، أحدهما أبيض والثاني أسود في بيت واحد، فالأسود لا يَدْخُلُ إلا من باب الخدم، أما الأبيض فيدخل وسيده من باب واحد، وحتى أمام منصة القضاء (العدالة) إذا تقدم لها أبيض وأسود سِمعَ كلام الأول، وضرَبَ بكلام الثاني عرض الحائط؛ لأنَّه لا بد محروم من شاهِدٍ يعزّزُ كلامه.

ولهم مدارس خاصة بهم ميزانيتها لا تزيد عن عشرة في المائة من ميزانية مدارس البيض، وترى البلديات تُعامل أحياءهم معاملة خاصة، ولا يعيرونها إلا جانبًا بسيطًا من عنايتهم، بدعوى أن الميزانية ليس فيها ما يسمح بالعناية بها «وهم مشتتون معنا في ذلك، فإن التنظيم بمصر لا يوجه كل عنايته إلا إلى أحياء هؤلاء البيض الإفرنج! مُهملًا الأحياء الوطنية، أو بعبارة أخرى أحياء السمر بدعوى عدم محل لها بالميزانية!» وبالجملة إذا قامت بأمريكا أية شبهة على عفاف امرأة بيضاء (ولو بإرادتها) ضد أي أسود فلا يغسلها غير دمه، حتى إن كان بريئاً!

لا يسلِّمُ الشرف الرفيع من الأذى حتى يُراقَ على جوانبه الدُّم

أما إذا كان المجتمع الأسود بالبيضاء بسبب العروبة الزوجية، فما أسرع من وصول الإنذارات من جمعية ك. ك. ك. السُّرُّية إلى الأسود بالتفريق أو الموت!

والسود كانوا إلى وقت إعلان الحرب الأوروبية يشتغلون غالباً في الزراعة، ولكن لما حصل التجنيد في الأميركيين، كانت مصانع الشمال تقف عن العمل مع اشتغالها بأدوات الحرب، فانتقل إليها نحو مليون من سود الجنوب، وأخذوا من هذا الوقت يشتغلون في المصانع؛ لأن أجراًتها أكثر من الأجرا في المزارع، ومنهم الآن في نيويورك وحدها ما بين ٢٠٠ ألف إلى نصف مليون نفس، وفي شيكاغو نحو ١٥٠ ألف نفس!

للأسود في ولايات الشمال حق الانتخاب والدخول في الكنائس والمدارس بحكم القانون، وأصبح منهم الأطباء، والعلماء، والكتاب، بل أصبح منهم غير واحد من يُعدون من أصحاب الملايين بنفيويورك! ولكن على كل حال لا تزال الفروق بين اللونين محسوسة، خصوصاً في مسألة الزواج؛ فإنه مع كونه مباحاً للأسود في الشمال، فإن الزوجة لا تكون متمتعة باحترام قومها whom كانت متزوجها الأسود من الثروة والعلم.

وقد وصل بعض السود في مدة الرئيس روزفلت إلى بعض مراكز الحكومة العالية، وبعضهم تَعَيَّن نائباً عمومياً في مقاطعة دلاور، وبعضهم في وظائف مالية كبيرة في مقاطعة شارلستون.

والفضل في نهضة السود لرجل منهم، هو الزعيم بوكر واشنطن، وهو من خيرة رجال أمريكا فضلاً وأدبياً وعلمياً، نشأ عبداً في عائلة بفرجينيا، ثم تحرر بعد الحرب الداخلية وهو صغير، وكان لا يزال في خدمة صاحب المزرعة التي ولد فيها، وكان يذهب مع بنت سيده كل صباح إلى المدرسة يحمل لها كتبها، وكانت عيناه تغورقان بالدموع

لرغبتة القوية في التعليم، وأبوابه مغلقة في وجهه، ولكن رغبَتُه لم تَقفْ به عند حد! فقد كسر بها جميع الموانع حتى وصل إلى المدرسة التي فتحها الجنرال أرمستانج للعبيد في مدينة ريشموند، وما زال يرقى فيها من بواب إلى فراش إلى سفرجي، يعمل نهاره في وظيفته، ويجد ليله في دروسه حتى أتى يوم تعين فيه بعد أن أتم دراسته بوظيفة مدرس بنفس المدرسة!

وكان لا يقتصر على التعليم بالمدرسة، بل كان في أوقات فراغه يذهب إلى البلاد المجاورة، ويعقد المجامع للخطابة فيهم، وإرشادهم إلى أبواب الفضيلة، وكانت خطبه في أول الأمر دينية، لا تتجاوز حدود الإرشاد، حتى وصل إلى درجة هي من أرقى درجات الخطابة، من سلامة عبارة، وفصاحة قول، وبلاعنة تأثير، فاشتهر أمّه، وانتشر ذُكره، ودعاه الجنرال أرمستانج إلى عمل جامعة للعبيد في مدينة توسكاجي، فنشط إلى هذه المأمورية، ولم يَمْلِكْ من المصارييف التي تلزم لها كثيراً ولا قليلاً، وما زال بهمته ودعوته ومتانة خطابته، حتى وصل إلى ما يرجو، فشيدَ جامعته من التبرعات التي وصلته من رجال المال، وهذا هي الآن من أكبر الجامعات، يتعلم فيها أربعة آلاف نفس من السود من الجنسين! ولكل جنس مدارس خاصة به، فقسم الذكور به ٢٥٠٠ تلميذ، وفيه قسم لعمل الطوب، وقسم للسمكريّة، وقسم لالجزموجية، وقسم للسروجية، وقسم للكوالنجية، وقسم للحدادة وأعمال الزهر، وقسم للنحارة الدقيقة، وقسم لعملية الألبان، وقسم للمطبعة، وقسم للحفر والنقش، وقسم للرسم، وقسم لخياطة، وقسم للأشغال الكهربائية، وقسم للطبيخ، وقسم للغسيل ... وغير ذلك، أما التلميذات فيتعلمن الخياطة والغسل والكي والطبخ.

وفي هذه الجامعات تخرجَ كثيرون من تفَتَّحتُ أمامهم أبواب الرزق، وهذا هم الآن في يد مئات الآلاف منهم أَزْمَة البيوت والمطاعم وحركة المصانع، وقد انفتحت للسود أبواب معاهد أخرى كثيرة يقرءون فيها كثيراً من العلوم، أهمها: جامعة هوارد بواشنطن، وبلغ عدد طلبتها من الجنسين ألفان وخمسمائة طالب، وكثير منهم يصل إلى درجة أستاذ في العلوم، وبهذه الجامعة مدرسة للطب، ومدرسة للقانون، ومدرسة للتجارة، وأخرى للفنون الجميلة والموسيقى، ولهم بواشنطن مستشفى جميع أطبائه وممرضيه من السود الذين تعلَّموا في جامعة هوارد، وتبلغ مصاريف هذا المستشفى سنويًا نحو ٢٥٠ ألف دولار، وبالجملة فالسود اليوم غيرهم بالأمس؛ فمنهم المتعلمون، ومنهم كثير من أحْرَزَ لقب دكتور في الطب أو الحقوق، وقد كان فرَّاش عربتنا في سكة الحديد وقت

دورتنا بالولايات أَسْوَدَ، وكان يقول الشعر، وهم إن لم يكونوا ممتعين بمحبة البيض لهم، فقد أصبحوا في أمن من مظاهر حقدتهم ونقمتهم، ولكن هل من المصلحة العامة أن تستمر هذه الفوارق؟ كلا؛ فإن معاملة عُشُر الأمة بغير قوانينها – وخصوصاً في الجنوب – ربما يؤدي يوماً إلى ما لا تُحِمَّد عقباه، فقد تثور ثائرة السود دفاعاً عن كيانهم حتى يحققوا بيد القوة والحق تلك الحرية الزائفة التي مُنْحُوها سنة ١٨٦٥ م.

(١٨) المتحف الجيولوجي

هو خليط من معروضات مختلفة، وفيه كثير من الأحجار والمعادن المتغيرة، من ذهب وفضة ونحاس، وغير ذلك على حالتها الطبيعية، وبجانبها هيكل كثيرة من تلك الحيوانات البائدة التي وجَدوها بين طبقات الصخور، وفيها هيكل لم تَرَدْ على نظري في متحاف أخرى من العالم القديم، فقد رأيت بها هيكل حيوان بحري طوله نحو عشرين متراً! وبجواره رأس حيوان هائل عَدَدُتْ في فَكَّه العلوي خمسين سنًا، وفي السفلي ثلاثين سنًا! ومتوسط طولها نحو ١٥ سنتيمتراً، يتخاللها أنبياب قليلة متقابلة في وسط الفكين.

ترَكَتْ هذه الغرفة إلى غيرها بسرعة؛ لأنني بعيد عن العلم بشيء منها، ودخلت غرفةً فيها تماثيل الهندو «الحمر» سكان الولايات المتحدة، وهم في حياتهم المنزلية، هذه تغزل، وأخرى تنسج، وغيرها تطبخ، ورابعة تطحن الذرة بتمريير أسطوانة من الخشب على الحَبِّ الذي من تحته قاعدة حجرية مائة، فينزل المهروس إلى أسفل الحجر، فلا تزال ترفعه بيدها حتى يتحول إلى دقيق، وبجوارها امرأة أخرى فتأخذه وتسويه على طبق من حديد موضوع على النار، وهي حياة أشبه شيء بحياة السودانيين ببلادنا «على رأي الدكتور محجوب».

ثم دَخَلْنَا إلى قاعة رابعة وخامسة وسادسة، وفيها آثار بلاد مختلفة مع صور أهلها ممثلاً، فمن صينيين، وهنود، ويبانيين، وأعجماء، وملاريين ... وغيرهم، وبجوارهم ما تتعرف منه عقائدهم وأحوالهم الدينية والاجتماعية.

وقد ترَكَتْ ذلك إلى قاعة فيها الحيوانات الأهلية مصبرة على حالتها الطبيعية، وهي منفردة حيناً، ومجتمعة في دائرة حياتها العائلية أحياناً، فمن غزلان وتيلات إذا رأيتها في الوسط التي هي فيه بالتحف عرفتْ كيف هي تعيش في صحرائها، ومنها سباع قد تراها في اجتماعها العائلي في صعيد واحد، هذا يأكل من بقايا فريسته له، وذلك يشرب، وأشبال تلعب، وقد ترى غابة من البردي وقد برَزَتْ منها رأس حيوان هائل إذا تحققْتَ رأيَته ما

يسمونه عندنا بذى القرن الوحيد (الخرتيت)، وهو هنا له قرنان يتلو أحدهما الآخر، أو ثلاثة قرون نتأت في زوايا مثلث من جبهته.

وأحسن شيء أعجبني تلكم الأمهات ومعهن أولادهن، وهن يُلقين عليهن دروساً في علم الحيوان، دروساً عميقة في حياة الحيوان، وفي شكله ومقره، والفائدة التي حصل العلم عليها منه، وما يدخل منه في الصناعات المختلفة؟! وهنا خطر بيالي السواد الأعظم من نسائنا وهن لا يدخلن المتحف إلا للحَبَّ! ولتمثيل فصل من فصول الخبر! وبجوار هذا وذاك قاعات خاصة بالطيوير المختلفة الأشكال والألوان، وكأنني بك إذا أبصرتها وهي على أغصانها، يذهب بك جمال شكلها في نظرك بما تتأثر له أذنك، حتى لكانك تسمع تغريدتها وتشنف أذنك بشجي الحانها.



متحف التاريخ الطبيعي في شيكاجو.

أما أبغال البحر، وهي الحيوانات التي تعيش في الماء وعلى ظهر الأرض، فهي كثيرة جدًا بحيث لم أتمكن من التعرف منها إلا على جملة سحالف مختلفة الأشكال والأحجام، وقد رأيت طائفة من الدب الأبيض صادت بعض هذه الحيوانات ودارت حَوْل فريستها تت shamها ولا تقترب منها، ولا أدرى إذا كان هذا الدب في منطقته الثلوجية كمثله في منطقته

المعتدلة؟ على مذهب المعري أيضًا «من النباتيين»، وانتهي بنا المطاف إلى قاعة فيها صور صغيرة من المراكب الحربية، وعليها مدافعها ولاتها الجهنمية التي خُلقت لعذاب الإنسان في هذه الدنيا بيد أخيه الإنسان، فتركتها راجيًّا من الله أن يُحَقِّق ما يَدْعُونه من هذه الأكاذيب التي تدور حول تقليل التسلیح في ممالك الحرب! وهي كلمات إن خدرت أعصاب الشعوب التي أهْلَكَتْها الحرب فإنما هي تهيج أعضاء ورؤساء الأمم الذين لا يرتوون من الدماء.

(١٩) الشعب الأمريكي

نشطت هجرة الأوروبيين إلى الولايات المتحدة في فجر «القرن السابع عشر»، فكانت كل طائفة منهم إذا احتلت جهَّةً أخذت في تعميرها، ووضعت لها أعلامًا تربطهم ببلادهم، وتذكَّرهم بأوطانهم، وقد يُضيقُون عليها لفظة نيو (جديد)، فالإنجليز وضعوا للجهات التي شيدوها أسماء منها: نيويورك، وبيرمنجهام، وهافر ولندن، ومالطة، والطلبيان وضعوا للبلاد التي أقاموها أسماء طليانية منها: رومية، وفلورنس، ونابلي، وغيرها، والفرنساويون وضعوا لبلادهم أسماء فرنساوية منها: ليون، وفرساي، وباريس، والألمان سَمَّوا بلادهم بأسماء مدن ألمانية منها: نيورنبروك، وفرنكفور، وهامبرج، وفيينا، وأطلق الأوروبيون هنا أسماء أفرننكية أو شرقية على مدن أمريكا مثل: قرطاجة، وأثينا، والجزائر، وفلسطين، والقاهرة، وإسكندرية، ومصر الجديدة، ومنفيس، وهذه الأخيرة من أكبر مدنهم، فأخذتني الغرابة من القوم الذين أحبوا مدينة نحن أَمْتَناها، وذكروها بين الأحياء، في حين ذكرنا لها بين الأموات!

ومن هنا نعرف أن الشعب الأمريكي خليط من أبناء دول مختلفة، وهم يختلفون في طباعهم وعواوينهم وصفاتهم: فالإنجليزي بعظمته، والألماني بكبريائه، والفرنساوي بوداعته، والروسي بغضره، والإسباني بخفته، والسويدي بتؤدته، والطلبياني بدعوته، والميوناني باحتماله، والصيني بمكره، والياباني بخطره، كل هذه الصفات اجتمعت في الأمريكي بعد أن طُبِّخت كلها في إماء واحد، وعلى الخصوص في سكان الولايات المتحدة.

وقد ترى صفات الجنسية قائمة بذات الشخص إذا كان لا يزال دمه الأصلي في عروقه، وكانت نسبة إلى الأمريكية لم يُعْتَرَها شيء من القدم، أَصْفَ إلى ذلك كله فضل الاتحاد، وقوة الثروة، ومَجْد تكوين أعظم دولة في العالم، ثروة وزراعة، وعلمًا وعملًا، واحتراعًا وإبداعًا، في مدة يسيرة هي عمر فرد واحد من الناس!

نعم قام مَجْد هذه الدولة من قرن ونصف على الاتحاد، ووصلتْ عظمتها إلى عنان السماء، بفضل صادقِ الجهاد، وكانت قبل ذلك أشتاتاً في مجاهل الصحراء، تُقذفُهم مفارة إلى أخرى، ويُلْفظُهم تيهُ إلى آخر، وتلتقيُّهم يد بعد يد، حتى هداهم نشاطهم ومثابرتهم في طريق الحياة إلى فُوتُّهم، دَفَعُوا بها المسيطرِين عليهم في تلك الحرب التي يسمونها حرب الاستقلال، الذي نالوه بجهادهم في ٤ يوليو من سنة ١٧٧٦م، ذلك اليوم الذي أصبح عندهم يوم تقديس وتمجيد، ذلك اليوم الذي هو عندهم يوم الدين والدنيا جميعاً، ذلك اليوم الذي كان له ما بعده من هذه المملكة الهاشمية، وتلك الثروة الطائلة، ذلك اليوم الذي كان له ما بعده من مَجْد عظيم، وخير جسيم، أَحْيَتْ كُلُّ قطرة من دمائهم فيه قُطْرًا، وتَكَوَّنَتْ من مادة كُلُّ ضحية في سبيل استقلالهم أمّة، بيدها اليوم الترموتر الحساس لسعادة العالم! رَفَعْتُه إن شاعت، أو حَفَضْتُه إن أرادت! قوم صدقوا الحملة فنالوا صداقها، وأحكموا الجملة فكان لها معنىًّا بين طرفيه ما أرادوه من حرية وحياة، ومجد وثراء، قوم لم يجعلوا الكلام سلاحهم، والقطيعة وحدتهم، بل كانوا كلهم يدًا واحدة على عدوهم، فنالوا بفضلِ الجهاد وفضيلةِ الاتحاد — الغلبة التي بنوا بها صرح فخارهم — وحصلُّ وجودهم، اشتغلوا بها تحت الأرض، فوجدوا بين طبقاتها ما نسمعه في كتب الأقصيّص من كنوز الذهب والفضة والجوهر المختلطة، فكانت منها مطيتهم إلى جلائل الآمال، ثم وجدوا الحديد والنحاس، والقصدير، والفحمر والبترول، فأقاموا بها ومنها جسيم المصانع التي أصبحتْ أَعْجوبة الزمان، ودهشة بني الإنسان، وقد خرجوا من باطن الأرض إلى ظهرها، فاشتغلوا بالزراعة التي هي حياة جميع الناس من جميع الأجناس، ومع أن أسواق العالم مكتظة بها فإنهم على الأقل قد أَمْنوا مَدِيدَهم إلى غيرهم من هذه الجهة، حتى لو تَكَاثَرَ نَسَلُهم وتضاعَفَ عَدُودُهم، وكيف وهو الآن أسبق الأمم في الزراعة أيضًا، ثم اشتغلوا بعد ذلك بجوها، فكانوا هم السابعون فيه، ولا يزال تمجيد العالم لطائرِيه يملأ المسكونة من شرقِيه إلى غربِيه.

وقد وَهَبَ الله هذا الشعب، وهو في بدء أمره، رؤساء كان هُمْهم إسعاده وإرشاده إلى كل ما فيه خيره، نَسُوا أنفسهم في تكوينه، وتحطوا جميع الموانع والمخاطر في استقلاله وحربيته، وإذا عرفت أن واشنطنون بعد أن انتصر على الإنجليز في حرب الاستقلال وأجلهم عن أرض الولايات المتحدة، عُرِضَ عليه تاجها فأبى ذلك بكل كبراء! وأنه لما انتُخب رئيساً لجمهوريته تَرَكَ منصة الحكم لغيره بعد اكتمال مُدَّته، ثم لجأ إلى مزرعته يعمل فيها كأحد أفراد الناس حتى وفاته أجله — عَرَفَتْ أن لرؤساء البلاد وزعمائهما كُلُّ الفضل في

تكوينها وسعادتها! وهل تنسى أن محمد علي هو صاحب الفضل فيما ترفل فيه مصر من حُلُل الرفاهة والثروة؟

والشعب الأمريكي من الأمم الحية التي كلها شبيبة، لا تعرف الكهولة، ولا الشيخوخة، لا من الجهة التي يقول عنها الفرنساويون: «إن القلب لا يشيخ لأنَّه يجب أن يكون على الدوام في فرح ونشاط الشباب»، ولكن لأنَّ هؤلاء لا يعرفون غير العمل، وهو وحده حياتهم، شباناً كانوا أو شيباً! نعم إنَّهم لا يعرفون الشيخوخة ولا يفهمون لها معنى؛ لذلك تراهم أصحاب أقواء نشطاء لا تقوس في جسمهم، ولا لغطة ولا فلتة، ولا ينقم عليهم في الوسط الذي يعيشون فيه غير الميكروبات وما يتصل بها من بني الإنسان! والشيخوخة عندهم مرض يجب محاربته، ولا يمكن أن يكون المحارب مُتَصَّفاً بغير صفات الشجاعة والنشاط واليقظة وعدم الاستنامة إلى حداثات الأيام، بهذه الصفات يحاربون الشيخوخة «وهم بها في غير حاجة إلى نصائح فورونوف»، وبهذه الصفات تراهم شباناً وهم في لباس الشيخوخة، وإذا كان شيخنا يقول:

إن الثمانين وبألفتها قد أحوجت سمعي إلى ترجمان

فهؤلاء يبلغون الثمانين وما فوق الثمانين، وهم حافظون لجميع قواهم، حتى لَتَرَى الابن والأب والجد في عملهم ولَهُوَمِّ، وجَدُّهم وهزَلُّهم، وراحتهم ونِزَهَتْهُم كأنَّهم في حدود سنٍ واحد، كله حياة في حياة.

والشعب الأمريكي مشهور بثراته وسراته، ولكن ليس معنى الثروة بأمريكا أن كل الناس أغنياء، بل أفراد منهم — ولا أقول قليلون — وصلوا إليها من زمن بعيد؛ فالآباء قد وصل إلى بعض الثروة عن أبيه عن جده، وقد ترَكَها ماضِعَةً إلى ابنه الذي زاد فيها بدوره حتى أصبحت لها قيمتها في دائرة الملايين، أو ملايين الملايين، وقائمها كلها على العمل، قائمها كلها على الجهاد في طريق الحياة. أما عندنا، فالوارثون هم المضيّعون في الغالب! حتى أصبح لفظ وارث إذا أطلقَ عندنا فإنه لا ينصرف إلا إلى هذا الذي لا يَعْرِف للمال قيمة؛ لأنه لم يتعجب في تحصيله، وعلة هذا كله التربية غير الصحيحة، تلك التربية التي ترانا محروميين منها في مدرستنا الأولى المنزلية، ثم في مدارسنا الابتدائية التي ليس للتربية في بروgramها نصيب، وإن وُجِدَ شيءٌ من ذلك فهو تافهٌ لا قيمة له.

والعصاميون الذين وصلوا هنا إلى ثروة بعيدة الأطراف بعملهم وجهادهم كثيرون جدًا، عصاميون وصلوا إليها بالعمل من طريق العمل، ومن وسط العمال؛ إذن فالثروة

هنا ليست في معادن الذهب، كما نعتقد مما نراه عندنا أحياناً على صفحات السينما، ولن يست في طوع كلّ من يريد أن يكون سرياً كما يخطر على بال أغلب المهاجرين إلى هنا، بل هي حياة في جد، في عمل، في جهاد، في نشاط، وفكرة الذهب قد أماتها الله من زمن بعيد، وأصبح أمر الذهب وقد انتهى من على سطح الأرض في كاليفورنيا، واختفى في باطنها، يستلزم في إخراجه عناية كبيرة، ونفقات كثيرة، لا تقوم بها غير الشركات الغنية، إذن فالثروة هنا هي الآن، كما هي في كل مكان، نتيجة عمل العاملين.

والشعب الأمريكي مشهور بكرمه، ولكن لا على الأفراد، بل على الجماعات، وكثير من سراته يساعدون الإنسانية، ولكنهم لا ينظرون إليها من جهة ضعفها، بل من جهة عظمتها وفخامتها؛ لذلك تقاد لا ترى في أمريكا شيئاً من جيوش هؤلاء المسؤولين في جهات كبيرة، وخصوصاً في مصر!

لقد كان الشعب الأمريكي إلى زمن غير بعيد يضم إلى عقائده الدينية مذهبًا سياسياً، هو مذهب مونرو، الذي كان رئيساً للولايات المتحدة من سنة 1816 م إلى سنة 1825 م، وهو خامس رئيس لها، اشتهر أمره في حرب الاستقلال بهمة في خدمة بلاده ضد أعدائها، كما كانت له شهرة عظيمة في سياسته وكياسته، وهو مشهور بمذهبة السياسي الذي أعلنه في الجمعية العمومية الوطنية في 2 ديسمبر سنة 1823 م وهو: «أمريكا للأمريكيين»، ومعنى ذلك: أنه لا يمكن لأية دولة أخرى مهما كانت صفتها، أن تتعدى على حرية أية جهة من جهاتها، كما لا يصح للأمريكان أن يتعدوا حدود بلادهم، حتى لا يشغلوا أنفسهم بحرب تحولهم عن وجهتهم، أي عن تكوينهم المالي والصناعي والتجاري والزراعي، وبقيت هذه القاعدة دستوراً محترماً يُعمل به في المالك الأمريكية، وبه طردوا إسبانيا من كوبا سنة 1897 م، ومن ثم أصبحت أمريكا كلها خالية من الاستعمار الأجنبي، اللهم إلا ما كان من دخول كندا في الاتحاد الإنجليزي.

ولقد كان انتصارهم على إسبانيا مهيناً لعاطفهم الحربي، حتى إذا رأوا لهم مدخلًا في الحرب الأوروبية، رموا بأنفسهم في وسطها، وخرجوا منها بجميع المكاسب الأدبية والمادية، وهم الآن — مع رفع عقيرتهم بحبهم لتقليل السلاح حتى يعيش العالم في هدوء وسكينة — تراهم يزيدون في أساطيلهم، ويهيجون عواطف الناس بكثير من مناظر الحرب في جرائدهم، وخصوصاً في دور السينما! وفي نيويورك أحد هذه السينماوات لا يشخص فيه غير المناظر الحربية على الدوام! بحيث يخرج الشاب من تحت سماء هذا المكان وقد تَشَمُّ رائحة البارود من فيه! وتسمع صوت القنابل من بين فكيه! فما معنى ذلك؟ أكلُ الجواب إلى مستقبل قد يكون قريباً.

(٢٠) الرجل الأمريكي

والرجل الأمريكي عامل غريب في جميع أطواره عن رجل العالم القديم، فهو عالم وحده في طبيعته وعقليته وأنظمته، عالم راقٍ في صفاته، متين في أخلاقه، وللزمن عنده القيمة الكبرى، وهو لا يعرف للحياة معنى غير العمل والكسب، ولا يعرف للعمل صفة غير النظام والدقة والإجادة التي أصبحت طبيعة فيه، لا يتكلف شيئاً ما في سبيل القيام بها، ولا تقف همة من عمله عند شيء يسمونه عندنا القناعة؛ لأن كل عمل في عقيدته سلم لغيره من عمل هو أكبر وأظهر، ولا دافع له ولا منشط في هذا السبيل غير نفسه، التي تقوده على الدوام إلى آمال بعيدة، تصل به أو يصل بها إلى حياة مجيدة، ومن صفتة العناية بجميع الأعمال صغيرها وكبیرها، بحيث لا تنقص عنایة الرجل بالشيء الذي قيمته قرش واحد، عن الشيء الذي قيمته ألف قرش! وهو يعني بالقيام بمواعيده في نفس الدقيقة التي حددها، ويحافظ على زمانه إلى الدرجة التي لا يقطع عليه طريقه في عمل آخر، وإذا تكلّم في التليفون فإنما يكون ذلك بسرعة هائلة لا يفقد معها ثانية واحدة ليست ضرورية في العمل، ومن مُحافظته على الزمن الإجابة على المحررات في وقتها، وإذا توقفت سيارة بإنسانٍ في طريق عملٍ تركها إلى غيرها، ومن محافظته على الوقت أنه يرى التجديد خيراً من الترقيع، وجراً ذلك إلى أن السيدة التي ترى ثقباً في جوربها فلتقي به لتأخذ غيره جديداً؛ لأن ثمن الجديد عندها أقل من قيمة الزمن الذي تخسره في الترقيع! ومن قيمة الزمن عندهم أن يجعلوا لكل شيء حداً، فإذا أردت أن تقدمه عن موعده كان لذلك أجره.

والرجل الأمريكي رجل جد وعمل وكفاح في سبيل نجاحه في أيّ أمر من ضروب الحياة، وهو في حرب مستديم إلى حاجته، حتى إذا ظفر بها تَعَذّها إلى غيرها بِنِيَّةً فتية، وإرادة قوية، وعزيمة من حديد، فهو قوي النفس، قوي الجسم، قوي القلب، وليس للعاطفة من سبيل إلى قلبه، وهو في طريق عمله لا يُشفق على نفسه، ولا يرْحَم غيره، وإذا وجد عنده شيء من العاطفة فهو في أَكْسَ درجاتها، وهو في ذلك يخالف الرجل الاطيبي الذي للعاطفة عليه تأثير كبير، وبخاصة الرجل الشرقي، والفرق بين هذين الرجلين في تأثير العاطفة، أنها لا سلطان لها على الأول إلا إذا فَرَغَ من عمله، ولها كل التأثير على الثاني حتى وهو بين براثنين الخطر، قال عنترة:

ولقد ذكرتك والرماح نواهل مني وببض الهند تقطر من دمي

وقال الآخر:

ولقد ذكرتكم و«الحمار مُعاني» وسط الشريط وقد أتى الوابور

وفي الجملة؛ فالأمريكي نهض إلى العالم الجديد في أوائل القرن السابع عشر، من العالم القديم بخلاصة مدنيات كثيرة، ووجد أمامه تربة صالحة لبذور حديثة، فأنتجت خير البذور وجَّمَ الغلات، وجدَ أمامه أرضاً بكرًا لم تَمْسَسْها يدٌ إِنْسٌ قَبْلَهُ ولا جان من يوم خلقها الله، فقد احتفظت الطبيعة بكنزها وبما في جوف أرضها، من معادن مختلفة، وجواهر متغيرة، كما احتفظت بما على سطحها من التربة الغنية بعناصر الإنتاج الزراعي، هذه تربة أصَبَّتْ تُمْدِيَها بِكَرَمِ حاتمي إلى كل ما يُلْقَى فيها من بذور النباتات المختلفة في مناطقها الطبيعية، من ثُلْجِية، ومعتدلة، وحارقة، فتنمو فيها جميعها نمواً مدهشاً، لا يُشْبِهُه إلا ذلك الولد الذي أتى من أبوين شابَّين قويين، قد أحاطاه بكل نوعٍ من أنواع التغذية السليمة، والعناء التامة.

ترك الأمريكي وجْه الأرض وتغلغل في باطنها، بعد أن مَهَّدَها لحياته، فعثر على ما فيها من كنوزها الجمة، فما هو إلا أن بدأ في استخراجها حتى أضافت عليه من خيراتها التي لا حد لها، فامتلأت خزائنه من ذهبها، فاستعمله في طريق الإنتاج الصناعي، فأقام المصنع، وشَيَّدَ المعامل، بفضل هذه المواد الأولية التي يكتظ بها باطن أرضه، من ذهب وفضة وحديد ونحاس وقصدير ورصاص وفحم وبنزول، وأصبحت هذه المانع تُنْتَج كل دقيقة الملايين من هذه الآلات التي تَغلَّبُ بها على مصاعب الطبيعة، ووصل بها إلى ما فيها من خير وبركة.

ولم يكن الفضل لثروة الطبيعة وحدها في رقي هذه البلاد، بل لم يكن لجهاد الأفراد وحده الفضل في وصولها إلى سُنام العظمية العملية، بل الفضل كل الفضل لأفراد وصل بهم حظهم بعملهم إلى دائرة واسعة من الثراء فلم يختصوا به أنفسهم، ولم يرصدوه على ذويهم وأهليهم، بل أضافوا منه علىبني جلتهم تلك الهبات الهائلة التي يتقدمون بها إلى دوائر الرقي العام المتغيرة؛ فمن هبات بملايين الدولارات لتشييد المدارس، ومن مثلها لإقامة المستشفيات، ومن مثلها لتكوين المكتبات العمومية، ومن مثلها لتنشيط الاحتراعات، ومن مثلها لترقية الصناعات، وليست هبات كارنجي، وروكفلر، ومورجان وأمثالهما، بعيدة عن صفحات التاريخ. وهل تنسى الإنسانية كلمة روكتلر: «إنني بدأت طريق ثروتي الهائلة فقيراً، ولأعُلَّ أعود بخدمتي للإنسانية إلى النقطة التي بدأت منها ثروتي»،

بخ بخ يا سيدى روکفلر! ليست من كلمة تَصُحُّ أن تكون واسطة للجواهر في جيد الإنسانية أثمن من كلمتك هذه! وحسبها أن تكون هي ثروتك الحقيقة من حياتك الملوءة بجلائل الأعمال، وعظيم الأقوال، وإن كان هذا لا يتفق مع حال الشرق الذي لا وجود فيه إلا لخيال الثروة، ولا فضل فيه إلا لاسمها، حتى لو كانت محبوبة عن صاحبها، يحفل الناس في الشرق بالأغنياء وإن كان لا فَضْلٌ من ثروتهم على أحد! وتحفل الحكومات الشرقية بهؤلاء الذين يسمونهم أغنياء وإن كانوا خَلَا من كل شيء إلا من نصرة الدينار وببريق الدراهم، وقد يتقدم الإنسان إلى الإنسان في مصر بأنه من أرباب الأطيان، فيحفل به السامع مجرد مرور خيال ثروته على وهمه، وقد يتقدم الغني الجاهل، والعالم البائس، إلى الناس فيحفلون بالأول دون الثاني! حتى مع عقيدتهم بأن الأول لا خير فيه، وأن الثاني قد يكون فيه من الخير ما ينفع الناس في حياتهم الأدبية والأخلاقية، بل والمادية، وإذا كنا نحن نحترم ثروة الغني إلى هذا الحد مع عدم انتفاعنا منها بشيء، فما مقدار احترامه هو لها واحتفاظه بها لنفسه من غير أن يكون فيها للمصلحة العامة حصة أو نصيب!

إذن فحياة الأمريكي ليست في ثروته ومَجْده، وحب العيش في جلوسه على تلك المنصة الذهبية التي إذا أزالته عنها الأيام لأي سبب من الأسباب، فإنه لا يفقد معها عبقريته، ولا يُعدَّ نشاطه، بل يستمر في جهاده، ويدخل في دائرة حياته الجديدة، كقادوس الساقية ينزل إلى معين الحياة خاويًا خاليًا، فيغترف منه ما يكون له حياة جديدة؛ ذلك لأن الرجل الأمريكي لا يُغيِّرُ الفقر، بل يعتبره مرضًا يحاربه بكل وسائل الحرب، وهو بجهد متغلب عليه لا محالة، أما عندنا فيكتفي الغني أن يَعْثُرْ عنترة واحدة حتى لا يَجِدْ له مُخلصًا منها! ولا يزال في كبوته هذه مريض النفس، ميت الروح، إلى أن يقضى عليه قنوطه! ذلك لأن الثروة وحدها في نظره هي الحياة، هي المجد، هي العظمة، هي الوجود بكامل معانيه! فإذا هي ذهبت، ذهب كل هذا في عقيدته ونظره، ولا أدرى إذا كان هذا من أمراض الشيخوخة في الشرق؟ تلك الشيخوخة التي تقف بالأعمال عند بعض الناس إلى حد محدود، إذا تَجاوزَها الشخص دخل في دائرة اليأس والفناء! وهو ما يخالف الأثر الذهبي الإسلامي: «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً».

لذلك لا نرى الأمل يقف بالرجل الأمريكي عند حد، بل يذهب به في مسالك الرقي كل مذهب، والعامل منهم إذا رأى أمامه صاحب العمل العظيم وهو لم يكن من سنوات إلا ذلك العامل البسيط المُجد، كان هذا مثلاً حيًّا له، فيجِدُ في عمله هو الآخر مقودًا بفكرة

الوصول إلى ما وصل إليه ربُّ معمله، هذه الفكرة النبيلة لا تقف به عند حدٍ في طريق العمل، وهو إن لم يصل بها إلى غايتها كلها، فلا بد من وصوله إلى شيء منها قليلاً أو كثيراً على حسب حظه في عمله؛ لذلك ترى التقدم في الصناعات مستمراً بين الكبار والصغر على السواء، وإذا كان المستحيل لم يَجِدْ له محلًّا من قاموس نابليون، فالكسل واليأس لم يَجِدَا لهما محلًّا من نفسية الرجل الأمريكي.

وبالجملة فالرجل الأمريكي قد أدهش العالم كله بأخلاقه العملية، ومثابرته على عمله، ووصوله إلى غايته بكل سرعة، وقد بحث علماء الاجتماع والأخلاق في عقر بيته، وكيف أنه امتاز عن العالم الغربي في طفرته إلى غاياته في بلادِه هو جديد فيها؟ ولم يدرروا أنه هو الذي في دمه مدنیات العالم القديم جميعها، حتى إذا وجَدَتْ لها مجالاً للعمل أيقظها الأمل، ونهض بها هذا النهوض الذي أدهش العالم من أقصاه إلى أقصاه.

وعند الأمريكي كلمة تكثر على لسانه، مسبوقة بأفعال التفضيل عندما يتكلم عن أي شيءٍ في أمريكا، وهي لفظ في الدنيا In the World يقول: هذا أحسن شيءٍ في الدنيا، أكبر شيءٍ في الدنيا، أغنى رجل في الدنيا، أكبر بناء في الدنيا، وهكذا مما يُعْدُه بعض الناس من المبالغات التي اشتهر بها الأميركيان عندما تسمعهم يتكلمون في حقيقة عندهم لا يصل إلى تصويرها ذهناً؛ لأننا لم نتعود مثل هذه الأرقام الجسيمة التي تتصل بوصف جملة الأشياء عندهم، والتي مر عليك شيءٌ منها.

والرجل الأمريكي مهما بلغ في ثروته، لا يتقييد في زواجه بأمرأة من وسٍط عالٍ، فلا يهمه إلا تلك التي أعجبته، كما أن المرأة الأمريكية لا يهمها إلا ذلك الذي أعجبها، من غير نظر إلى شيء اسمه كفاعة عائلية، كما هو الشأن في أوروبا وفي الشرق، وقد رأينا هنا ضمن التمثيل السينمائي زفاف شابٍ من أصحاب الملايين بفتاة فقيرة من كندا! ولم نسمع من النظارة أيّ انتقاد على ذلك.

والرجل الأمريكي لا يتقييد بشيءٍ اسمه «النظام الاجتماعي»، فلا يُقيّد نفسه بلباس السهرة في المجتمعات الليلية، وقد ترى القوم في التياترو وقد جلس صاحب الأسموكن بجوار الذي يلبس الأزرق أو الأحمر أو الرمادي مما يكون في نظرك مجموعة من ألوان الطيف؛ خصوصاً في كرافاتاتهم (أربطة ربطة).

وقد ترى كثيراً من تظنه من الجنتلمنات يعيث بمارون ما فوق شفته العليا، وترى في أفواه الكثيرين من طبقة العمل ذلك الخلال الخشبي، حتى في أوان الأكل، وكلهم يشرب السيجار، وقد يمضغون طرفه الأعلى فيتفكرون بعصارته طوال ما كانت السيجار في

فهم! وكثيراً جداً ما ترى الشخص - وخصوصاً الشباب منهم - لا يلبس فوق البنطليون غير القبيص على جلده مباشرةً من غير ياقة، وأكمامه مشمرة إلى ما فوق الساعد، وقد يكون أصل هذا شدة الحر، ولكنه أصبح مثلاً للقوة (اسبور) وكمال الحرية حتى في غير طبقة العمال.

(٢١) المرأة الأمريكية

والمرأة هنا لها حرية مطلقة وغير محدودة؛ فهي لا ترى نفسها أقل من الرجل في حقوقه المدنية، وقد تتشبه به في كلماتها، وفي هندامها، حتى إذا تكلمت من وراء ستار ظننتها في الغالب من هذا الجنس الذي حلّ للأعمال الشاقة، وكثيراً ما تراها هنا تعمل مع الرجل في المصانع والمعامل، وقد تراها أكثر منه عملاً في المجال التجارية ومكاتب الإدارات المختلفة، وتمشي معه كتفاً لكتف في الألعاب الرياضية، ولا تقل عنه حركةً في الطريق، وتسير بمفردها حيث شاءت ليلاً ونهاراً، وتدخل المطاعم والتياترات، وتركب التراموايات والتكساسات وحدها إلى جميع أغراضها، وما أكثر ما رأيت المرأة تسوق الأوتوموبيل بسرعة هائلة في الولايات المتحدة وخصوصاً في نيويورك، وكثيراً ما تراها تلبس اللبس الرياضي (اسبور) وهو بنطليون إلى الركبة، وجاككتة فتحتها إلى الرقبة، ولا أدرى إذا كان ذلك فاتحة إلى ليس البنطليون الطويل تشبيهاً بالرجل في ذلك؟ ولكن هل من الممكن أن تترك المرأة ذلك الفستان القصير الواسع الذي قد لا تلبس من دونه شيئاً؟ وهو لباس الرقة والزينة النسائية، لولا ما فيه مما يكون فوق الركبة، حتى إذا غازلتُه الرياح هاج بهايجها، واضطرب باضطرابها، وقد يُضطرُّ صاحبتَه إلى الاستغلال بتهدئته بكلتا يديها، مما يظهر معه أنها ترى في قصره عيباً لا يتفق مع الآداب العامة التي ترى هي المحافظة عليها من أكبر الفضائل، وهي كما ذكرناه في رسالة نيويورك - مع ما مُنحته من الحرية اللا نهائية - تحافظ على الآداب العامة محافظة كلية، مما لا يمكن أن تلاحظ عليه ملاحظة واحدة، والمرأة الأمريكية مع جمالها في الغالب ورقتها لا عاطفة لها؛ فتراها وسط المعارك والمهالك، والمؤثرات النفسانية، من غير أن تأخذها هزة في قلبها، وقد رأيت جملة سيدات في مجازر شيكاجو التي تسيل فيها دماء الماشية أنهاها، وتقطع فيها أشلاؤها جهازاً، وهنَّ باشرات هاشات متسابقات إلى رؤية هذه المناظر التي تهيج الأعصاب، وتأخذ بالقلوب، مما قد تنهزم أمامها قوة المتشجع! ولكن شجاعة المرأة هنا شجاعة بمعنى الكلمة، وقد تراها إذا انعقدت حرب في المستقبل القريب بين الولايات المتحدة ودولة أخرى

في مقدمة من يسير بالجيوش إلى معمعة القتال، كما تراها اليوم أمام منصة القضاء، وعلى كرسي النيابة عن الأمة تترافع وتخطب، وكما تراها في المستشفيات تداوى الأمراض، وتبتدر الأعضاء، وكما تراها في المصنع تشتعل بالنار والحديد، وبالجملة فالمرأة الأمريكية عامل هي يبحث في جميع الأغراض التي يبحث فيها الرجل من علمية، وتجارية، وصناعية، ولم تقف همّتها عند حدٍ ترى فيه شيئاً من المشقة، والتي تعمل في أي عمل من الأمريكيةات إذا قصّدت منزلها بعد عملها تجدها عاملة في كل شؤونه الداخلية، من تنظيف، وغسيل، وطبخ، وترتيب، ونظام، وكل هذا في سرعة متناهية، ومن غير مشقة؛ لأن كل هذه الأعمال أو جلها تُعمل في بلاد الاتحاد بواسطة الأجهزة الكهربائية، فإذا فرغت من واجبها المنزلي خرجت بمفردها، أو مع رفيقة لها، أو مع زوجها – إن كانت متزوجة – لنزهتها، وهي تقضي في الغالب بعض وقتها في دور التمثيل السينمائي.

والمرأة الأمريكية قلّما تفكّر في الزواج لمّا إليها إلى الحرية المطلقة، وعدم ارتياحها للدخول في حدود الزوجية الضيق!

وفي الغالب يكون زواجهما من غير تفكير، ولا سابقة معرفة بمن تتزوج به، ويكتفي في ذلك اجتماعها به اجتماعاً بسيطاً، فإن راق كلُّ في نظر الآخر كانت ساعةً واحدة كافيةً لإتمام العقد، وإرادة الآباء تأتي عادةً هناك بعد إرادة الأبناء؛ لذلك لا تحدُ الزوجة هناك مكْلفة بتقديم ما يسمونه مهرًا، كما هو الشأن في أوروبا، بل الزواج مبني غالباً ببلاد الاتحاد على إيجابٍ وقبولِ الطرفين من غير ما شرط، وكثيراً ما تُخبر هذه السرعة في الزواج إلى السرعة في طلبِ الطلاق! وهو شائع في أمريكا شيوغاً فاحشاً، ويتم بها بالسهولة التي لا توجد في بلادٍ أخرى، ونسبة الطلاق في الولايات المتحدة في كل سنة نحو عشر ما يتم بها من الزواج!

(٢٢) العامل الأمريكي

العمال هنا هم أحسن عمال الدنيا أجوراً وحياة، وكانت حركة أجور العمال قبل الحرب واقفةً عند حدتها الطبيعي، أما من سنة ١٩١٤ فقد تغيرَتْ تغييرًا محسوساً جدًا، فإذا فرضنا لها قبل الحرب رقم ١٠٠؛ فقد نراها وصلتْ في سنة ١٩٢٠ إلى ٢٦٠ متتبعة في ذلك على أسعار المحاصيل، وهذا أمرٌ طبيعي لضرورة وجود التناسب بين أثمان المنتجات وأجرة اليد العاملة، هذا من جهة وطبيعة العمل، ومن جهة أخرى فإن الأثمان بصفة عامة كانت قد ارتفعت ارتفاعاً فظيعاً في كل شيء؛ في المأكولات، في الملابس، وفي المساكن،

فكان ارتفاع الأسعار في هذا كله موجّهاً لزيادة أجر العاملين في جميع الأوساط الصناعية، والزراعية، والتجارية، ولو نظرت إلى نسبة هذه الزيادة في العالم كله لوجدتها واحدة، فالعامل في مصر — مثلاً — الذي كان يشتغل قبل الحرب بقرشين، أصبحت أقلُّ أجرة له من سنة ١٤ خمسة قروش، والذي كان يشتغل في فرنسا بفرنكين، أصبح يشتغل بستة فرنكينات على الأقل، وهذا نعود إلى العامل الأمريكي الذي كان يشتغل قبل الحرب بنصف ريال، فقد وصلت يوميته مدة الحرب إلى ريال ونصف في المصنع، وإلى أقل من ذلك في المزارع، وهو ضعف أجرة العامل في فرنسا، وضعفاه عندنا.

إذا تساءلنا عن السبب في ذلك، ومن أن أجرة العامل لا بد وأن تتناسب مع أثمان المنتجات، ونسبتها كلها تكاد أن تكون واحدة في جميع الأسواق، خصوصاً لعوامل التزاحم والتنافس التي تحيط بجميع البضائع المعروضة، عرفنا أن المسألة ليست بطلسم من الطسلمات، ولا بمعادلة جبرية يستدعي حلّها فكراً وتدقيقاً، بل هي بديهية ظاهرة؛ ذلك أن أجرة العامل الأمريكي إنما هي بنسبة ما يعمله، وهو يعمل بقدر ثلاثة عمال من الآخرين، هو عامل لا تراه مسؤولاً بعضاً غيره، عامل لا يعمل بتهديد ولا وعيد، ولا يعمل وبعد ولا رجاء، عامل ليس له من منشط غير رغبته في العمل، وإرادته في قيامه بواجبه، وأمله في وصوله إلى منزلة أكبر، لها أجر أكثر، وكثيراً ما يصل به اجتهاده في دائرة عمله إلى الاختراع؛ إلى اختراع شيء يُسْهِل به العمل مما كان عليه من قبل، وهنا تفتح له أبواب الحظ ويصبح من أصحاب الأموال.

إذن فالعامل هنا إنما يعمل والأمل رائد، والاجتهاد قائده، لا كما نراه في جهة أخرى إذا خرج من دائرة القنوط دخل في دائرة اليأس، وإذا غفلت عنه عين السائق تام على فراش عمله نوماً عميقاً! لذلك نرى الاختراع كله هنا في دائرة العمال، كما نراه في أوروبا في دائرة العلماء الذي أَفْنَوْا عمرهم بين خطوط النظريات وأرقام المعادلات.

إلا أن العامل الآسيوي أخذ منذ زمن يَفْدُ إلى أرض الولايات المتحدة ويعمل لحياته مع العاملين، أخذ الألوف من اليابانيين والصينيين وغيرهم يَفْدُون إلى هذه البلاد بحكم الهجرة، ولا يجدون بها عيشهم إلا من طريق التزاحم على العمل، فإذا وَجَدُوا العامل الأمريكي يعمل بريال في اليوم بالولايات الغربية، قِبَلُوا العمل بنصف أجره، وأصبح أرباب المعامل والمصانع والمزارع — وخصوصاً في كاليفورنيا — تنتفع بهذه الأيدي الرخيصة، فحرك هذا من حفيظة اللون الأبيض في هذه الولايات، حفيظة أخذت تذكرها نيران الغيرة، بل نيران الانتقام من هؤلاء الذين جاءوا يقاسمونهم عيشهم، ويحاربونهم في دائرة حياتهم

وهم في بلادهم آمنون من عبث الأيام، فشكلت منهم جمعيات اسمها «كلو كلوكس كلان» اتفقت سرّاً على حرب الأغراط، والاحتفاظ بخيرات البلاد لأهلها بكل وسيلة ممكنة، وذهب بعض من تطرّفَ من هذه الجمعيات إلى حصر هذه المنافع لا في الجنس الأبيض في عمومه، بل في النوع السك소ني منه، فأعلنوا نقمتهم على الكاثوليك وعلى اليهود جميعاً، ولهذه الجمعيات مجتمعات سرية أشبه شيء بالمجتمعات الماسونية، ولا يعرف أحد من أمرهم شيئاً حتى من كان على غير شاكلتها من أهل البلاد.

وقد وقفت الحكومة بالولايات المتحدة أمام هذه الهيئة السرية التي قد يصل عددها إلى ما لا يُستهان به، مُوقِف المضطرب في رأيه، لا تدري إذا كان من الخير أن تتركها وشأنها تعمل في دائرة حُرّيَّتها، ما دامت في دائرة القانون؛ لذلك تراها من جهة أخرى بقدر ما تسهل على الجنس السكسوني هجرته، بقدر ما تصعبها على جميع المهاجرين حتى من الأوروبيين من غير هذا الجنس، وقد يأتي يوم تتحرش فيه هذه الجمعية باللون الأصفر فتطرده من بلادها.

ومن تشديد الولايات الاتحاد للهجرة إلى بلادهم تلك الاستمارة التي تقدمها شركات الملاحة إلى المسافرين عليها لأمريكا، ومن ضمنها: هل أنت متزوج؟ هل أنت متزوج بأكثر من زوجة؟ هل تقصد الولايات للعمل؟ وما هو صفة هذا العمل؟ وهي أسئلة لا نراها في غير السفر إلى الولايات المتحدة.

ومن الجرافيك «الميزانية» الذي عملته وزارة العمل ترى أن الأسعار كانت في سنة ١٩١٣م في حدتها الطبيعي، سواء في بيعها بالجملة والقطاعي، وكانت أجراً العمال واقفة معها عند هذا الحد، ولكن في سنة ١٩١٥م ابتدأت الأسعار تصعد حتى وصلت في سنة ١٩٢٠م إلى حدتها الأقصى، والذي وصلت فيه إلى ما يقرب من ثلاثة أضعاف منها! وكانت أجراً العمال تتبعها في سيرها شبراً بشير، وقدمًا بقدم، ولكن الأسعار في سنة ١٩٢١م انهزمت انهزاماً هائلاً بحيث نزلت إلى نصف ما كانت عليه في السنة التي قبلها! مع ذلك فأجراً العمال بقيت مرتفعة، بل استمرت في ارتفاعها إلى سنة ١٩٢٥م وهي وإن كانت نقصت قليلاً في سنة ٢٦-٢٧ إلا أنها لا تزال أكثر من نسبتها الطبيعية مع اثمان المنتجات.

ويظهر أن هذه النسبة عامة في كل جهة من جهات العالم، وهي أثر طبيعي لتلك الحرب المشئومة التي أكلت الرطبة واليابسة، ولا يزال دخان نيرانها يتتصاعد من بين أطلال البلاد التي خَرَبَتها وأتت على عمرانها!

للعمال قانون خاص للعمل اسمه «قانون تيلر»، وروح هذا القانون هو أنَّ العامل يعمل كثيراً من غير أن يُتعب عقله وجسمه، وذلك بواسطة تنظيم العضلات التي لا شأن لها في عمله، فتبقى غير مُتَعَبَة قوية تخفف بقوتها عن العضلات المجهودة كثيراً مما ينالها من التعب، والعمل على هذه النظرية مبني على دراسة علم الأعضاء (الفيسيولوجيا)، وحتى في هذه لا يخرجون عن قواعد العلم! ومن شأن هذا القانون أن يحكم العلاقة بين المنتج والعامل، ذلك بأنْ يُجْعَل لكل منها واجبات نحو الآخر لا يهملا أحداً منها؛ لهذا ترى الأعمال سائرة على الدوام إلى الأمام من غير محرك ولا منشط، وحال العمال في غدهم خير منه في أمسهم من غير مُطالبة بحق أو لفت نظر إلى مكافأة.

وأرباب الأعمال من الأميركيان لهم سياسة غريبة مع عمالهم، يضعونهم بها في دائرة لا يخرجون منها، وإن خرجوا منها كانوا كالذى يخرج من الضوء الناصع، إلى الظلام الحال، لا يزال يتخطى فيه يميناً وشمالاً من غير أن يجد له مخرجاً؛ ذلك لأنَّ معرفته لصناعته محصورة في قطعة واحدة لا يعرف لها منفعة، ولا يقف لها على قيمة! وهي في نظره شيء تافه في ذاته إن لم يكن سِرّاً من الأسرار لم يصل إليه علمه، وظلسماً لم يفهم ما فيه من دخلية غامضة؛ لذلك تراه أقل العمال إضراباً، وأبعدهم عن الثورة.

خذ مثلاً فورد: فإنَّ عنده مائة وخمسون ألف عامل، كل قبيل منهم يعمل في قطعة واحدة، فهذا يعمل الحديد كتلاً، وذلك ينشر الكتل ألواحاً، وغيره يقطعها قطعاً كبيرة متشابهة؛ وذلك يقطعها قطعاً صغيرة متماثلة، وأخر يعمل مساماراً صغيراً، وغيره يعمل على قياسٍ آخر وثالث يعمل في عمود من الحديد، ورابع يعمل في خلافه، وخامس يضم القطع إلى بعضها فيكُون منه آلة من آلات فورد، وهكذا الحال في القطع الخشبية، وما إلى ذلك من الكاوتشوك، والجلد، ثم يأتي بعد هذا كله من يكون هيكل الأوتوموبيل، ثم يكسوه تنجيئاً وتجليداً، ثم يأتي بعد ذلك من يعمل في التلوين والتمكين.

من هذا تعرف أنَّ الأوتوموبيل الواحد عند فورد قد يعمل في قطعه ألف عامل، كل منهم لا يعرف غير القطعة التي يعمل فيها، وحياته محصورة في عملها، ولا يمكن أن يجدها عند غير فورد! وبذلك تكون حياة عامل فورد وقفًا على فورد بلا قيد ولا شرط، وهذا وأبيك هو الاسترفاقي بعينه، والاستبعاد بذاته في ظلال الحرية المطلقة، تلك الحرية التي إنما هي أكذوبة من الأكاذيب السياسية، يكتبها الأقوياء بحروف من نور على صحفة ظلام حalk تضيع بين طياته حقيقة التاريخ! ومتى كان التاريخ صادقاً في جميع مجرياته؟ وهل التاريخ إلا مرآة لمليول المؤرخين وأغراضهم؟ وإن أحسننا بهم الظن قلنا: لعقائدكم التي قد تخالف الحقيقة في كثير أو قليل من الأمور.

تلك هي حالة العامل الأمريكي بصفة عامة في الولايات المتحدة، وهذا لا يمنع من وجود عمال قد تَخَرَّجُوا في المدارس الصناعية، وعلى الخصوص مما يسمونه «مدارس الأعمال» ويوجد هذا النوع من المدارس في نيويورك، وشيكاجو، وبوسطن، وأهم مدرسة فيه توجد في جامعة هارفارد في بوسطن، وهي أقدم جامعة في الولايات المتحدة، وإن شئت في أمريكا كلها، هذا الصنف من العمال لهم اعتبار خاص، ومنهم ينجب الكثيرون، وقد يصلون إلى سنام الثروة بجهادهم واجتهادهم، ولا نضرب لك مثلًا هنا بغير فورد الذي خرج من وسط العمال في أول هذا القرن، وما زال بعمله وجده واجتهاده حتى أصبح أغنى إنسان في العالم جميعه.

(٢٣) التربية النفسية عند الأميركيان

أول قاعدة من قواعد التربية النفسية عند الأميركيان قولهم: «هلب يور سلف» (ساعد نفسك بنفسك) ويريدون بذلك أن الإنسان لا بد وألا يرتكن على غيره في أي عمل من أعمال الحياة، أو بعبارة أخرى أن الاعتماد على النفس هو أول سلم من سالم الحياة، **قف لحظة واحدة في أية محطة من محطات السكة الحديدية ترى الرجل والمرأة والشاب والشابة بل والطفل —** مهما كانت درجاتهم في الثروة والجاه — **ترى كلاً منهم حاملاً حقيبة ملابسه في يده،** ويخرج من باب المحطة إلى عربته أو إلى الترامواي، وهذا كله **محافظة على وقته الذي ربما ضاع بين البحث عن يحمل متاعه، إلا إذا كان هذا المatum مما لا يُحْمَل، أو مما يُضيّع وقته في حمله،** والوقت عندهم ثمين.

يقع الطفل الرضيع على الأرض وهو في مبدأ حركته للمشي فتدفعه أمه لنفسه قائلة له: «هلب يور سلف»، فلا يزال المسكين يجاهد بحركاته المختلفة حتى يقوم على رجليه بدون مساعدة أحد، وقد يقع في أثناء ذلك جملة مرات ثم ينتهي أمره بالنهوض، ومن هذا الوقت تتولد عنده فكرة القيام بالنفس، حتى إذا ما وصل إلى سن الشبيبة كان رجلاً يعتمد على نفسه في كل شيء! وهذا ما يُمْكِّنه من كسب حياته بغير معين ولا مساعد، تخرج الخادمة من منزل مخدومتها يوم الأحد، فتطهري السيدة طعام البيت، ثم تخرج إلى نزهتها، وتعود وقت العشاء لتجهيز الطعام على المائدة، وقد يهتم كل شخص من العائلة كبيراً أو صغيراً بما يهمه من أدلة الطعام، فيقصد مكانها ويأخذ ما يلزمها منها. يقع الداخير الكبير في مكانه من محل إدارته وبجواره الآلة الكاتبة، فإذاً عنَّ له أن يكتب قام إليها وحرر ما شاء من غير انتظار واحد من عماله.

ترى الفلاح في عزبته الخاصة به يقوم بكل عملٍ من أعمالها ولا يستدعي غيره لمساعدته إلا إذا كان في حاجة ماسة إليه، وهنا أرجو حضرات القراء أن يسمحوا لي بالوقوف عند هذه النقطة ويدهباً معي إلى قرية من قرى الريف عندنا، فماذا نرى؟ نرى أفراداً من الفلاحين ممن تجاوزوا الثلاثين من عمرهم قد اجتمعوا على مصطبة أحدهم وأمامه أداة القهوة، وفي أيديهم أداة التدخين، وهم يتحدثون في سخافات وأقاصيص يقتلون بها وقتهم، فإذا جاء الظهر أكلوا غزيراً، وناموا كثيراً، ثم إذا عَنَ لأحدهم الذهب إلى غيطه الذي يعمل فيه بعض العمال رِكَبْ حمارته بحال تمثل الكسل والخبل، وهناك يُجَرَّد لساناً كلسان الحياة فيلسعهم تأنيباً وتجريحاً بدعوى إهمالهم في عملهم، وهو لو أنصف لَوَجَّه هذا السباب إلى نفسه لإهماله هو عمله الذي يعتمد منه حياته، مما لا يعتبره هو فضيلة؛ لأنَّه من العيب في عقيدته أن يعمل وفي قدرته دفع أجرة العامل؟! كما أنه من العيب أن يحمل الإنسان مداعه، ومن العيب أن يسير الإنسان على رجليه بعض خطوات في الريف أو في العاصمة لمسافة يسيرة، ومن العيب أن يَرْكَبَ الثَّرِيُّ الترامواي، ومن العيب ألا يَرْكَبَ متوسط الحال في الدرجة الأولى من السكة الحديد على فداحة أُجْرَتها عندنا، ومن العيب ألا يُقْلِدَ الإنسان بمصر مَنْ هو أغنِي منه في كل شيءٍ، ولو يُلْقِي به ذلك في جب الاستدانة التي تنقص حياته، وتختفي على كل سعادته في هذه الحياة.

وبالجملة فكل شيءٍ عندنا عيبٌ إلا العيب نفسه فإنه ليس بعيب!

يعتمد الإنسان عندنا على غيره في كل شيءٍ: لذلك نرى آلافاً من الشبيبة (من الذين أكملوا دراستهم طبعاً) وقوفاً على أبواب الوزراء، وفي أيديهم كتب الرجاء، وماذا يعمله الوزير في آلاف ما يقدم إليه من الطلبات لوظيفة واحدة صغيرة خالية في وزارته؟ اللهم رحمةً بأولئك المساكين الذين لم يعرفوا من طرق الحياة إلا التوظيف في خدمة الحكومة، وال الوقوف ببابها، وهو لو قفل في وجوههم لكانوا عالة على ذويهم حتى يقضى الله أمرًا. وهذا كله ولا شك من نقص في تربيتنا العملية، وعلى الخصوص فيما كان يتعلق منها بالاعتماد على النفس!

(٢٤) كوكوكس كلان

في سنة ١٨٥٥ م تكوَّنت بالولايات المتحدة جمعية لمحاربة سيل المهاجرين الذين كانوا يهاجمونهم في حقوقهم المدنية، ويشاركونهم في مواردهم الحيوية، وكان رمزها «ن. ن»

ومعناها: لا أعرف شيئاً. وفي سنة ١٨٨٧ م ظهرت فرقة أخرى رمزاً «أ. ب. أ» أعني: جماعة البروتستان الأمريكية، وهذه الجمعية أذاعت في عرض البلاد أن البابا يريد أن يضع يده على القارة الأمريكية بحجة أن الذي اكتشفها هو كرستوف كولومب الكاثوليكي، وهذا ما يهدد البروتستان في حياتهم، وسرعان ما سررت هذه الفكرة الخبيثة في ولايات الوسط والغرب، ومن ثم وقعت كراهة الكاثوليكي في قلوبهم.

وهاتان الفرقتان كانتا أصلاً لتكوين فرقة ثالثة سرية رمزاً «كو كلاكس كلان»، التي شعارها محاربة اليهود والكاثولييك والأجانب بصفة عامة، والعيدي بصفة خاصة، تكونت هذه الجمعية في ولاية تنساً سنة ١٨٦٦ م باسم الدفاع عن الجنس الأبيض — البروتستانتي طبعاً — وذلك بعد تحرير العبيد مباشرةً.

وقد وضعت هذه الجمعية لنفسها قوانين خاصة وضعوها بين جدران مجتمعاتهم السرية، وكلها تدور حول إزعاج القلوب، وإرهاب النفوس، بما كانوا يشخونه بالليل من أيدٍ ممدودة بسلاحيها، أو هيكل إنسان يشخص الموت بصورةه، أو ما كانوا يكتتبونه في نشراتٍ من غير إ مضاء، يُلْفُون بها في الطرق، كُلُّها خوفٌ وفزعٌ تجمدُ منها الدماء في شرايينها، وتتشيبُ من هولها الأجنحة في بطونها! وقد يلاحظ بعض الناس على بعض السود هفوة بالنهار، فيجدونه غارقاً في دمه بالليل في أحد شوارع المدينة، من غير ما علم بهذا الذي جنى عليه هذه الجناية، بهذا وذاك أصبحت القلوب في فزع مستديم من هذه الفئة السرية التي لا تُعرف كينونتها، ولا تُعلم حقائقها، وكان الحكومة تساعدها من طرف خفي على تلك الجرائم؛ لاعتقادها أنها هي التي بها نجاة البيض من براهن السود.

وفي زمن الحرب العالمية هدأت فظائع هذه الجمعية؛ لاشتغال الناس كلهم بالحرب، خصوصاً وقد تجنّدَ عدد عظيم من السود، كانوا في مقدمة البيض أمام فتكات العدو، وكانت تجتمعُهم وإياهم سماء كانت تمطرهم بوابل القنابل من غير ما فارق بينهم، حتى إذا عادوا شمخوا بأنوفهم، ورفعوا من رءوسهم، فخافهم الأمريكان، وخشوا من جهةٍ أخرى فلول تلك الحرب التي أخذت تهجم على بلادهم من كل صوبٍ، فأخذوا في إيقاظ جمعية «كو كلاكس كلان» من جديد تحت رئاسة الكولونيال سيمون، ولكنها في هذه المرة لم تستعمل الشدة في أول أمرها كما كانت، بل تبدأ بالنصائح تارة، والإذنار أخرى، في نشرات عمومية، أو بواسطة مكاتب خصوصية لمن يريدون منه غرضاً من الأغراض التي يحافظون بها على مبدئهم، خصوصاً في الدفاع عن الجنس الأبيض في عمومه، والمرأة البيضاء في خصوصها، والبروتستانتينية بحالة أعم.

الرحلة إلى أمريكا

ولهم لباس يغطي الجسم كله لا يظهر منه غير أعينهم، يلتحفون به في مظاهراتهم ليُوقعوا الرعب في قلوب من يراهم، وبالجملة فالكلان (مختصر اسم الجمعية) هي جمعية سرية أشبه شيء بالماسونية، غير أن أعضاءها غير معروفين ويقال: إنهم يبلغون ٧ مليون نفس في الولايات المتحدة، وعدهم يزيد بنسبة ألف كل أسبوع، وشعارها أمريكا للأمريكيين، ويعنون بذلك للبروتستان البيض، وهم حكومة داخلة في حكومة مهما صرّح رؤساء البلاد بعدم الاعتراف بهم والتبرؤ منهم، وعلى كل حالٍ فهم قومٌ إذا أهمل أمرهم فلا بد من أن يأتي يوم يبثون فيه روح الفوضى فيما بين الأقليانوسين.

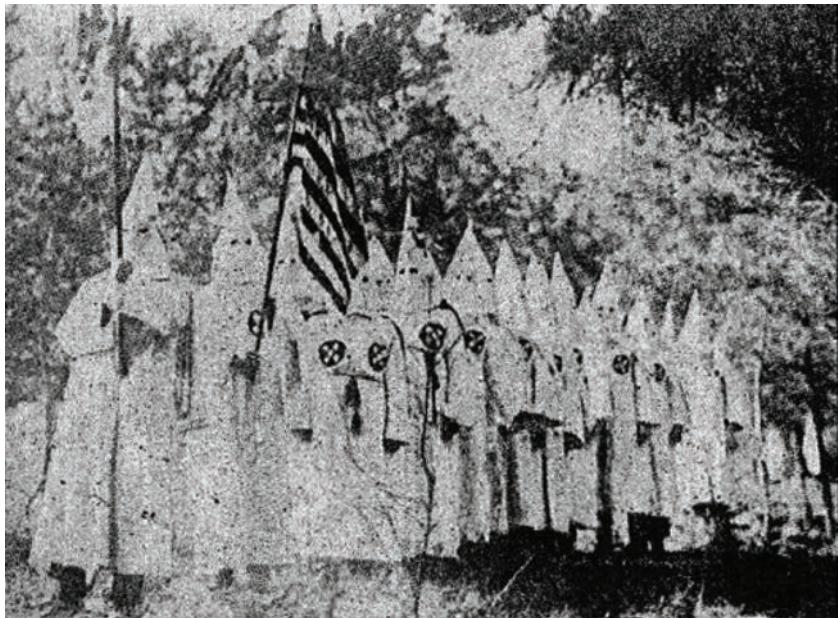
(٢٥) الماسون

وعلى ذكر المasons هنا أقول: إن هذه البلاد تعني بالماسونية كثيراً، ولهم ألواج (أندية) مشيدة مكتوب عليها الاسم الخاص بها بالأحرف الكبيرة البارزة بالذهب، وشعارهم في الخارج الطريوش الأحمر ذو الزر الطويل، عليه اسم المحفل الذي ينتسبون إليه بالمخيش المقصب! وقد رأيت منهم نسوة يلبسن الطريوش الأبيض وعليه اسم محففهم والشرق الذي ينتسبون إليه بالقصب! وجمعياتهم بالطبع جمعيات قوية راقية كغيرها من الجمعيات الأخرى التي تستمد سلطتها من قوة البلاد وعزتها.

وللماسونية بالولايات المتحدة مكانتها السامية؛ لسمو الغرض المقصود من عشيرتها بهذه البلاد، وهو خدمة الإنسانية، ومساعدة المنتسبين لها في حياتهم العملية؛ لذلك ترى أعظم الرجال في كل ولايات الاتحاد يفخرون بتنسبهم إليها، ولأعضائها النفوذ العظيم، والرأي المسموع في كل عمل من الأعمال الإصلاحية والسياسية؛ وذلك لأنَّ أغلب أعضاء البرلان من نوابٍ وشيوخ ينتسبون لهذه العشيرة، وفي الجملة فنسبة عدد المasons إلى غيرهم من سواد الاتحاد نحو ٣٠ في الألف من عدد السكان، وهم في نيويورك أكثر منهم في غيرها، وجملة ما لهم من المحافل في الولايات المتحدة نحو ستة عشر ألفاً وخمسمائة، وفي نيويورك وحدها ما يقرب من ألف محفل فيها من الأعضاء ٣٥٠ ألف عضو تقريباً.

(٢٦) الثقافة في أمريكا

قامت ثقافة الولايات المتحدة على أساس ما فيها من عشرات الألوف من كلياتها ومئات الجامعات المنتشرة في مدنها، وما لا حصر له من مدارسها الابتدائية، ومن هذه المعاهد ما



شكل ملابس كوكلوكس كلان في مجتمعاتهم.

هو خاص بالذكور، وما هو خاص بالإناث، ومنها المختلطة من الجنسين حسب أنظمة الولايات وترتيبها في عقليتها، وبلغ ما تصل إليه حرّيتها، وهذه وتلك إنما قامت بأموال المتربعين من الأفراد، أو الجمعيات الخيرية، أو من هبات هؤلاء الرجال الذين ذهبت بهم هممهم إلى إحراز مجدهم من طريق خدمتهم للمصلحة العامة، وهم بين اثنين؛ الأول اندفع إلى خدمة بلاده بتغذية الثقافة العامة بهباته التي لا يكاد يحصيها العد أمثال رووكفلر، وكارنيجي، ومورجن، وفورد، والثاني ما كان يهديه بعض القوم تذكاراً لحادث تاريخي يتعلق بأشخاصهم.

ولقد كانت هذه الهبات الجليلة تتناول كل ما له علاقة بالثقافة الأهلية؛ فمنها ما كان لترقية الدراسة في ذاتها، أو لترقية حال الطلبة والمدرسين، ومنها ما كان لمساعدة فقراء الطلبة على الاستمرار في دراستهم، ومنها ما كان لإعانته الطلبة الأغارب على ما تتسهل به أسباب حياتهم في سبيل التحصيل في مثل هذه البلاد التي تغلو فيها أسعار المعيشة، ومنها ما كان لإشادة المكتبات الفخمة التي تساعد الطلبة والمدرسين على البحث

والتنقيب، ومنها ما هو لإشادة دور الرياضة الجسمانية على اختلاف أنواعها، ومنها ما هو لإقامة النوادي التي يلتجأ إليها الطلبة أثناء فراغهم من عملهم، ومنها ما هو لإقامة المعامل الكيماوية، أو الطبيعية، وغيرها مما يفتح أبوابه لباحث الطلبة، ومنها ما هو لإشادة المتاحف المختلفة التي تساعد على ثقافة المعلمين وال المتعلمين بحيث تجد من ذلك في كل كلية، أو جامعة ما يجعلها في غنى عن طرق باب آخر للبحث والتنقيب، ومنها ما كان لترقية المسائل الطبية تخفيفاً للألم الإنسانية أينما وجدت، وحيثما كانت، ومنها ما كان لتنقify العمال في دائرة أعمالهم.

ولكل ولاية من الولايات الاتحاد من المعاهد العلمية المختلفة ما يسد عوزها في كل مرافقتها الحيوية، من زراعية، وصناعية، وت التجارية، وعلمية، وسياسية.

فأينما سرت وجدت مدرسة، أو كلية، أو جامعة، لكل مادة من مواد العلوم، أو الفنون، وكثيراً ما تجد الجامعة الواحدة فيها عشرات الأبنية المختلفة يبعد بعضها عن بعض بفارق من بساط الجازون البديع، أو الأشجار التي تلطّف ظلالها من حرارة الصيف، وكل بناء من هذه المادّة مخصوصة: فمنها ما هو للهندسة، ومنها ما هو للجيولوجيا، ومنها ما هو للطبيعة، ومنها ما هو للكيمياء، ومنها ما هو للفلك، ومنها ما هو للزراعة، ومنها ما هو للطب ... وهكذا ... بحيث تجد لكل مادة ما هي في حاجة إليه من آلات ومعامل مختلفة على نسبة ما لها من الأهمية في حضارة الولاية التابعة لها. وحسبك من هذا كله أن أذكر لك جامعة واحدة حتى تكون عندك فكرة عامة عن دور التعليم بهذه البلاد. نعم أذكر لك جامعة «هارفارد» التي هي أقدم جامعة بالولايات المتحدة، والتي توجد في «كامبردج» إحدى مدن ولاية «ساشوسيت» والتي سميت باسم ذلك الرجل الكريم «جون هارفارد» الذي شيدَها في سنة ١٦٣٨م، على مثال جامعة أكسفورد، وكامبردج في إنجلترا.

وهذه الجامعة توجد في متسع عظيم من الأرض، قامت على أبعاد مختلفة في بنايات كثيرة تفصلها عن بعضها الأشجار الزاهرة، والأزهار العاطرة، وكل بناء منها لنوع خاص من العلوم والفنون، أو المتاحف المختلفة، والمكتبات القيمة، ومن هذه البناء ما هو لسكن الطلبة، بحيث أن كل مسكن منها هو دائمًا على غاية من النظافة، ويحتوي على كل ما يلزم الطالب من وسائل الراحة، وهو لسكنى اثنين من الطلبة، وبه قاعة للنوم وأخرى للمطالعة.

ومن هذه البناء نادٍ كبير يُمضي فيه الطلبة أوقات سررهم، وقد يتخلل ذلك شيء من أغانيهم وموسيقاهم، مما يخفف عنهم ما عانوه في عملهم اليومي من تعب ونصب،

وللجامعة كنيسة بديعة لتأدية واجبات الطلبة الدينية، ومن ضمن أبنية الجامعة بناءً خاص لتحرير جريدة الجامعة تجد به جميع أنواع الجرائد والمجلات المختلفة، ويحرر هذه الجريدة بعض الطلبة في كل ما يمكن أن يسمح للطلبة التحرير فيه! وهذا يؤهلهم بعد تركهم الجامعة إلى تعينهم في تحرير الجرائد في ولايات الاتحاد، وتتجد الآن محترفي الجرائد الكبارى من طلبة هذه الجامعة، وقد وصلوا إلى مراكزهم المهمة فيها بما مارسوا من الثقافة الصحفية في تحرير مجلة الجامعة.

ولهذه الجامعة شهرة كبيرة في ألعابها الرياضية وخصوصاً في «الفوت بول»، ولطلبتها مواقف كثيرة في هذه اللعبة مع طلبة جامعة بال «بمدينة نيويورك الأمريكية» والتي لا تقل عنها في شهرتها، وكلّ من الجامعتين ملعب هائل ربما اجتمع فيه ٢٠٠ ألف نفس في مباراياتهما، وربما بلغ دخُل الجامعة منه نصف مليون ريال في كل سنة! وأملاك هذه الجامعة تبلغ قيمتها ٢٥٠ مليون ريال! ومع هذا فإن إدارتها تُذيع من حين إلى آخر منشورات تستندي بها أئمّة المتبوعين، وكثيراً ما يتبرع لها طلبتها بأموال طائلة، ومما يجدر بنا ذكره أن بعض الطلبة الذين لا تسمح لهم مواردهم بمصاريف الدراسة يُعلنون عن استعدادهم لتمضية وقت خلوهم في خدمة من يطلبهم، وكثيراً ما تراهم في مخازن التجارة، أو دور الصناعة، من أصليل يومهم إلى نحو نصف الليل، وهم يعملون في خدمات أو مهن مختلفة – حتى في نفس الجامعة – وهو بلباس الخدمة! فإذا طَلَعَ كوكب النهار كانوا أول الجالسين في مقاعدتهم ضمن طلبة الجامعة، ومن أحسن ما نشير إليه في هذا المقام أنهم يُكونون على الدوام ملحوظين باحترام إخوانهم الذين يُكِبون فيهم تلك الهمة العالية، ويُعطِّلُونَ منهم هذه النفس الأنانية، التي يصغر أمامها كل تعبٍ ونصبٍ في سبيل الثقافة والتعليم.

ومما يُذكر مع الإجلال والإكبار، أن المستر ويدنار، ومدام ويدنار، أنشأا في سنة ١٩٠٠م لجامعة هارفارد مكتبةً من أحسن وأكبر مكتبات العالم تذكاراً لولدهما الذي مات في سن العشرين من حادثة غرق الباخرة «تيتانيك»، وأبواب هذه المكتبة مفتوحة لباحث الطلبة والمدرسین على الدوام.

وحيث إننا ضرِبْنَا لك هذا المثل بدور التعليم بالولايات المتحدة: فيجدر بنا أن نذكر – على سبيل المثال – همة رَجُلٍ من رجال الاتحاد الذين غَمَرُوا بكرمهم وهباتهم معاهد الثقافة والتعليم، وخدموا الإنسانية بما لهم من تلك الأيدي البيضاء التي تُذَكَر فتشُّكر.

(٢٧) روکفلر

في سنة ١٨٩٠ م تبرع هذا الرجل الكريم بمبلغ ٢٥ مليون ريال لجامعة شيكاجو، وخصص قسماً من هذا المبلغ لتعليم الفقراء!

وفي سنة ١٩١٠ م وضع مبلغ مائة ألف دولار تحت تصرف مؤتمر الولايات المتحدة في واشنطن؛ بقصد مساعدة الإنسانية في عمومها، وببلاد الاتحاد في خصوصها!

وفي سنة ١٩٢٠ م زاد هذه المنحة إلى ١٧٠ ألف دولار.

وفي سنة ١٩٢١ م تبرع بخمسة ملايين دولار لإنهاض التعليم في كندا، وفيها تبرع بخمسة ملايين دولار لإنهاض الطب في لوندرا.

ولروكفلر غير هذه التبرعات مدرسة الطب التي أقامها في سنة ١٩٠١ م بالولايات المتحدة خاصةً للمباحث الطبية، وأقام بجوارها مستشفى بما يلزمها من المعامل والآلات من كل نوع مما يحتاجه الطب في كل فروعه، وعلى الأخص في الأمراض الباطنية، والبكتريولوجية، والفيسيولوجية، والكيماوية التي لها علاقة بالداء والدواء، ومن أنظمة هذه المدرسة أن طلبتها لا يُسمح لهم بمزاولة مهنة في الخارج، بل يقترون أنفسهم على البحث الطبي فحسب.

ولم تقتصر هبات هذا الرجل الكريم على ذلك، بل له في كل يومٍ مأثرة جديدةٍ لبلاده، ومنها ذلك البيت الهائل الذي أهداه إلى جامعة كولومبيا في نيويورك — وقد مر بك ذِكره — وأظن أن مصر لا تنسى ما عَرَضَه عليها من منحة «٢ مليون جنيه» منذ سنتين لإقامة معهد للعاديات المصرية بالقاهرة، فأبْتَطَ عليه إلا أن ينزل في منحته على شرطها، فلم يُحبها إلى طلبها، وبذلك فَقَدَتْ مصر بمنحة هذا الرجل الكريم أثراً ربما كان له في البلاد نفع لا يستهان به.

وكل يوم لروكفلر خارج بلاده من الهبات الجليلة ما تشكره عليه الإنسانية. أما كارنيجي، ومورجان، وفورد، فلهم هبات كثيرة ولكنها كلها لتنقيف العمال في دائرة أعمالهم الخاصة، ويوجد غير هؤلاء الكرماء من الأمريكان كثيرون جدًا أقاموا دُورًا للتعليم، والمستشفيات، وغيرها من الأعمال الجليلة.

وليس هنا محل حَصْرٍ ما للأمريكان من أعمال الخير في بلادهم، ولكن غرضنا الإشارة إلى ما قام به بعضهم عسى أن يكون تفكهًةً، أو تسليّةً، أو «تذكرة لأعياننا» تلفتهم بها أريحتهم إلى وطنهم، لا سيما في زمن يراد به تعميم التعليم بين الأهلين.

وبمناسبة هذه الهبات الجليلة التي قام ويقوم بها الأميركيان لبلادهم، مما لم نسمع به في جهة أخرى في عالمنا القديم، وخصوصاً في الشرق! نذكر تلك الهبة العظيمة المباركة التي تقدّر «بعشرة ملايين من الجنيهات الإنجليزية» والتي وهبها صاحبة السمو البيجوم ملكة باهوبال الهندية إلى ترقية الجامعة الإسلامية في سنة ١٩٢٣ م جزاها الله خير الجزاء.

(٢٨) التعليم بالولايات المتحدة

والتعليم عندهم إنما ينظرون فيه إلى الغاية المقصودة منه؛ وهذه الغاية تدور حول حياة الأميركي العمليّة، التي تفتح أمامه أبواب الكسب بكل سهولة وبكل سرعة، وهو على هذه القاعدة أبعد التعليم عن النظريات الرياضية، أو التحليلات الكيماوية التي يُفني الإنسان حياته بين أجهزتها للبحث عن جوهرٍ ربما لا يصل إليه في طريق بحثه الطويل، وهم إذا كانوا نجحوا في أعمالهم الصناعية التي تتوقف على الرياضيات — وخصوصاً علم الكيمياء — فإنما كان ذلك باستخدامهم المهندسين والكيماويين من الألمان والسويسريين وغيرهم، وحاجاتهم الكيماوية تردهم في الغالب من أوروبا وخصوصاً من ألمانيا، واحتفالهم بالنظريات العلمية أقل من احتفالهم بتكون الشخص من جهة أخلاقه وحسن سلوكه؛ بحيث يخرج من مدرسته وهو عضو عامل في جسم البلد، أما تعليم الآداب والفلسفة والقانون والتاريخ فهي عندهم تكاد تكون في المرتبة الثانية، أو الثالثة، وهي عندهم كماليات للتحلية أو التسلية.

وبالجملة فالتعليم عندهم يدور على أمور ثلاثة: الصناعة، والزراعة، والتجارة. والصناعة والزراعة هما عندهم آلان موصلتان إلى التجارة التي عليها حياة بلادهم؛ ولذلك ترى اهتمامهم بالصناعة اهتماماً يفوق الوصف، وهم الآن يهتمون بالزراعة بما لا ينقص عن اهتمامهم بالصناعة.

والتعليم الصناعي من ضرورياته شيءٌ اسمه مصنع، فهم يحتاجون فيه إلى تصميم البناء، ثم إلى رسمه، ثم إلى إقامته، وذلك كلّه مع ما يلزمه من الاقتصاد في المصارييف.

نهضت بهم هذه الفكرة إلى اختراع الآلات التي تسهل العمل، وتتوفر من الزمن، وأحكموا معها فروع الأعمال بحيث أصبحت عندهم شركات خاصة بـهندسة البناء، وشركات لإقامته على الرسم المطلوب، وشركات لنقل المواد الأولية إلى مكان العمل، وشركات لتشغيل الآلات الميكانيكية، وشركات للمسائل الصحية، وترى الكل يعمل في آنٍ واحد؛ بحيث يتم العمل في أقرب وقت وعلى أحسن نظام!

وعليه فاللازم لذلك هي العلوم الهندسية العملية من ميكانيكية وصحية وغيرها، ومما يدور حول ذلك من علوم طبيعية، واقتصادية، وما إلى ذلك من علوم استخراج المعادن وتنقيتها من الغريب، وعلوم النقل، كذلك السكك الحديدية، فهذه العلوم كلها تعلمُ عندهم بتوسيع ولكن بصفة تقاد أن تكون عملية صرفة، ليس للنظريات فيها مجال واسع، وترى لكل علمٍ من هذه معامل خاصة به، غنية بالآلات التي لا تجدها في معامل أخرى بالملك الأوروبي، فيخرج الطالب من المدرسة وقد أمضى زمناً في مزاولة العلم من طريق العمل، عارفاً بها من هذه الجهة، ثم إذا هو تخصص بعد ذلك في شيء منها أتقنه عملياً، حتى إذا تجاوز دائرة التعليم إلى دائرة العمل لم يقف في طريقه شيءٌ من العوائق، ودور التعليم العملي كثيرة جدًا، فمنها ما هو للميكانيكي، والكهربائي، والصحي، والمعادن، ورسم التصميمات الآلية، والبنائية، وحتى الأشياء التي نراها نحن تافهةً، لها عندهم مدارس خاصة؛ كعمل الساعات، وعمل الجبن واللبن والزبدة، وسوافة الأوتوموبيل، والمطابع، والبناء، والبياض والنقوش، وعندهم مدارس للعرفاء (رؤساء العمل)، وليس من قيد في سن الطلبة (كما هو عندنا)، خصوصاً في مدارس الأرياف، بل ربما وصل سن الطالب إلى أربعين سنة!

والأمريكان يفتخرون بأنه إذا كانت القرون الوسطى أنتجت كثيراً من الكنائس الفاخرة، فإنهم في هذا الزمن أوجدوا كثيراً من دور التعليم.

وعلى كل حال فالصناعة هنا — وإن كانت عملية في عمومها — فإنها مبنية على العلم؛ لذلك تراها راقية من يوم إلى آخر برقى العلم، وإنك لو رأيت مصنعاً، أو معملاً هنا من عشرين سنة، ورُرتَهُ اليوم، لرأيته غيره في الزمن السابق، لما دخل عليه من الإصلاح والتعديل، لا كحالته عندنا موروث عن الجدود الغابرين، لا في ذات المصنع وحسب، بل وفي الصناعة نفسها! انظر مثلاً إلى هذا المحراث الذي في يد فلاحنا، تراه هو بعينه ذلك الذي بين جدران المتحف المصري، رغمماً عما عندنا من وزارة الزراعة التي لم تُعْنَ بدراسة وإصلاح حالتها بحيث يكون أصلح مما هو عليه الآن، ولم لا تهتم الوزارة بدراسة حالة المحراث الإفرنجي الذي نراه غير وافٍ بالغرض في بلادنا لأنه لم يصنع بنسبة تتماشى مع صلابة أراضينا، وتطلب من مصانع الآلات الزراعية تكيفه بما يصلح به حاله عندنا.

ومن أهم ضروب التعليم عندهم التعليم الرياضي الجسماني، فإن لهم به عناية خاصة، حتى بلغ من أمر الألعاب الرياضية بنيويورك أنهم طلبوا لإدارتها محافظ نيويورك، وما أدرك ما محافظ نيويورك؟ بمرتب مائة ألف دولار في السنة! أما التعليم الزراعي فمداره على المحاضرات العلمية، والتحاليل الكيماوية، والدروس العملية.

أما التعليم التجاري فقوامه على الاقتصاد المالي والتجاري، بما في ذلك معرفة حركة الأسواق في العالم، ومداره على المرونة التجارية، ودوم الحركة، وكثرة الإعلان المروج للصنف لما فيه من المزايا الكبرى، والأمريكان مشهورون بمباغتهم في الإعلان عن بضائعهم، حتى لقد تبلغ مصاريف الإعلانات التجارية في الولايات المتحدة — سواء كانت في الجرائد أو متفرقة في نشرات خاصة بها، أو بما تراه من الأنوار التي تجذب الأنظار إليها — أكثر من ثمانمائة مليون دولار في السنة!

وعليه فالتجارة هي النتيجة الوحيدة لهذه الحركة الهائلة الصناعية والزراعية مما تجده في هذه البلاد من أقصاها إلى أقصاها، تلك هي النعمة التي تحف بها كل أنواع السعادات، تلك هي النعمة التي يدرسون أساليبها وأسباب التي يصلون بها إلى الغاية منها، تلك هي النعمة التي إنما هي حياة البلد المتدينة، والتي إنما هي الأساس الذي ترتكز عليه الآن جميع المسائل الاقتصادية في الأمم، المقياس الذي يقيسون به مبلغ الثروة والسلام في العالم كله. وهل كانت الحرب الكبرى في حقيقتها إلا إحدى النتائج الاقتصادية في الدول الكبرى؟ وهل حروب الصين الآن إلا إحدى هذه النتائج؟ ذلك أن الأمم الكبرى إنما تعمل لحياتها من طريق التجارة. وهل كان الاستعمار إلا إحدى آلاتها المروجة لها؟ إذن فالتجارة هي محل اهتمام الدول الكبرى خاصة، والعالم كله بصفة عامة.

أما نحن — والحمد لله — فنحن بعيدون عن ذلك؛ لأننا ربّينا على احترام التجارة وعدم العناية بها، وكان همنا وهم آبائنا هو شرف الخدمة في صالح الحكومة. وهل تنسى أبداً ذلك الأثر الخالد الذي ورثناه عن الآباء والأجداد: «إن فاتك الميري اتمرغ في ترابه!» ورؤساء الحكومة أنفسهم لم يأبهوا بهذه الناحية من حياة الأمة! انظر إلى بعثات محمد علي محيي مصر، هذه البعثات التي قامت عليها حيوية البلاد في مرافقها الهندسية، والزراعية، والصحية، والحربية، والبحرية، وما يتبع ذلك من الصناعات المختلفة، كعمل الأسلحة، ومد المراكب، وصناعة البناء، والنسيج. فهل كان منها شيءٌ يختص بالتجارة.

والجواب بسيط جداً: هو لا، ثم لا! والسبب في ذلك أن موارد البلاد الزراعية كلها كانت تُحفظ في أشوان للحكومة، وهي تصرفها إلى تجار يأتون لمشتراكها من الخارج، ليست لهم علاقة البتة بأحد من الأهالي، وعليه فاشتغال الحكومة في ذلك الوقت بالتجارة أ Mataها في وسطها القومي! فلما أتى عباس الأول محامياً أقامه محمد علي من دور الصناعات، فأصبحت البلاد ميتة في صناعتها وتجارتها! وجاء سعيد فلم يهتم إلا بجنديته التي كان يقطع معها طول البلاد من شمالها إلى جنوبها! حتى إذا جاء إسماعيل وأخذ في إصلاح البلاد في كل مرافقها، كانت التجارة بين أيدي الأجانب، وعلى الخصوص الأروام ومن سار

على نهجهم من السوريين، وبذلك صار المصري أبعد الناس عن شيء اسمه تجارة، بل كان يحتقرها لجهله بما فيها من مزاياها الحيوية.

وكان لفظ تاجر إذا أطلق فإنه لا ينصرف إلا على هؤلاء الذين كانوا يعملون في دكاكينهم الحقيقة فيما بين جامع المؤيد وباب الفتوح وما إليه من الجمالية! وهو المركز التجاري للبلاد من يوم بنى جوهر القاهرة في منتصف القرن الرابع الهجري، وتجارتهم كانت محصورة في الخامات وما يتصل بها من مصنوعات الأستانة، ومن تجارة الهند والشام، كالبُلُّونِي والعقاقير، والأدهان والفوواكه الجافة، ولا تزال هذه الأصناف في أماكنها بين أيدي المصريين، أما ما عدا ذلك مما يستنزف مالية البلاد فهو في يد الأجانب وفي حُكمهم، وإذا وُجد منهم غير ذلك قليل، على أنهم لم ينجوا من كارثة الأزمات الأخيرة التي كانت من نتائج الحرب العالمية، مما قعد بغير واحدٍ من هذه البيوتات الكبيرة التي لا يمكن أن تسعد البلاد بمثلها في زمن قريب!

ومصانع الولايات المتحدة توجد في ولايات الشمال — في الغالب — لكتلة ما في أرضها من المعادن الأولية، وبناء العامل يتم بسرعة هائلة؛ لأنَّه يُعطى مرة واحدة إلى الفنَّين العاملين فيه؛ فمن عامل في البناء، ومن عامل في الآلات، ومن عامل في الأبواب والشبابيك، بحيث يتم العمل في وقت واحد، وبسرعة هائلة، والبناء كله عادة هنا من البناء المسلح، وهم يراعون قبل كل شيء أن يكون البناء قريباً من الطرق الحديدية أو النهرية؛ حتى يسهل نقل ما يلزم من المواد التي تقوم بكيانه، وكل هذا إنما يقوم بالآلات الميكانيكية المختلفة؛ فمن رافعة، ومن واسعة، ومن مثبتة، بحيث لا ترى من الأيدي العاملة غير القليل الذي لا يتاسب في نظرك مع عظمة البناء؛ لذلك ترى الصانع البسيط يتقن حركة الآلة الميكانيكية التي يشتغل عليها ولا يتطلب منه العمل بها إلا ملاحظة دقيقة في تحريكها، وعلى هذا ترى الأيدي تعمل بسرعة تكاداً مع سرعة الحركة الميكانيكية، حتى لكي ترى العمال أنفسهم مندمجين في نفس آلات الحركة الميكانيكية العامة.

وجميع الآلات تعمل بسرعة هائلة، حتى ولو جر ذلك إلى كسرها ليغيروها بسوها أحسن وأمن.

والبنوك تساعِد على رواج الأعمال الصناعية مساعدة كبيرة، بحيث لها الفضل في نمو الصناعات بالولايات المتحدة، كما لها الفضل في تنمية جميع المشاريع الاقتصادية والمالية؛ ذلك لأنَّها تقدم الأموال إلى أصحاب المصانع لإقامة مادامت على ثقة من نجاح مشروعاتهم، وحتى شركات السكك الحديدية تعرض على أصحاب المصانع أن تتم سككها إلى مصانعهم مجاناً في نظير تمعتها بنقل مصنوعاتهم فيما بعد إلى الجهات المصدرة إليها.

و حول المصنع ترى منازل العمال على أحسن نظام وعلى ترتيب صحي، و ترى بها ما يلزم لهم من الأندية التي يجتمعون إليها في أوقات فراغهم، ومن المستشفيات، والمصانع، والملاءع، والمنتزهات، والدكاكين، التي بها جميع لوازمهن الحيوية، والحمامات، والمطاعم، والمدارس، والكنائس، وكل هذا بتصميم جميل يعمل مع تصميم المعلم، بهذا وذاك كثُرت المصانع وتوفّرت الصناعات في أمريكا لمناعة الثقة في نجاحها!

أما عندنا، فالمشاريع التي من هذا القبيل – وإن شئت فقل جميع المشاريع المالية – لا ثقة لأحد بها، حتى ولو أخذت نصيبها من العمل! ذلك لأن فلسفة غالب الناس لا تُخَيل إليهم غير الفشل! نعم قد يكون الفشل نصيب بعض الأعمال التي ذهبت في نشاطها إلى ما وراء طبيعة العمل بحيث لم يكن للروية ولا للتؤدة ولا للإخلاص فيها أي نصيب، أما إذا كانت مشاريعنا الصناعية والتجارية مبنية على العقل والحكمة ونزاهة العاملين فيها، فليس أمامها غير النجاح، وليس من برهان أمامنا غير بنك مصر وشركاته الصناعية والتجارية.

لقد فرغ الناس في أمريكا من التكالب على استخراج الذهب من أرض كاليفورنيا وكولورادو؛ لاشتعالهم باستخراج المعادن التي تقوم بها الصناعات المختلفة التي فتح لهم أبواب الثروة على مصاريعها، وهذا هي مصنوعاتهم تنهال على أسواق العالم كله من جديد وقديم، فمن أدوات زراعية، إلى أوتوموبيلات، إلى آلات ميكانيكية ... وغيرها وغيرها، وقد تسمع بعض الناس يقول: إن الصناعات الألمانية أتقن وأحسن مما يماثلها من الصنائع الأمريكية، فإذا سلّمنا له بذلك قلنا: إن كثرة ما يُعمل من الصناعات في أمريكا يملأ الأسواق – وخصوصاً في الشرق الأدنى – وهلا ترى سياسة الولايات المتحدة في الصين مبنية على مظاهر الرحمة والإشفاق حتى تستميلها إليها وتفتح أبوابها لتجاراتها وصناعاتها! كما قفلته في وجه الصناعات والتجارات الإنجليزية! وبالجملة فقد كانت الصناعة الأمريكية قبل الحرب في الدرجة الرابعة؛ أعني بعد إنجلترا وألمانيا، أما الآن فهي في مقدمة الجميع!

ولقد نَهَضَتْ مصر في هذه الآونة الأخيرة في بعض الأعمال الصناعية، وقد قام بنك مصر أخيراً بعملٍ جليل هو مشروع «مصنع الغزل والنسيج». فهل لحكومتنا أن تساعده تلك المساعدة التي تضمن نجاحه الذي يكون نواةً لجدها الصناعي، بل والزراعي؛ لأنه يخفف ضغط الأسواق الأجنبية على القطن الذي هو ثروة البلاد؟ ذلك ما نرجوه منها إن شاء الله.

وفي الولايات المتحدة شركات للسوكتات على المباني ضد الحرائق، وخصوصاً على المصانع، ومن أكبر هذه الشركات شركة اسمها «أركرايت»، والغرض من شركات السوكتات هنا ليس فقط ضمانة قيمة الأشياء المحروقة، بل الغرض منها عمل كل ما يلزم لمنع الحرائق، أو للوقوف في طريقه بمجرد شبوب النيران، وذلك في نظير أجر بسيط يتراوح بين أربعة إلى أربعين من الريال في كل مائة ريال سنويًا، والشركة المذكورة معمل كبير فيه مكتب بولاية بروفنس به عدد عظيم من المهندسين والكيماويين والطبيعيين الذين يعملون ليل نهار في دراسة كلٌّ ما من شأنه محاربة النيران! وقد وضعوا رسوماً مخصصة للمصانع بحيث يمكن معها وضع تلك الأجهزة التي تخلل جوها لتقيتها من النيران بمجرد شبوبها بطبقية أوتوماتيكية (عملية)؛ ذلك أنهم يضعون في أعلى المصنع صهريجاً كبيراً مملوءاً بالماء على الدوام، وتتنزل منه مواسير إلى كل جهة من سماء المصنع، وهي تتصل من جهةٍ أخرى بجهاز كهربائي يُسمُّونه «أسبر نكار»، وهو عبارة عن زجاجة عظيمة مملوءة بمادة كيماوية إذا أحستْ بحرارة نار بسيطة انفجرت، هنالك تنتفتح أفواه ميازيب الماء من كل جهة فينزل على شبِّه مطر شديد يطرد الهواء من جو المصنع، فتخمد النار في الحال، وفي الوقت نفسه تنفتح أبواب كثيرة من جدر المصنع بحال أوتوماتيكية فيخرج العمال، كُلُّ من الباب الخاص به من غير هرج ولا مرج، حتى إذا أطفئت النار وقف نزول المطر، وابتلاعت الأرض ماءها، ورجعت الأبواب إلى أماكنها، وعادت العمال إلى عملها، وكأنه لم يكن شيءٌ غير عادي ذهلت له النفوس، وارتاعت من هوله القلوب!

وقد تتغلب النار لووقف شيءٌ من هذه الأجهزة عن عمله لأي سبب من الأسباب غير المنتظرة، وما هي إلا أيام بعده أصابع اليد حتى يرجع المصنع إلى أحسن مما كان عليه، بواسطة أحد المقاولين الذي يتعهد بإقامته على نظام جديد في مدة لا تزيد عن شهر ونصف أو شهرين على الأكثر! يستأنف بعدها المصنع عمله، حتى لكانه كان في إجازة يرتاح فيها بضعة أيام من عمله!

(٢٩) النقابات في الولايات المتحدة

الشركات التجارية التي من نوع واحد، تجمعها نقابة عامة لتنظيم مسألة البيع والشراء من غير أن يكون هناك احتكار يؤدي إلى التنافس الذي لا تُحمد نتائجه. ولهذه النقابات قوانين تمنع الشركات من التصرف في تحديد الأسعار بما يكون من ورائه الإضرار بالأفراد، اللهم إلا في البضائع المصدرة إلى الخارج.

أما النقابات الزراعية، فكل طائفةٍ من المزارعين تقابةٌ تشتري لهم كل ما يلزمهم من الآلات والسماد والبذور، وهذه النقابات تتبع لهم محاصيلهم مع عدم الدخول في منافسات مع نقاباتٍ أخرى قد تكون سبباً في نزول الأسعار، وهناك تقابة للغلال في شيكاجو تكاد يكون لها فرعٌ في كل مدينة من مدن الولايات المتحدة، ومن شأنها إبداء النصائح للمزارعين بما يزيد في غلاتهم ويحفظها من عبث الرطوبة وغيرها من الحشرات الفتاكه وما في معنى ذلك، حتى إذا تسلّمتها النقابة من الزراعة عملت كل مجدهوها في الوقوف على السعر الحالي في جميع بلاد العالم بالتلغراف، وتصرف ما عندها من البضائع بحالٍ تضمن مصلحة المشتركين فيها، ولكل صنف من الأصناف الزراعية تقابة خاصة به لبيعه لحساب أربابه، ويوجد بالولايات المتحدة أكثر من ١٢ ألف تقابة زراعية!

أما ما يتعلق بالفلاح من الوجهة المالية، فوزارة الزراعة قد قامت بإيجاد بنوك كثيرة في جميع المناطق الزراعية لتسلّيف الفلاحين ما يلزمهم بما لا يزيد عن ٥ في المائة، حتى تمنعهم من بيع محاصيلهم في أوقات لا يكون فيها السعر في مصلحتهم.

ولو كانت حكومتنا حين قررتْ وقتَ الأزمة القطنية في الربيع الماضي مبلغ الأربعة ملايين من الجنيهات لتسلّيفها للفلاح حتى يحتفظ بقطنه ولا يبيعه بذلك الثمن البخس، فتحت به لصغرى الفلاحين بنكًا زراعيًّا له فرعٌ بسيطٌ في كل مديرية يكون مدار التسلّيف فيه بمقتضى استمارة من صراف القرية، بحيث لا تزيد فائدة سلفياته عن خمسة في المائة في السنة، لكن هذا البنك من أكبر النعم على الفلاحين، وكان بطبيعته في زمن قريب نواةً لبنك أكبر يغذى النقابات الزراعية التي نجد بلادنا في حاجة كبيرة إليها، وهي مما تهمله حكومتنا إهمالاً جديًّا.

ومن أهم ما قامت به وزارة الزراعة في الولايات المتحدة، شيء اسمه الاقتصاد المنزلي للفلاحين، وهو ما يضمن راحتهم ورفاهتهم ويحفظهم من عبث صغار التجار، ويدخل في هذا القسم تدبير كل ما يلزم للفلاح: من رسم لداره، وأثاث لمنزله، وألات لزراعة، وملابس له ولعائلته.

وهذه الوزارة تهتم بحالة الفلاح حتى في حياته المنزلي؛ فهي تذيع فيهم نشرات سهلة بـلُغة يفهمونها تشرح لهم فيها كل جديد نافع من الأساليب، وترشد أمهات العائلات إلى تدبيرها المنزلي، ثم إلى التربية العائلية الريفية وما يزيد في رابطتها وسعادتها، وما يتبع ذلك من ثقافة الأطفال بما يتناسب مع الوسط الذي يعيشون ويعملون فيه، وذلك بواسطة المحاضرات الشيقية التي تُربّي فيهم روح الفضائل، مع الابتعاد عن الرذائل،

وكتيرًا ما يكون ذلك كله بواسطة الصور المتحركة التي تشرح لهم مختلف العمليات الزراعية وما إليها من انتقاء البذور، ومعالجة أمراض النباتات والعنابة بالأسبحة، وتربية الماشية والنحل والطيور الداجنة، مع ما وصل إليه الاتخاع من الآلات الزراعية الجديدة، وعند الوزارة من هذه الأشرطة المختلفة أكثر من ألفي شريط قد تصل لغتها الصامدة إلى غور بعيد من قلوب النظارة بما لم تصل إليه بلاغة الخطباء والمحاضرين.

ومن أعمال الوزارة المهمة إذاعتها كل يوم بالراديو أنثان المحاصيل، والمخزون منها، وحالة الجو في جميع جهات العالم؛ لذلك تجد سواد الفلاحين عند كل منهم آلة راديو في بيته؛ ليكون على الدوام على علم من أخبار العالم الزراعية، وغير الزراعية، مع ما يزيد في سروره وغبطة عائلته بما يسمعونه من نغمات الموسيقى والأغنية، والمحاضرات، والخطب، سواء في أمريكا أو في غيرها، وتنشر الوزارة في أول كل سنة ما يهم الزراع من أنواع الزراعة الجديدة ليعمل كلُّ حسابه، كما أن شركات التعاون تعمل حسابها هي الأخرى من جهة تصريف المحاصيل التي تدخل إلى عهدها، وتنصح هذه الشركات أيضًا زبائنهما — في حينه — بحاجة السوق إلى الإقلال أو الإكثار من كل صنف من الأصناف. لا كما هو الحال عندنا من تردد الوزارة كل سنة في أمر واحد هو إطلاق زراعة القطن أو تحديدها بالثلث! ولا تزال في ترددتها هذا، والزارع أيضًا في اضطرابها؛ لعدم معرفتهم بالترتيب الذي يجب أن يكون عليه زراعتهم الشتوية والصيفية، وقد يصدر أمر الوزارة بضرورة زراعة الثلث، بعد أن يكون المزارع رتبَ زراعته الشتوية على فكرة الإطلاق، وهناك يضطر إلى تبوير الأرض التي زادت من ترتيب القطن عن الثلث، وهناك تكون الطامة الكبرى، خصوصًا إذا أضفت ذلك إلى رخص الأسعار، وفداحة أجرا العمال في هذه السنين.

والوزارة بالولايات المتحدة تسهر على تنفيذ جميع القوانين التي يسنها البرلمان لحماية الزراعة.

وفي واشنطن أكثر من مائة وخمسين ممثلاً لنقابات وشركات مختلفة، ولهم اجتماعات يقررون فيها سياساتهم الزراعية، أو الصناعية، لها أثرها في البرلمان وفي الجرائد والبنوك، بل لها أثرها على نفس الحكومة في كلٍّ ما كان له علاقة بهؤلاء الذين يمثلونهم.

أما العمال فحسبهم قانون تل حافظاً لحقوقهم، ولهم أيضًا نقابات تعمل لصالحتهم وخصوصاً فيما يختص بلوازمهم المنزلية، وأما التجار فلهم غرفهم التي لا حصر لها،

ولهذه الغرف أعضاء في كل جهات المسكونة، ولهذه الغرف إرشاداتها المستمرة للشركات التي لها ارتباط بها يساعدها على تعرف حالة الأسواق في أنحاء العالم، وهذا وحده السر في نهوضها بسرعةٍ تكاد تتجاوز حد المعقول، وقد تسقط في أمريكا شركات، وتقوم على أنقاضها شركات أخرى بسبب المخاطرة التي تدخل في حدود المقامرة، ولكن هذا أصبح شيئاً عاديًّا في أمريكا بحيث لا تنزعج منه أصحاب الأسواق، ولا يكاد يلتفت إليها نظر الأفراد.

ولم يستطع كارثة وول ستريت في هذه السنة، والتي نشأ عنها خراب مئات من البيوت المالية الكبرى بأمريكا وغيرها، بل شملت أزمتها المالية العالم من أقصاه إلى أقصاه، إلا حالة فذة لم تُفْوِتْ على وَقْفِ تيارها عقليةِ البلاد الاقتصادية، خسرت فيها أمريكا وحدها أكثر من عشرين ألف مليون من الجنيهات! ولو لا حزم رئيس الاتحاد وتدخله في الأمر بنصائحه وبنفوذه لكان الخسائر أضعاف ذلك.

(٣٠) التربة الزراعية

يظهر أن أقدم الدول اشتغلًا بالتربيَة الزراعية هي إنجلترا؛ لأن بها أقدم مصلحة تشتمل بالتربيَة، ورئيسها الآن هو السير جون رسل منذ أكثر من ثلاثين سنة. أما في الولايات المتحدة فمصلحة التربة تعمل من خمس وعشرين سنة متتابعة روح الجملة التاريخية التي أرسل بها الرئيس الأول جورج واشنطن إلى المؤتمر الأول الذي أقيم سنة ١٧٩٦ م وهي: «بقدر الزيادة التي تحصل في الأمم بقدر ما تكون العناية بالتربيَة الزراعية في الأمة جميعها».

وقد ساعد على تقرير هذه الفكرة تشكيل وزارة زراعية في إنجلترا سنة ١٧٩٣ م، ولم يكن واشنطن يهتم برقعة بلاده سياسياً واقتصادياً وحربياً، بل كان اهتمامه موجهاً مع ذلك إلى ترقية الأراضي الضعيفة لتساعده بخصوصيتها يوماً من الأيام على سعادة الفلاح، إلا أن القوم لم يبدعوا بعمل تجارب علمية زراعية إلا في سنة ١٨٣٩ م.

وفي سنة ١٨٤٩ م تكوَّنت مصلحة الزراعة بالولايات. وفي سنة ١٨٥٢ م تشكَّلت الجمعية الزراعية بها، وغرضها الوحيد ترقية المسائل الزراعية بأراضي الجمهورية المتحدة.

وكانت هذه الجمعية نواةً لتكوين وزارة للزراعة، صدر أمر الرئيس لنكولن بإنشائهما سنة ١٨٦٠ م، وفي هذه السنة أنشئت أول مدرسة زراعية. وفي سنة ١٨٩١ م أنشأوا قسماً

للتغييرات الزمنية وألحقوه بوزارة الزراعة، ثم أنشئوا بها إدارة للتربية، وهذه الإدارة صارت مستقلة بنفسها في سنة ١٩٠١ م.

ومن هذا الوقت أخذوا يبحثون عن التربة الصالحة لزراعة الدخان، والصالحة للقطن، وللذرة، وللقمح، ولغير ذلك، وكانت النتيجة تقدم الشئون الزراعية في عمومها، وذلك بتقسيمها الأراضي الزراعية إلى جملة مناطق في دائرة تبلغ مساحتها ١٢٨٠٠٠ ميل مربع، وهو يساوي ٤٣ من ١٠٠ من أراضي الولايات المتحدة.

ومن جهة أخرى فإن مصلحة التربة حلت الأراضي الملحة وعرفت كيف تستفيد منها، وبالجملة فقد توصلت إلى تحليل الأراضي وترتيبها بحسب درجة طبقاتها المتداخلة بعضها في بعض «سداة الأرض ولحمتها»، وتوصلت من ذلك إلى تعين كل نوع من أنواع الأرض وصلاحيته لإنتاج أي نوع من الزراعات المختلفة، وقد توصلت إلى استخراج البوتاسي من الهباب الذي يتطاير من مداخن المصانع بحيث تحصلت منه على مائة ألف طن استفادت منه في زراعتها، وقد توصلت إلى عمل حمض الفوسفوريك من الحجر والصخور، واستعملته ضمن الأسبخة الزراعية، وهي الآن تدرس طبيعة التربة وترسم لها خريطة مختلفة، وتدرس المسائل الأزوتية بصفة عامة، والتجارب التي تهم بها الآن هي البحث عن الأزوت الموجود في الجو على هيئة نوشادر لاستعماله في تسبيخ أراضيها.

وهنا نقول: إن الزيادة في القطر المصري في كل عشر سنوات تبلغ ثلاثة وثلاثين في المائة من عدد السكان، وإذا كانت محاصيل البلاد الآن غير كافية لتمويل أهالي القطر، مع أنه قطر زراعي، فكيف تكون حالته بعد خمسين سنة؟ نحن يأتينا سنويًا مقدار جسيم من القمح والدقيق والذرة من روسيا ورومانيا والشيلي والأرجنتين وأستراليا. فهل لو قُفلَ في وجهنا باب تصدير ما فضلَ من حاجة هذه البلاد يُمكِّننا أن نعيش في قُطْرنا الزراعي؟! عندنا ملايين من الأفدنة التي لا تزرع الآن في مديرية الوجه البحري، وعلى الخصوص في مديرية الشرقية والغربية والبحيرة، مع أنها كانت هي التي تُموّن مصر في زمانها القديم، فقد كان المصريون قبل المسيح بعشرين قرن يزرعون وادي غسان، فما باله الآن في أغلب جهاته صحراء جراء؟ وكان العرب بعد الفتح يزرعون المنطقة التي من مدينة القرنة «أطلالها قرب القنطرة شرقى القناة» إلى دمياط، وكانت هذه المنطقة عامرة بالقرى والمدن الصناعية، وكانت يسمونها بستان مصر؛ لكثرة خيراتها، وغزاره فواكهها، فما بالها الآن كرأس الأصلع في نباتها وسكانها؟! وكان الرومان يزرعون المنطقة

التي في جهة مريوط، وكان فيها من الكروم ما كانوا يدفعون خراج مصر من نبيذها إلى رومه، فما بالها اتصلت بالصحراء الغربية لا ترى فيها غير بحر ياما «بحر بلا ماء وهو من فروع النيل القديمة الذي كان يصبُّ جهة الإسكندرية في البحر الأبيض المتوسط»؟ نحن ولا شك نسير القهقري في محاصيلنا لجملة أسباب؛ أولها ضعف التربة لتوالي زراعة القطن فيها، ثم إصابتها جميعاً بهذه الأمراض المختلفة التي أخذت تفتت بها من رباع قرن تقريباً! وليس من اهتمام جدي من وزارة الزراعة.

ابتدأنا في أعمالنا الزراعية بالجمعية الزراعية، فكان لها نعم الأثر مدة ربع قرن وخصوصاً في زمن المرحوم المبرور الأمير «السلطان» حسين، ثم أتت مصلحة الزراعة، ثم وزارة الزراعة، فما الذي اكتسبناه من المعلومات الزراعية في مدتها؟ هل أمكننا أن نجد دواء لشيءٍ من أمراض النباتات وأشجار الفاكهة؟ ما الذي عمله القسم الذي يسمونه بكتريولوجي؟ إنه يسمى لنا أمراضًا، ويرسم لنا أشكال ميكروبات، ولكن من غير أن يصف لنا الدواء! وما الفائدة من ذلك؟ إن المسائل الكيميائية ليست عندها إلا قشور لا تسمن ولا تغني من جوع! نرسل الطلبة للتخصيص في العلوم العالية إلى أوروبا فيilmişضون بها سنة أو سنتين، وبعد عودتهم نرى فيهم الكفاية. فهل هذا صحيح؟ أنا أفتقر أن التخصيص إنما هو لمن نضج من الأشخاص الذين زاولوا مهنتهم في البلاد زمناً ما، حتى إذا ذهبوا إلى أوروبا أو إلى أمريكا شعروا قبل كل شيء بالمسؤولية التي عليهم فيশمرون عن ساعد الجد، ويعملون لبلادهم ولأنفسهم.

لقد كان محمد علي حين عزم على إرسال إرساليات علمية، إنما أرسل منْ نضج في عمله وثبت في أخلاقه، وهولاء هم الذين خدموا البلاد بعد عودتهم بعلمهم وبمؤلفاتهم، ونقلوها من حالة ظلام حalk إلى النور الذي أرشدنا إلى طريق حضارتنا ومدنينا الحاليتين، وحيث إننا نتكلّم في المسألة الزراعية والكيميائية، فعندها كتاب الزراعة لندا، ومادة الرشيدى في الكيمياء، منهلين عندهم إلى الآن كلَّ ما نحن في حاجة إليه من هذين العِلمين الجليلين، أليس كذلك؟

(٣١) مؤتمر التربة الزراعية

تنسب فكرة إقامة مؤتمر للتربة الزراعية إلى عالم روسي هو الدكتور جلنكا، وقد كان لاجتماعه بعلماء التربة في أوروبا قبل الحرب، أن تقرر اجتماع أول مؤتمر لها في بطرسبورج سنة ١٩١٣م، ولكن استعداد الدول للحرب العالمية وقفَ في وجه هذا المؤتمر.

وفي سنة ١٩٢٤م اجتمع الدكتور جليكا مع بعض علماء التربة في المعهد الزراعي الدولي بإيطاليا وجد الكلام معهم في أمر المؤتمر، فقرروا اجتماع المؤتمر في سنة ١٩٢٧م بمدينة واشنطن، وانتُخبَ الدكتور لييمان مديرًّا لجامعة نيويورك، ورئيس محطة التجارب بها رئيسًا له، وقد قررَ مجلس النواب الأمريكي دعوة دول العالم إليه، فلبيَ الدعوة جميع الدول ما عدا تركيا والصين.

وحضر إليه بصفة رسمية في أوائل يونيو الماضي ٧٦ مندوبًا عن هذه الدول، كما حضر لهذا الخصوص على مصاريفهم مئات من علماء أوروبا وغيرها.

(٣٢) افتتاح المؤتمر الدولي الأول لعلم التربة

في صباح يوم ١٣ من شهر يونيو سنة ١٩٢٧م نَهَبْنَا إلى مَقْرَرِ الغرفة التجارية بواشنطن، ولا أدرى كيف نُسْمِيَها غرفة وهي بناء ضخم، فيه عشرات من الغرف الواسعة الجامعة بين فاخر الأثاث، وكثرة العاملين؟ فقيدنا اسمنا وببلادنا ومحل إقامتنا هنا، ودفعنا لذلك رسماً قدره ريالان لمن يريد قيد اسمه، وحسب، وخمسة ريالات لمن يريد أن ترسل إليه الغرفة بجميع مذكراتها وقراراتها من أعمال المؤتمر إلى محل إقامته، وقد أعطونا كراسة صغيرة فيها جملة شيكات، منها ما هو للعشاء، ومنها ما هو للشاي، ومنها ما هو للفسحة، وهذا كله بثمن أسمى أخذوه منا.

ومع هذه الكراسة دعوة رسمية من وزير الزراعة يدعونا فيها إلى العشاء في يوم ١٥ من شهر يونيو، كما سلمو لكل عضو ميدالية المؤتمر.

وفي الساعة الثانية بعد الظهر من هذا اليوم قَصَدْنَا الغرفة التجارية، وصَفَقْنَا جملة صفوف على شبه نصف دائرة في حوش قصر الغرفة لأخذ صورتنا، وبعد انتظامنا — كلُّ في مكانه — حضر جناب المستر كولج رئيس الولايات المتحدة في أبيه وداعته، وعظمة ديمقراطيته، ووقف في منتصف القوس الأول، ومن ورائه ضابطان هما ياورانه، وبجواره الدكتور لييمان رئيس المؤتمر.

وبعدأخذ الصورة سرنا إلى قاعة الاجتماعات، وهي قاعة واسعة بها جملة مئاتٍ من الكراسي الثابتة، وبعد أن أخذ كلُّ مكانه دخل الرئيس كولج إلى منصة الخطابة، ومن دونه ياوراه وجناب الدكتور لييمان الذي رأس الجلسة، وقدم الخطيب إلى الحاضرين. وهل تخفي الشمس؟

وهنا أخذ رئيس البلاد يتلو خطابته في عظمة، ودعة، وتأدة، وبلغة، وفصاحة، فلا لعنة، ولا تتمة، بل كانت خطابته أشبه شيء بمحاضرة لفطاحل هؤلاء الطلبة الذين أتوا

من شرق المعمورة وغربها، وكانت طبعاً دائرة حول التربة وتاريخها في الولايات المتحدة، وشكر الأعضاء على قبولهم دعوة بلاده إلى هذا المؤتمر، وبعد الخطابة قام الدكتور لييمان وشكراً بكلمات بسيطة، انصرف بعدها الرئيس مع ياوريه، فودعه الدكتور لييمان «وحده» إلى باب غرفة الاجتماع!

عاد الدكتور لييمان إلى كرسي الرئاسة وقال إنه لا يذكر أسماء الذين حضروا للمؤتمر بصفة رسمية وطلب من كلّ كلمة، وهنا أخذ يذكر اسم مندوب كل دولة فيقوم ويقول كلمته، ولما أتى دور مندوبنا قام حضرة المرحوم الأستاذ محمود بك أباظة، وقال كلمات طيبات كانت كلها رجاء وأمال في نفع بلاده من نتائج هذا المؤتمر، وانتهينا من هذه الجلسة في الساعة الرابعة، فدعينا إلى قاعة الشاي ثم انصرفنا وكلنا في غبطة بما رأينا من عظمةٍ وآدابٍ وكرمٍ، وكانت في دائرة حوش الغرفة صناديق مستطيلة من الزجاج طولها مترين في عرض نصف متر فيها أنواع التربة الموجودة في الولايات وهي التي عملوا عليها أبحاثهم، وبجوارها بعض التربة لبلاد أخرى، ثم رسوم للتربات مختلفة من جهات كثيرة.

وفي اليوم التالي ابتدأت جلسات المؤتمر للمباحثات العلمية.

ولما كانت هذه المباحث فنية صرفة، وكان جلها بلغات لا أفهمها؛ لأن الروسي يتكلم بلغته، والألماني بلغته، والإسباني بلغته، والإنجليزي بلغته، كان هذا متباطئاً في استمراري على حضور أغلب الجلسات، وعلى كل حال فقد قد سُموا الأعضاء إلى ستة أقسام وفقاً للتقسيم العلمي للتربة الأرض، وعلى حسب استعداد كل عضو وشخصه في العلم الذي يميل إليه، وقد أخذت هذا التقسيم من صديقي المرحوم الأستاذ أباظة بك، الذي كان يواكب كلّ المواظبة على حضور جلسات المؤتمر جميعها، وهو:

القسم الأول: الأبحاث المتعلقة بالتحليل الطبيعي والميكانيكي للتربة، والأبحاث التي نوقشت فيه هي؛ أولاً: تحضير النبات للفحص الميكانيكي، ثانياً: تقسيم التربة للتحليل الميكانيكي، ثالثاً: أونق الآلات للتحليل الميكانيكي، رابعاً: الخواص الطبيعية للتربة.

القسم الثاني: الأبحاث المتعلقة بكمادية التربة، والأبحاث التي نوقشت فيه هي؛ أولاً: المواد العضوية والترويجينية في التربة، ثانياً: التحويلات الكيماوية في العناصر المترسبة منها التربة.

القسم الثالث: الأبحاث المتعلقة بعمل البكتيريا في التربة، والأبحاث التي نوقشت فيه هي؛ أولاً: بكتيريا التأذت، ثانياً: أعمال الفطر، ثالثاً: تثبيت الأزوت في التربة، رابعاً: المواد العضوية والتربة، خامساً: المواد المعدنية والتربة.



الغرفة التجارية بواشنطن.

القسم الرابع: الأبحاث المتعلقة بتغذية التربة، والأبحاث التي نوقشت فيه هي؛ أولاً: تجارب التغذية في الحقل، ثانياً: تجارب التغذية في القصاري، ثالثاً: تجارب الإنبات، رابعاً: تأثير مواد التغذية بالنباتات، خامساً: تأثير زراعة التربة على محصول الفدان، وعلى مقدار انتفاع النبات بالماء والهواء.

القسم الخامس: تقسيم التربة إلى فصائل، والأبحاث التي نوقشت فيه هي؛ أولاً: أُوفِّقَ الطرق للتقسيم، ثانياً: الطرق المستعملة في أمريكا وروسيا.

القسم السادس: تطبيع علم التربة على الزراعة، والأبحاث التي نوقشت فيه هي؛ أولاً: علاقة الري بعلم التربة، ثانياً: الري في بعض جهات أمريكا، ثالثاً: الصرف في الأراضي المعدنية.

وكانت جلسات هذه اللجان تتعقد قبل الظهر وبعد من يوم ١٤ إلى يوم ٢٢ يونيو، وقد حضرت فيها جملة خطب، وإنني، وإن كنت لم أفهم منها شيئاً له قيمة؛ لأنها كانت بلغات أجنبية تُترجم بعدها إلى اللغة الإنجليزية، وبلغة غير عادية؛ لأنها لغة عامية صرفة، ولكنني عرفت على الأقل شيئاً من آداب الخطابة والخطباء «المخطوطين»؛ فقد كنت لا تسمع غير صوت الخطيب، ولا تنظر غير حركات الآذان والعيون في اتجاهها إلى مصعد

كلماته. نعم، إنهم يشربون الدخان في هذه القاعة، وربما كان ذلك من كمال الحرية التي يريد الأمريكيي لا يحرّم نفسه منها، ما دامت لا تضر بالآخرين – في نظره – وعلى كل حالٍ؛ فقد كنت أرى الساحة الألمانية أكثر الناس اهتماماً لهذه الخطابات، ويقادون لا تفوّتهم منها فائمة؛ ذلك لأنّهم من العلم بمكان يريده كل منهم أن يتعرّفه، ومن بعدهم الروسيون، وإن كانوا هم الذين يُرجّح إليهم في كثير من الأمور الخاصة بعلم التربة.

وصلت لنا دعوة رسمية من وزير الزراعة في الساعة التاسعة من مساء الثلاثاء ١٤ يونيو بمكان عصبة الأمم الأمريكية، فقصدنا هذا المكان بملابس السهرة فوجدناه على منتهى ما يكون من الفخامة، وبناؤه جمیعه من كتل الرخام الأبيض الكبيرة، ولما صعدنا سلّمه وجدنا على باب بهوه الكبير الدكتور ليبيان وزیر الزراعة وزوجته يستقبلون المدعوين، فقدَّمنا إليهم الدكتور ليبيان، وبعد السلام دخلنا إلى هذا البهو وفيه من المدعوين أعضاء المؤتمر، وجميع الهيئات السياسية، وغيرهم من الوزراء وأعاظم البلاد، وكانت الموسيقى تشتفف الآذان بنغماتها الشجية ثم دار الرقص حيناً ما، وقد قابلنا هنا حضرة صاحب السعادة الوزير المصري المفوض، وكان في أوائل المدعوين إلى المقصف دعانا معه، وبعدأخذ ما تيسّر من المرطبات دار معنا يريينا ما في بعض صالات هذا البناء الفخم من صناعات الدول الأمريكية الدقيقة، وطبيعتها المصبرة، ومعادنها، وبعد برهة تركنا المكان شاكرين لأصحاب الدعوة كرمهم وأدبهم.

ومن فخامة هذا المكان، بل ومن مجرد اسمه تعلم مقدار الرابطة بين دول أمريكا المستقلة عن الولايات المتحدة «ما عدا كندا التي هي ضمن الاتحاد البريطاني» وأنها داخلة ضمناً في شبه اتحاد يعزز مركزها بما يجعله كعرين الأسد في نظر عدوهم، ومن جهةٍ أخرى فإنه يسهل بينهم جميع الروابط التجارية والصناعية.

ولو كنا في الشرق من أربعينات سنة ماضٌ عرَفنا معنى لهذا الاتحاد أيام كانت الدولة العلية ومصر والعجم في عزتها وقتها لما كان تيسير للسلطان سليم العثماني «بغشمه» القضاء على قوة العجم، وعلى استقلال مصر، بما أصبح به الشرق كله من هذا التاريخ ضعيقاً تتنازعه أيدي دول الغرب إلى الآن، ولكن من لنا بشيء اسمه اتحاد وهو يكاد لا يوجد حتى بين جدران بيت واحد عندنا!

(٣٣) احترام الثروة في الولايات المتحدة

إذا كان للثروة من احترام في أمريكا فللغایة التي تبحث عنها، فالرجل الأمريكي إذا وصل بجده ونشاطه وسهره وهمته إلى ثروة واسعة، فالناس لا يستشعرون بهذه الثروة إلا



مكتبة المؤتمرات بواشنطن.

إذا كان لهم من عمله نصيب، انظر مثلاً إلى فورد وهو أغني رجل اليوم في أمريكا، وإن شئت فقل في العالم، وصل هذا الرجل إلى هذه الثروة الضخمة بجده، فكان خزينة مال طويلة عريضة لا ينضب معينها، ولا تفني كميتها! ولكنه لم يصل إلى مجده من عمله إلا بتلك النتائج الهائلة التي نشأت عنه، فإنه بسهولة اختراعه، وتفاهة ثمن عرباته، قد خفَّ على الناس الانتفاع بها حتى تقاد لا ترى بيتاً واحداً في الولايات المتحدة ليست فيه عربة من عربات فورد، تتنقل أصحابها إلى عملهم صباحاً، وتأتي بهم إلى مقرهم ليلاً! وكم كان لإذاعة اختراعه ونشره في جميع الآفاق من فضل على عماله الذين لا يقلون عن مائة وخمسين ألف عامل، بقطع النظر عما يلزمهم من الآلات الأولية، من حديد، ونحاس، وزهر، ونيكل، وجلد، وكاوتشوك، وخشب، وبويات، تلك الأدوات التي يشتغل في استخراجها مئات الآلوف من العمال، فالرجل إذن رب نعمة ما لا يقل عن مليوني نفس! يشتغلون فيما يلزم لأعماله الواسعة، وهذه منفعة لا يمكن لإنكارها، وخدمة للإنسانية لا يستطيع أحد كفرانها، على أن أعمال الرجل لم تقف عند حد مزية الإنتاج، بل ترى اهتمامه بعماليه وصل به إلى أن بني لهم بجوار فبريقاته قرَّى جمعتْ كلَّ مظاهر الحضارة، فإذا وصلت إلى مدينة «ديترويت»، وهي التي فيها مصانع فورد، ترى مدينة العمال وقد بدت لك مساكنها ممتدة بجميع أسباب الراحة والصحة، فمن صالون قد حوى أدوات الزينة

والراحة حتى البيانو، إلى قاعة للسفرة، إلى قاعة للرياضة البدنية، وإلى حمام وإلى مطبخ! وهل يريد العامل نعمة أكثر من هذا؟ وهو إذا رجع من عمله تعباً يجد ما يذهبُ بهذا التعب من أسباب الراحة المختلفة.

ترى بجوار هذه الخصوصيات كنيسة للصلوة، ومكتبة للمطالعة، وبستانًا كبيراً لنزهة العمال وذويهم، وأمكانة لمسابقة الرياضية لأولادهم، ومدارس، ومستشفيات، وتيارات، وسينماتوغرافات، لا تسمع فيها ولا ترى إلا كل ما يرقى العامل في أخلاقه وعقريته! وقد تطهرت من تلك الأقوال التي تنزل بالنفوس إلى الحضيض الأخلاقي، وخلصت من تلك المناظر التي تعلم السذج جميع أساليب الفحش والسرقة والغش والخداع و... و... إلخ، مما يجعله من شر خلق الله على الإنسانية، وقد اشتهر فوراً بهذه الأعمال التي يرقى بها بحالة عامة مجموعة لا يستهان بها من بني الإنسان، وإن لم يشتهر كغيره بشيء من تلك الهبات الجسيمة التي يخصصونها لعمل من الأعمال العامة التي تعود على الإنسان بالخير والبركة.

أما روکفلر مع أنه لم يعلم عنه أنه مَدِيده بقرش واحد لفقير أو بائس، فقد اشتهر بهاته وتبوعاته الهائلة التي يذكرها له التاريخ بعبارات التمجيد والتخليد، وله في كل يومٍ آية ناصعة من البر والإحسان تُذكَر فتُشكَر.

انظر إلى ذلك القصر الفخم الذي وبه أخيراً ليكون موئلاً للطلبة الأجانب الذين يقصدون نيويورك للتعلم في جامعتها! أقول: القصر الفخم، وهو ذلك البناء العظيم الهائل الذي فيه مئات الغرف التي خصّصت لسكنى الطلبة بأجرٍ زهيد جدًا لا يزيد عن ريال ونصف شهرياً، وقد جَعَلَ فيه من الحمامات وأمكانة الرياضات ما يكُفِلُ لهم راحتهم وصحتهم وكل أسباب سعادتهم، وجَعَلَ لهم فيه مطعماً يأكلون به أكلتهم بذرِّيهما معدوبة في هذا البلد الذي ترى الريال فيه بمثابة قرش أو فرشين بمصرنا العزيزة بدون مبالغة! انظر إلى مورجان وإلى المكتبات التي وهبها للمدارس، بل وللعمال هنا وهناك في كل جهة، وفي كل ولاية لتنقيف أذهانهم وليزيد بها في معلوماتهم ومعارفهم.

انظر إلى تلك الهبات التي وهبها أصحاب الأموال للمدارس والجامعات في كل جهة من جهات الاتحاد الأمريكي، بحيث أصبحت لا يعادلها شيءٌ في نوعها في كل بلاد الدنيا! انظر إلى الهبات التي وهبها أرباب الأموال للبحث في المسائل الطبية، وغيرها من المسائل الطبيعية والكمياوية، انظر إلى هاته المعامل الهائلة التي ضربت قبابها تحت سماء كل ولاية من ولايات الاتحاد للبحث في المسائل الزراعية وغيرها! كل هذا وإن كان على مظهره

مسحة من أنانيات أصحابها الذين ربما أرادوا بها أن يظهروا في أفق التاريخ، ولكن البلاد انتفعت بها انتفاغاً — وإن كان جسيماً — فهو لا يزال في رُقِيّه واكتماله. لهذا وذاك كان للثروة في بلاد الاتحاد ما يجب لها من الاحترام، وإن فالاحترام لم يكن موجّهاً للثروة في ذاتها كحاله في الشرق، بل للثروة في الفائدة التي تعود منها على المجموع.

لذلك ترى كثيراً من أصحاب الملايين في أمريكا ممن ليس في أعمالهم ما ساعد على الرقي العام، ليست لهم أدنى ذكرى في بلادهم ويکادون يكونون مقبورين في دائرة أموالهم وأملاكهم، لا يهتم بهم أحد، ولا يشعر بوجودهم إنسان!

(٣٤) الولايات المتحدة من الجهة الاقتصادية

لقد كانت الحرب العالمية سبباً لتغيير التوازن المالي والتجاري للولايات المتحدة؛ فقد كانت صادراتها ووارداتها في ربع القرن الماضي كما ترى:

سنة	واردات بالمليون ريال	الصادرات بالمليون ريال
١٩٠٤ م	٩٢٠	١٤٣٠
١٩١٤ م	١٧٠٠	٢٢٠٠
١٩٢٠ م	٣٣٠٠	٦٣٠٠
١٩٢٥ م	٤٣٠٠	٤٣٠٠

من هذا الجدول ترى أن الصادرات والواردات تضاعفتْ ثلاثة مرات في مدة الحرب، بحيث كانت تشغل أسواق العالم جميعها في حين كانت أوروبا تداوي جراحها من أثر تلك الحرب المشئومة؛ جراحاً في جسمها، في نفسها، في صحتها، في مساكنها، في ماليتها، في صناعتها، في مصانعها، جراحاً في علمائها، في فتيانها، في شبيبتها، جراحاً في كل شيء حيوي كانت تتمتع به قبل الحرب، ولسان حالها يقول:

ولو كان همّاً واحداً لاحتملته ولكنّه همّ وثاني وعاشرٌ

ولقد كانت أوروبا في هذه الحرب في حاجة إلى كل شيء: في حاجة إلى الغذاء، إلى السلاح، إلى القطن، إلى الذخائر، إلى الفحم، إلى البترول، إلى الملابس، وكل هذه كانت تشتريه من وراء الأقيانوس بالعملة الذهبية التي كانت أمريكا تشرطها في مبيعاتها، حتى استندت جميع ما في خزائنه من مسكون ومبوبوك! بما أصبحت به خزائن الولايات المتحدة مكتظة بأكثر من نصف ذهب العالم شرقيه وغربيه! وشماليه وجنوبيه! وأصبح الحلفاء مدینين لها بنحو ٢٤ مليار دولار! وهو ما لا يمكنهم دفعه عيناً بأي وسيلة من الوسائل، بل يدفعونه بضاعة وما هم بقادرين؛ لأنهم إن أمكنهم أن يدفعوا الفائدة فالاصل باق إلى ما شاء الله «وإذن فهم يشترون معنا في هذا الحال».

ومع ما كسبته الأهالي الأمريكيان في مدة الحرب، فإنك ترى أن عشرين ولاية من ولايات الشمال والوسط أغلب أراضيها مرهونة! أما ولايات الجنوب فقد تمتَّعت بعلو اثمنان القطن؛ ولذلك فأرضها خالية من الرهن غالباً، ومع ذلك فنسبة زراع الاتحاد بصفة عامة في سلم الثروة بالأرباب الصنائع بها، نسبة منحطة جدًّا، ولو لأن الأفراد — بل والجماعات — ترتكز على حُسْن سياسة النقابات والشركات وصدقها في عملها، وعلى يقظة الحكومة الاتحادية وإخلاصها في خدمة شعوبها، وكانت الحالة الزراعية بولايات الاتحاد مما لا يبشر بمستقبل سعيد يتناسب مع النهوض الذي تندفع في تياره مَرَافقُ البلاد بصفة عامة.

ليس أمام حكومة الاتحاد غير المصلحة العامة، فخريطة البلاد أمامها كرقعة الشطرنج، لا تضع الحجر في مكانه إلا إذا اعتقدت أن فيه المصلحة التي توصلُها إلى نجاح البلاد وفلاحتها؛ فلا نسمع أن وزيراً ساعد أميراً بما يُؤثِّر على مصلحة كثير من الناس، أو أن مرءوساً وجَّه نفوذه إلى خدمة شخصية رئيسه بما يُهُمل به عموميات الجماعات في سبيل خدمة الأفراد، وهي علة الحكم في الشرق! تلك العلة التي لا تقوم معها دولة، ولا ينهض بها شعب، تلك العلة التي هي من أمراض الشيخوخة التي نتیجتها التلاشي والفناء إن عاجلاً وإن آجلاً.

وكثرة السكك الحديدية في بلاد الاتحاد قد ساعد مساعدة كبيرة في نمو حالتها الاقتصادية، وهي الآن تخترق جميع ولاياتها كما يخترق المجموع العصبي للأجسام الحية، بما أصبحت معه العامل الوحيد الذي يحس منه الإنسان عظمة الحالة الاقتصادية في الجمهورية الاتحادية، وهذه السكك تدخل في المصانع والمعامل بما تَسْهُل معه حركتها في شحن مصنوعاتها وتفرير ما يَرِد إليها من الموارد الأولية، ومقدار أطوالها في الولايات

الاتحاد يزيد عن ٢٦٥ ألف ميل! (مع العلم بأن السكك الحديدية في مصر هي ٢٥٧٤ كيلومترًا للحكومة، وعلى ما ذكر نحو ٦٥٠ كيلو لشركات الفيوم والمنصورة والبحيرة) ويشتغل في معامل سكك الاتحاد وقطاراتها ودريستها نحو عشرة ملايين نفس أو أكثر! وتُقدّر إيراداتها بـ١٣٠ إيرادات الدولة الأمريكية، وإذا عرفت أن أحد خطوطها في بنسلفانيا يمر عليه في اليوم الواحد ألف وخمسمائة قطار، عرفت ما هي حركة القطارات فيها!

وهذه السكك كلها لعشرين شركة، تدفع إلى الولايات الاتحاد ضرائب فادحة على مرورها من أرضها، لا تقل عن ١٦٠ مليون دولار كل سنة، وتملك هذه الشركات لحركة سككها اليومية ٧٠ ألف قاطرة «قوتها أكثر من ٦٠ مليون حصان»، وثلاثين مليون ونصف مليون عربة للبضائع، و٦٠ ألف عربة للركاب، وبلغ مقدار ما نقلته في سنة ٢٤ من المحاصيل ما يقرب من بليونين وربع طن! ومن الركاب نحو مائة مليون راكب! وعدد عربات البريد في الولايات أكثر من خمسة آلاف عربة، وقد دفعت الحكومة للشركات أجراً نقل بريدها سنة ١٩٢٥م، ١٢٠ مليون دولار.

وكانت القوى الكهربائية المستعملة في بلادها للإنارة وغيرها في سنة ١٩٢٥م، ٢٣ مليون كيلوات، ومن البخار للمصانع نحو ٣٥ مليون حصان.

وفي الولايات المتحدة أكثر من ١٦ مليون خط تليفوني، منها في مدينة نيويورك وحدها نحو مليون ومائتي ألف خط.

ويوجد بولايات الاتحاد نحو مليون ميل ونصف من الأسلام التلغرافية، ويُقدّرون ما أرسّل في سنة ٢٥ من الإشارات التلغرافية داخل الولايات بما يقرب من ٢٠٠ مليون تلغراف.

ويوجد في الولايات المتحدة غير مصلحة البريد البري التي مَرَّ ذِكرها مصلحة للبريد الجوي بين نيويورك وسان فرنسيسكو، ومسافة ما بينهما في الخط الجوي ٢٦٦٥ ميلًا، يقطعها الطيار في ٣٠ ساعة، وينزل في أثناء سفره إلى ١٥ محطة لتسلیم واستلام بريدها، والذين يشتركون في هذا البريد أكثر من ٤٠ مليون نفس، والموزعون لهذا البريد نحو خمسين ألف نفس في القرى التي يجب أن تكون أرضها مرصوفة، وموضع على كل بيت نمرته،

أما العِزَب فلها على الطريق العمومي الموصى إليها صناديق مستطيلة «طولها ٤٠ سنتيمتر في عرض وارتفاع ٢٥ سنتيمتر» ومكتوب على الصناديق اسم أصحابها.

وأهم شيء عاد بعد السكك الحديدية بالنفع على بلاد الاتحاد هو الأوتوموبيل، وهو في هذه البلاد الواسعة الأطراف في منفعته كالجمل في صحاري بلاد العرب، ولقد كان فيها إلى أوائل سنة ٢٦ أكثر من عشرين مليون أوتوموبيل، في حين أن أوروبا كلها لم يكن بها أكثر من ٢٧٠٠٠٠ «أوتوموبيل»، ومن هذا نعلم أن الولايات المتحدة فيها ٨١ في المائة من الأوتوموبيلات، والموجود منها في باقي المعمورة ١٩ في المائة فقط! وعلى هذه النسبة يكون كل ستة من سكانها لهم أوتوموبيل، وفي كاليفورنيا أوتوموبيل لكل ثلاثة أشخاص وثلث من سكانها. في حين أن فرنسا وإنجلترا لكل خمسين من السكان فيهما أوتوموبيل واحد.

ولهذا نرى أن الولايات المتحدة تستنفذ ثلاثة أربع ممحض البذنين والكاوتشو في العالم كله، وتستنفذ نحو ألف كيلو من البرتول في السنة عن كل رأس من سكانها، في حين أن فرنسا لا تستنفذ منه عن كل رأس إلا ٣٧ كيلوجراماً. وكذلك تستنفذ حكومة الاتحاد ثلثي محصول الحرير، وربع محصول السكر في العالم.

والولايات المتحدة تُتصدر مصنوعاتها إلى العالم كله، فيصيب أوروبا من الحبوب والقطن ٧٠ في المائة، وبباقي المعمورة ٣٠ في المائة، أما الآلات البخارية فإن أوروبا لا تأخذ منها سوى ٤٠ في المائة، وبباقي العالم ٦٠ في المائة، وأغلب صادراتها منها إلى كندا، وأمريكا الجنوبية، والوسطى، وأستراليا، ومع غناء أمريكا في المواد الأولية، فإنها لا تزال تحتاج إلى الكاوتشوك والحرير من الشام والصين واليابان وأمريكا الوسطى، على أنها ابتدأت في تربية دودة القرز في بلادها.

ومع أنها تستنفذ في بلادها كثير من الملابس الحريرية التي كانت تستوردها من أوروبا، فإن صناعة الحرير لم تدخل عندها إلا من نصف قرن فقط، وكانت في أول أمرها تشغله على أنواع باليد، أما الآن فعندها لنسجه فابريقات هائلة، تخرج إلى أسواق العالم أكثر مما يخرجه العالم القديم جميعه، ويُقدّرون الحرير الخام الذي يدخل إليها من أوروبا وأسيا سنويًا بأكثر من عشرين مليون جنيه! وهذا غير الحرير الصناعي الذي تُقدّر قيمته بـمليون جنيه.

وقد يضطرنا سياق الحديث عن الحرير أن نصف لك أكبر وأعظم فابريقة للحرير في الولايات المتحدة وهي «دوبلان سلك قومباني»، وهي موجودة في مدينة هازلتون بولاية بنسيلفانيا، وتَبعُد عن نيويورك بمسافة كيلومتر، هذه الفابريقة على أجمل طراز جديد، ويعمل فيها نحو خمسة عشر ألف من الجنس اللطيف، غير ما فيها من الرجال، ومع أن بناءها الخارجي كله من الطوب الأحمر ولا منافذ فيه للتهوية، فإنك تندesh عندما تدخل إليها إذا لاحظت أن التهوية في داخلها تُنظَم بالات عجيبة من شأنها أن تنزل درجة الحرارة في داخلها ١٥ درجة عن درجة الحرارة التي في خارجها! وترى في الفابريقة كثيراً من معدات الراحة، كالحمامات، وأمكنة الاستراحة، والمرافق وقت الفسحة، وغير ذلك من كماليات الحياة، ما يجعلك تندesh من أن العامل في هذه الجهات يتمتع بجميع أسباب الراحة، إن لم نقل أسباب السعادة.

أما الكاوتشوك فهو يستنفدون منه كميات كبيرة جدًا، يشترونها من أوروبا وخصوصاً أسواق إنجلترا، ولكنهم ابتدعوا في زراعته بالولايات المتحدة، وغير ذلك، فإن شركات كبيرة من ولايات الاتحاد اشتربت في إفريقيا الشرقية أراضي واسعة جدًا وبدعوا فعلًا في زراعته بها، وقربيًا ستستغنى عمًا تصرفه سنويًا من مئات الملايين من الدولارات في مشتري هذا الصنف الذي أصبح من ضرورياتها في عمل الأوتوموبيلات، التي لا يقف عند حدٍ، خصوصاً وأنها توصلت إلى عمله صناعيًا!

وقد استخرجت الولايات المتحدة من الفحم في سنة ١٩٢٤ أكثر من ٥٠٠ مليون طن، وهو ضعف ما استخرجته إنجلترا، أما الآن فنسبة ما يستخرج منه أكثر من بلاد الإنجليز بكثير، ومصانعها صنعت من الحديد المشغول «سنة ٢٥ ٤٠ مليون طن، أي أكثر مما صنعته أوروبا كلها في هذه السنة.

والولايات المتحدة تهتم الآن كثيراً بالزراعة، وهي أكبر مملكة في العالم تزرع البطاطس، وقد بلغ محصوله في هذه السنة ٢٥ مليون طن، وهي تزرع الحبوب وخصوصاً القمح والذرة، وتُصدّر من الدقيق كميات هائلة، وأرض كاليفورنيا أعظم بلاد زراعية في العالم، يزرعون فيها السهل والوعر، ويزرعون الجبال ووديانها ومعارجها وميولها وسطوحها، وذلك بواسطة ما ابتدعوه من الخزانات التي يحفظون بها الماء لمدة الصيف الشديد الحرارة، وفيها من أشجار الفاكهة شيءٌ كثير لا يمكن أن تراه مجموعاً في غيرها، وقد تُصدّر في سنة ٢٦ من حوض الباسفيك (أعني من ولايات كاليفورنيا، وواشنطن، وأريغون) من الفواكه فقط ما قيمته ٧٥ مليون دولار، منها ٤٠ مليوناً من التفاح وحده.

والولايات المتحدة تهتم بزراعة القطن في ولاياتها الجنوبية اهتماماً كبيراً، وولاية التكساس وحدها تجني من القطن أكثر من ثلاثة أرباع محصول العالم كله! وبولايات الاتحاد مغازل ومناسج للقطن، وقد كان عندهم من المغازل في سنة ١٩٢٥م، ٤ ملايين مغزل إلا ربعاً، ولا بد أن تكون الآن أكثر من ذلك؛ لرقيمهم المستمر في الصناعة، بل وفي الزراعة، وعلى كل حال فهي ثاني مملكة في صناعة القطن في العالم. وقد بلغت صادراتها في سنة ١٩٢٤م أربعة بليون ونصف من الدولارات وبلغت وارداتها ما يزيد عن ثلاثة بليون ونصف، إلا أن صادراتها أخذت تقلُّ بعد روعة الحرب، وبعد أن أخذت الأعمال مجرها في أوروبا، ومن هنا أخذ بعض الأوروبيين يبني قصور الكارثة الاقتصادية المستقبلة في أمريكا إذا استمر نقص الصادرات فيها سنة عن سنة، خصوصاً مع زيادة أجراة اليد العاملة فيها، والله أعلم بالمستقبل.

ولقد كانت إنجلترا في وقت من الأوقات تحسب حياة الولايات المتحدة التجارية في يدها؛ حيث كانت تحمل أغلب صادراتها ووارداتها على مراكبها، أما وقد نشطت الولايات في عمل أسطولها التجاري بما أصبحت معه تنقل أغلب بضائعها على مراكبها، بل ولم تقف عند حد تكوين أسطولها التجاري، بل أخذت تزيد بكثرة في أساطيلهم الحربية، فقد بدأت إنجلترا توجس منها خيفة؛ لأن أسطولها، وإن كان لم يصل بعد إلى قوة الأسطول الإنجليزي، ولكنه بصفته جديداً لا ينقص عنه كثيراً في مجموع قوته.

ولا شك أن المهاجرين من اليهود ساعدوا كثيراً في الولايات المتحدة على حالتها الاقتصادية من الجهة التجارية؛ لأنهم وعددهم فيها أكثر من ثلاثة ملايين – منهم نصفهم في مدينة نيويورك – يشتغل بالتجارة، وقد أمكنهم بما في دمهم من السياسة الاقتصادية أن يتلاطفوا حتى دخلوا في سواد الأميركيان! فتسنموا بأسمائهم واحتفلوا بأعيادهم، وصاروا في كل ما يتعلق بالأميريكان الأميركيين أكثر من الأميركيان! بل واندمج أغلبهم في الأميركيين بحيث لا يظهر عليهم أي فارق ديني أو جنسي فيما بينهم، وأغلب اليهود من المهاجرين الروسيين، والآسيويين منهم قليلون، وأبناء هؤلاء الآن وقد جاهدوا في التحصيل في مدارسهم أكثر من أبناء الأميركيان، فقد أصبحوا من العاملين في التجارات المختلفة، يرودون بلاد الشرق والغرب في ترويج تجارتهم، وكان لهم من نشاطهم خيراً معيناً للحصول على الثروة الواسعة التي إن حرمتهم من محبة الأميركيان، فقد جعلتهم جديرين باحترامهم وتقديرهم.

ولقد كان استمرار الزيادة في حالة الولايات المتحدة الاقتصادية من سنة ١٩١٤ م إلى سنة ١٩٢٤ م بحالة تفوق الوصف، حتى إنك لو عثرت على ميزانياتها في سنة واحدة تجدها مختلفة اختلافاً كبيراً في أعدادها؛ لاختلاف الأوقات التي حُرِّرت فيها.

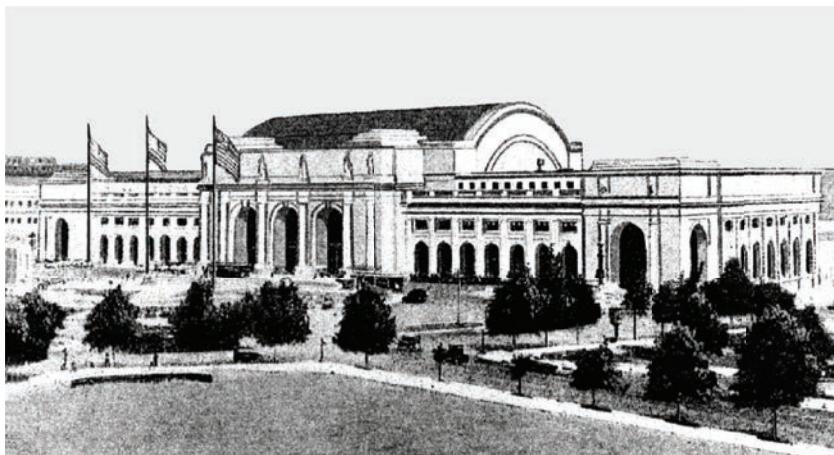
هذا من جهة الحالة الاقتصادية العامة، أما من جهة مالية الدولة فهي في يد أشخاص ماليين بالمعنى الصحيح، يقضون كل زمنهم في الاشتغال بما يزيد في الدائرة المالية من طريق لا يُؤثِّر على مصلحة الأهالي، ويكتفي أن أقول لك: إن وزير المالية الحالي هو مستر أندربو ميلن وهو ثالث مالي في الولايات المتحدة وتقدير ثروته بمائة مليون جنيه! وما انتُخب لإدارة مالية الدولة، عَيْن لإدارة أملاكه سبعة من كبار الماليين! حتى يتفرغ هو عن عمله الخاص تماماً، إلى عمله العام، وبمثيل هذه الموهاب، وبمثيل هذه التضحية، تسير الأمم في طريق رُقيّها، أما إذا وضع الشيء في يد غير أهله فهذا مما ينذر بسوء العاقبة.

وبالجملة فالولايات المتحدة قد أصبحت أكبر دول العالم من الوجهة الاقتصادية، وقد وصل تفوقها الاقتصادي حتى إلى العمال الذين وُجِّد لهم في صناديق التوفير سنة ١٩٢٥ م أكثر من ٢٢ مليون دولار!

وهنا لا يفوتنا أن نقول: إن وحدة النقود في إنجلترا هي الشلن، وفي فرنسا هي الفرنك، وفي مصر هي القرش، وفي الولايات المتحدة الريال، وتراه هنا إما من الفضة وهو قليل، والغالب منه بنك نوت عليه رسم واشنطن، وعندهم ورق من ذات الخمسة ريالات عليه رسم لنكولن، وورق من ذات العشرة أو أكثر عليه صورة أحد رؤساء الاتحاد الذين نَهَضَ بهم البلاد، وينقسم الريال عندهم إلى مائة جزء، أصغرها يقال له سنس، وهو من البرونز، أما نصف الريال ورُبعه فمن الفضة، وما كان أقل من ذلك فمن النikel؛ لذلك ترى تعبيراتهم المالية التجارية كلها بالريال، وليس للجنيه ذِكر في معاملاتهم وإن كان للذهب منه وجود قليل فيها، ولارتفاع وحدة النقود في أمريكا نرى ارتفاع أثمان الأشياء فيها بنسبة تفوق أثمانها كثيراً في المالك الأخرى، والمعيشة فيها غالبة بصفة عامة في كل مراقب الحياة.

بعد أن انتهت جلسات المؤتمر، دعت الحكومة الأمريكية أعضاء المؤتمر إلى دورة في ولايتها الوسطى والشمالية، وقد كنا اشتراكنا في مصاريف هذه السياحة الرسمية من قبل بواسطة مستر هوبسن، ومقدار هذه الدورة في السكة الحديدية فقط ١٦ ألف كيلومتر تقريباً، قطعناها في ثلاثين يوماً، كما فيها نبيت في عربات القطار الذي كان يسيراً لنا ليلاً،

وفي النهار كنا نركب الأوتوموبيلات التي كانت تجهزها لنا الغرفات التجارية بمساعدة حكومتها طبعاً، وهي في الغالب لبعض التجار أو الأعيان يسوقونها بأنفسهم إلى الجهات التي كانت تريد إطلاعنا عليها، سواء كان فيما يتعلق بدراسة التربة في عموم الولايات التي مررنا بها، أو في مشاهدة المزارع، أو العزب لرؤية حيواناتها وأنظمتها، أو لزيارة بعض ما فيها من المعامل والمصانع المهمة، وإذا فرضنا أن متوسط ركوبنا في الأوتوموبيلات كان ٤ ساعات في اليوم، وأننا كنا نسير بسرعة ٥٠ كيلومترًا في الساعة، كان ما قطعناه بها في هذه المدة ستة آلاف كيلومتر.



محطة السكة الحديد بواشنطن.

وهنا أذكر لك يومياتي التي كنت أحيرها بفراشي بعربة السكة الحديد، كنت أحيرها في وقت كنت به في أقصى ما يكون من التعب، في الوقت الذي كان ضروريًّا لراحتي بعد ما كابدناه من مشقة النهار، ومع حركات العربات المضطربة، وما إليها من ازعاجات تکاد لا تنتهي، حتى لا يضيع مني شيءٌ مما شاهدته في يومي، وقد كنت في ذلك كله مدفوعاً بحب إشراك قومي معى فيما رأيت وما شاهدت، مما أرجو أن يكون فيه بعض الفائدة.

(٣٥) يوم ٢٢ يونيو سنة ١٩٢٧ م

ركبنا قطار السكة الحديدية من محطة واشنطن العمومية وهي من أكبر محطات العالم، وماذا عساي أن أصف إليك، بناءً من أوسع البناءات وأعلاها ارتفاعاً وأبعدتها جمالاً، وأجمعها للنظام والنظافة وحسن الرواء، يدخل الإنسان من بهوها العظيم إلى مشاة هائلة، في نهايتها حاجز يفصلها عن أرصفة القطارات التي تقاد تتصل بها، وقدرها اثنان وثلاثون رصيفاً، كل واحد لسكتين؟! ومن هذا تعرف أن هذه المحطة يمكن أن يكون بها في آن واحد أربعة وستون قطاراً لوجهات مختلفة، وفي المحطة محلات للزينة وللأكل وللاستحمام مما تدعوا إليه راحة المسافر.

وكانت جميع عربات قطارنا من صنف بولن، وقد استحالت مقاعدها إلى أسرّة واسعةٍ ربما كانت تُسرُّ نظرنا لأول وهلة، لولا أن شدة حركات العربات تقاد تتنزع النقوس من مكامنها، استولى كلٌ على سريره الذي خُصص له، وحركة الأيدي بالمناشف لا تنتفع عن الوجه؛ لكثرة ما كان يتسبب منها من العرق، ولما سار القطار ابتدأ التiarات الهوائية تُلطف من لهيب العربات، وسار بنا في أرض فرجينيا طول ليته، وفي الصباح الأول أخذنا ننظر من منفذ القطار إلى تلك المناظر الباهرة الناضرة التي كانت تلوح هنا وهناك على أرض غير مستوية، وقد قامت عليها تلك الغابات الصنوبرية التي تتخللها مزارع القمح الذي لا زال على أرضه محموماً محزوماً.

و قبل أن نصل إلى محطة «دام فيل» مررنا على ترعة لون مياهها أحمر قاتم قد ذَكَرْني بنيلنا المبارك في فيضانه، ذَكَرْنا بهذا الذي هو حياة وطننا العزيز، فكان صباحنا به خيرٌ من أميسنا، وكانت مساكن المدينة كلها من الخشب ومن ذات الطبقتين؛ مساكن صغيرة ولكن يلوح لنا أنها نظيفة؛ لأن الطرق العمومية هنا معبدة، ولكنها مرصوفة ومظلية بالقار، بل مصقوله كالمرآءة، ومما يلاحظ أن المساكن هنا متألفة مما يدل على أن الحر شديد في وقته.

(٣٦) يوم ٢٣ يونيو

وفي صباح يوم ٢٣ يونيو وصلنا إلى محطة جرينسبورد بعد أن قطعنا إليها ميلاً ونصفاً، فوجدنا في انتظارنا الأوتوموبيلات التي أفلتنا إلى دورة في هذه المنطقة

لنشاهد تُربتها المختلفة وما فيها من النباتات المغایرة، سرنا في أرض صفراء تكثر فيها الصوب لتربيّة النباتات في غير أوانها، أو في غير منطقتها، وقد تكثر هنا أشجار من الفصيلة البقسية، وأشجار البلوط، كما تكثر مزارع الدخان والذرة، وقد ترى بعض أشجار الفاكهة بجوار البيوت الخلوية خصوصاً في الأرض الحمراء، ومنها الخوخ والكراز والكمثرى والتفاح، ويقولون: إن أصل هذه التربة صخرية بركانية.

وبعد أربعين دقيقة وصلنا إلى أرض حمراء في لون المغرة، والماء الذي يجري فيها أحمر قان! وتتنمو الأشجار في هذه التربة نمواً عظيماً، وخصوصاً أشجار الغابات، وبعد قليل وصلنا إلى تربة صفراء هي الطفلية بعينها، والماء الذي يجري فيها أصفر كأنه ملوّن بمادة هذا اللون! ولقد كان كلُّ من المؤتمرين يبحث في النباتات التي تنمو فيها، وهذا شيءٌ جميل في ذاته، ولكن الأجمل منه أن السيدات اللواتي كُنْ في عداد المؤتمر كُنْ يبحثن في النباتات تارة، وفي معدن الأرض أخرى، ويأخذن منها إلى حقائب في أيديهن، وغالب تلكم السيدات من الألمانيات اللواتي يمتازن عن غيرهن من الجنس اللطيف بالبحث، والتنقيب، بالعلم، بالفن، بالإقدام، بالشجاعة، باحتمال كل شيء في سبيل المصلحة الخاصة أو العامة.



لوكندة فرجينا على الأطلسي بنيوجرسي.

إن عندنا الآن شيئاً كثيراً من تعليم البناء ولكن كله نظري ليس فيه من كبير فائدة، اللهم إلا تلك المدارس التي يُسمونها مدارس تدبير، وبروغرامها ناقص من الجهة العلمية، وعسى أن تعنى وزارة المعارف الجليلة بإدخال بعض العمليات الكيماوية أو الطبيعية على بروغرامهن لتكميل به الفائدة.

وليست هذه الأرض بالصالحة للزراعة في عمومها؛ فإنك تجد هنا وهناك أرضاً ليست بمزروعة، وإن كان بعضها منزرعاً فزراعتها غير جيدة، إذن فلا شيء كل هذا التعب؟ لأي شيء تلك المصاريف التي تنفقها هذه البلاد في نقل المؤتمرين وعنايتها بهم في زيارتهم لتلك الأصقاع؟ ذلك بطبيعة الحال لأمر واحد؛ هو دراستها لمعدن أرضها، وبحثها عما يجب له من الدواء، فإن لم تتعذر عليه هي برجالها فقد تصل إليه على يد أحد المؤتمرين. وبالجملة فالشيء الذي يهمني لا وجود له هنا وهو القطن، لذلك أرى أن الفائدة من دورتي هذا اليوم إنما من جهتها الاجتماعية، وأرجو أن يسمح لي حضرات القراء بأن أقصى عليهم ما رأيته هنا. رأيت مدرسة في وسط الحقول من المدارس الأولية، وقد بلغني أن رجلاً من أهل هذه الجهة قد أربعين مليون ريال إلى المدرسة على شرط أن تسمى باسمه! فلم يقبل القائمون بأمر المدرسة هذا الشرط لأول وهلة! وهم الآن «وقت ما كان هناك» يتشارون فيما بينهم في قبول الشرط أو عدم قبول الهبة! ذكرتني هذه الحادثة بهبة روكلر لمصر على شرطه، ويظهر أن حكومتنا هي الأخرى ما زالت تفكر في قبول الشرط أو رفض الهبة «وانتهي أمرها بأن رفضتها تماماً».

ومدينة جرينسبورو تعدادها ٤٣٥٢٥ نفساً، وهي من ولاية كارولينا الشمالية التي مساحتها ١٢٥٥٦٠ كيلومتراً مربعاً، وفيها أنهار كبيرة أعظمها نهر روانوك ونهر نور، ومن محاصيلها الدخان والقطن والأرز، ومن معادنها الزنك والرصاص.

وفي المساء عدنا إلى قطارنا فسار بنا في أرض هذه الولاية، فوصلنا في الصباح إلى مدينة كنوكسفيل.

(٣٧) يوم ٢٤ يونيو

وصلنا في صباح هذا اليوم إلى مدينة كنوكسفيل عاصمة ولاية «تنسي» بعد أن قطعنا إليها ٣٢٠ ميلاً، وقُبيل وصولنا إلى هذه المدينة كنا نسير في وادٍ جميل يخترقه فرع من نهر المسيسيبي قامت على جانبيه غابات جميلة ذكرتني بمناظر سويسرا، لولا ما كنا فيه من حرٌ يكاد لا يطاق، وكانت مزارع الذرة تتناثر هنا وهناك في بعض الأراضي المستوية من

هذا الوادي، ولم نعثر فيه على مزرعة للقطن، ولكنهم يقولون: إنهم بدءوا هنا في تجربته (يا حفيظ!).

وبالجملة فقوة الإنبات قوية في هذا الوادي، وإن كانت تتخلله بعض قطع ضعيفة ليست في الجودة مثل التي في جوارها، ولكن الحكومة والشركات والنقابات الزراعية يهتمون جميعاً بكل ضعيف، ويتقدون إلى أصحابه بكل جديد من التجارب لإصلاحه، ولا بد للجاهل من مرشد، ولا بد للضعف من طبيب يداوي علّه، وإلا فالضعف إن أهمل لا بد وأن ينشأ عنه ضعيف آخر، والعلة ينشأ عنها علة أو علل أخرى بما لا يكون في الإمكان مداواته بتلك السهولة كما لو كان في أول أمره، خصوصاً لو اتسعت دائرة بحكم العدوى.

تلك الكلمة نقولها بكل إخلاص لوزارة زراعتنا، نقولها لعمالها الفنيين الذين يقتصرُون مهمتهم في الأرياف على المسائل الإدارية من غير ما عمِل فيما تنطوي به الزراعة في نفسها، أو المزارع في شخصه، ومن دواعي الأسف أن نجد الموظف الفني عندنا، سواء كان مهندساً، أو طبيباً، أو زراعياً، لا يريد إلا أن يكون حاكماً! لا يريد إلا أن تكون العلاقة بينه وبين الأهالي علاقة الحاكم بالمحكوم، لا علاقة المرشد بمن هو في حاجة إلى إرشاده: وهي أسمى العلاقات وأكبرها نفعاً.



على شاطئ الأطلسي في لونج بيتش بنويوركسي.

زُرْنَا مدرسة الزراعة هنا فبدأنا بزيارة معملها الكيماوي، وقد أخبرني المرحوم أباًظة بك بأنه أقل من نظيره عندنا بكثير، إلا أنها رأينا أن أنواع الأراضي عندهم وضعوها للتجربة في آنية كبيرة، وزرعوها بشيءٍ من النبات، ووضعوا في أسفلها أنبوبة سَلَطُوها على أوانٍ أخرى في قاعة من تحتها ليتعرفوا قوة صرف المياه في كل نوع من أنواع التربة، وبجوار هذا المكان مكان آخر زُرِعْتُ في آنته نباتات من فصائل متعددة، وقد سُمِّدَتْ بسمادٍ مختلف، وقد سُلْطَتْ الأنابيب التي وضعوها في أسفلها على أوانٍ أخرى أقل منها ارتفاعاً حتى يتعرفوا مقدار ما تتغذى به النباتات منها ومقدار ما ينصرف إلى المصادر.

وبعد تناولنا الطعام بالجامعة بدعة منها، ركبتُ أتوبيساتنا إلى دورة في مزارع المدينة، وهذه الولاية بصفة عامة ليس مدار حياتها على الزراعة، بل على المعادن – وأخصها الزنك والحديد والرصاص والفحمر – وقد زرنا مصنعاً للجليس الجيري الذي يأتون به من منجم الزنك إلى المصنع بواسطة عربات تسير من معدهما في الجبل معلقة في الهواء على حبل من الحديد ممدود إلى المصنع! وبعد هرسه يضعونه في مغاسل ويصبون عليه جانباً من الزيت، فيغسلون الزنك عليه لأنه أخف منه فيأخذونه إلى تجهيزه في جانب آخر من المصنع، ثم يأخذون الجير فِيمُرُونه على أسطوانات محمية حتى يجف، ثم يطحن ثم يعبى في غرارات يرسلون بها إلى الأسواق لبيع سماداً لنباتات مختلفة.

وكان معنا سوّاق لأتوبيساتنا كلما سألنا عن المسافات التي بيننا وبين جهاتٍ مختلفة أخبرنا بأميالها تماماً، وهي عندهم قاعدة لا يجهلها أحد من الناس حتى النساء والأطفال، وهنا تذكرت «فركة الكعب» عندنا وما تجره على المسافر من الويلات لبعد ما كان يظنه من طريقه قريباً على قاب قوسين أو أدنى.

وفي دورتنا هذه مررتنا في هذه الولاية على بناء عظيم مقسم إلى جملة أقسام هو مستشفى للمجازيب، وفيه ألفاً نفس من هؤلاء الذين حُكِمَ عليهم بسلب أنفس شيء في الإنسان وهو العقل! وكانت نفوسنا عندما سمعنا اسم المجازيب كادت تفيض رحمة وخشية! كادت تفيض رحمة بهؤلاء البوسءاء، وخشيةً مما عساهم يتناً إذا عثروا بواحدٍ منهم يكون قد تسرب من الدائرة التي حجزوه فيها، ولكنكم كانت دهشتنا عظيمة عندما دخلنا إلى فناء متسع تظلله الأشجار، وتحف به الأزهار وقد جلس من تحت ظلاله الوارفة بضع مئات من هؤلاء التعساء في ملابسهم الزرقاء النظيفة، هذا ساكن في قراره، وذلك يتكلم مع جاره، وأخر يلعب بكرته، وغيره متمدد على العشب الأخضر، ومن حول

الجميع آنسات يُدخلن في السرور بمرأهن اللطيف على كل من وَقَعَ بصره عليهن، تلكم هن خادمات ذلك النفر من بنى الإنسان الذي أتى بهم الحظ القاسي إلى هذا المكان! ولقد زرنا معدن الرخام في دورتنا هذه، ورأينا كيف يقطعنوه من مجده بواسطة آلات تدور بضغط الهواء، وكلما قطعوا جملة من الكتل الكبيرة (على حسب المقاسات التي يرغبونها) نقلوها إلى جهة يقطعنوها فيها ألواحاً بطول الكتلة بواسطة مناشير تعمل بالكهرباء، وقد رأيت ١٦ منشاراً تعمل مرة واحدة في كتلة واحدة! ومن المناشير ما يعمل بالماء، ومن ضمن آلات القطع آلة على شكل صينية رُكِّبَ في دائرتها شار من الماس لقطع الكتل الصلبة، ومن الآلات ما هو على شكل صينية قُطِّرها نحو ثلاثة أمتار تدور بسرعة، فإذا وضع عليها الحجر صقلته من الوجه الذي يتصل بها، وهناك آلات يرسمون بها على الرخام ما شاءوا، ويكتبون عليه ما أرادوا، أو يضعونه في أي شكل أَحَبُّوا، ويحرّك هذه الآلات جميعها آلة قوتها ٢٠٠٠ حسان، وبالجملة فكلها آلات بسيطة، وحركات غير عنيفة، وعمل كثير، وعمال قليلون يعملون في حُسْن نظام وكمال ترتيب! ويجوار هذا المكان مصنع لحرق كِسارة الرخام، فيحولها إلى جير هو أَنْقى شيء من نوعه، وأما الصرفان فيُطْحَنُ ويرسلون به إلى الأسواق الزراعية سماً للأراضي التي بها حموسة.



حمامات البحر في لونج بيتش.

وهنا خطر بيالي مصانع الجرانيت التي نقرأ عنها في التاريخ القديم ببلادنا، ثم محاجر الرخام الأصفر (الأباستر) التي يتصل تاريخها بتاريخ مسجد الرفاعي، وكانت أبواب محاجرها مفتوحة ما دام خليل أغا كان يعمل فيها لتشييد هذا المسجد بأمر والده الخديو إسماعيل؛ لتفاضل به مسجد السلطان حسن الذي في قبالتة.

وقد بلغنا أخيراً أن البابا أرسل إلى مصر بعض الطليان لدراسة هذه المحاجر رغمًا مما عنده من محاجر كراره «في ليفورنو في جنوب جنوه» المشهورة بجودتها في العالم كله! فهل حكومتنا فاتحة أبوابها للأجانب من هذه الجهة بقدر ما تسدّها في وجه الوطنيين!

زرتنا سوق الخضار بهذه المدينة فوجدنا ما فيه من النظافة طبيعياً في قومه لا صناعياً ليس له من وجود إلا مع مراقبة البوليس، والذي أعجبني في هذا المكان مراوح للتهدية في كل جهة من جهاته، وخصوصاً في دكاكين الجزارين.

وبعد دورتنا رجعنا إلى الجامعة للعشاء فيها بدعوة من الجامعة مشتركة فيها مع الغرفة التجارية، وكنا أكثر من ثلاثة نصف كلام من جلة العلماء من جميع أقطار الدنيا، ومع أن العشاء كان بسيطاً في نوعه فقد كان لخدمة طالبات الجامعة على الموائد المختلفة ما كان يفيض عليها جمالاً ويجعل كل شيء من أيديهن حلواً، فيا الله ما أجملهن في صورهن! وما أجملهن في بساطتهن! وما أجملهن في ملبسهن! وما أجملهن في خفتهم! وما أجملهن في عملهن! وما أجملهن في كمالهن! وما أجملهن في جميع حركاتهن! حتى لكان كل واحدة منهن تعمل بحركات ميكانيكية لا عيب فيها غير ما فيها من نظام وأحكام، في هيكل جمعت بين وداعٍ وجمالٍ، وأدبٍ وكمالٍ، وعند اصرافنا من هذا المكان وقفنا ببابه على هيئة نصف دائرة خلناها نزلت من منطقة البروج، ووقفت على محيطها ملائكة الله يحيين ضيوفاً للبلاد جمعوا بين العلم والعمل، ورجلاً هم زهرة العالم ونصرته وفخره وشرفه.

وبعد العشاء قصدنا قطارنا الذي وصل بنا صباحاً إلى مدينة أطلانتا. وصلنا إلى مدينة أطلانتا يوم ٢٥ يونيو بعد أن قطعنا إليها ٢٢٣ ميلاً، وهي عاصمة ولاية جورجيا، وعدد أهلها ٢٠١ ألف نفس، فنزلنا إلى محطة للإفطار، وكم كانت دهشتي عظيمة عندما رأيت على باب استراحة فخمة بها «استراحة البيض»، ثم على استراحة بسيطة في مقابلتها «استراحة للألوان» (يريدون السود والصفر والحرم)، وبعد ذلك رأيت قطاراً به عربتان واحدة خاصة بالسود والأخرى فيها بضعة أشخاص من البيض.

وكان يُقْرُب منا إلى الشرق على الأقيانوس مدينة «شارلستون» التي ذاع اسمها في كل جهات العالم من سنواتٍ قليلة؛ لا من حيث علاقتها بالمدنية الصحيحة، ولكن لذلك الأثر الذي أحدثته في العالم المتمدن، وهو الرقص الذي يتصل فيه الراقص بالراقصة وتتحدى فيه حركاتهما لفّا ونشرّا، وذهاباً وجائعاً! وهزاً ولزاً وارتعاشاً واضطرباً، وابتعاداً واقتراضاً (وهو غير الرقص الإفرنكي الذي تتضامن فيه الصدور، وتنتعاش الخصور، وتتدخل الأرجل فيما بينها من ذلك الفراغ الذي جعلته الطبيعة حرّاً محترماً غير مباح إلا لمن يملكه!) وقد أطرب الجميع تلك الموسيقى الجديدة التي بنغماتها المزعجة، ونباراتها المهيجة، تستهوي العقول وتستلب الألباب وتؤثّر على نفوس الراقصين والراقصات بما تؤثّر به «الكودية» بطبولها على أعصاب المتروعين والمصروعات، هذا الرقص وهذه الموسيقى هما مأخوذان عن عبيد شارلستون ومع ما لهم في المدنية الأوروبيّة والأمريكيّة من ذلك الأثر الكبير، لم يَجِنْ منها السود أية فائدة تُصلح من حبوبهم في الوسط الأمريكي.

وطبيعة الأرض في هاته الجهة بوجّه عام رملية ذات لون أحمر داكن أو فاتح أو أصفر أو أبيض فاتح، وذلك على حسب ما فيها من العناصر المختلفة التي يغلب عليها الحديد، وبعد دورة في المدينة ركبنا القطار إلى مدينة أثينا (من ولاية جورجيا)، فوجدنا على محطتها عميد كليتها ومُدرّسيها، فركب كلُّ واحدٍ منهم مع جماعة من المؤمرين في أوتوموبيل وَقَصَدْنَا الجامعة، ودخلنا قاعة بها بضعة صناديق للترفة المختلفة، ووجدنا على الأرض خريطةً من الجبس للمقاطعة فيها بروزات وانخفاضات تُبيّن حالة البلاد الطبيعية، مبين فيها بالألوان المتغيرة أنواع التربة المختلفة، وعلى كلّ قسم منها يافطة بنوع النبات الذي ينمو فيها، وفي هذه القاعة لوحة لبعض النباتات، وفيها لوحة مرسوم بها شجرتان من القطن بحالتيهما الطبيعية، واحدة فيها عشرون لوزة منها تسعة عشرة مفتحة، وواحدة غير مفتحة، وواحدة فيها عشر لوزات خمس مفتحة وخمس غير مفتحة، ولوراتها أصغر من لوزات الأولى؛ وسبب ذلك اختلاف قوة الأرض التي زرعت فيها الشجرتان.

وضمن هذه المزارع وَجَدْنَا مزرعة للبامية ويسموها «أوكرة» (كما يسميها العوام عندنا مبرومة)، وزرنا أيضاً عدة مزارع منها مزرعة قطن، وهو في هذا الوقت ارتفاعه نحو أربعين سنتي، وقد أخذ في التزهير، بل في انعقاد بعض لوزاته، وقد يصاد القطن هنا في هذا الوقت في لوزاته من دودة خاصة غير الدودة التي تصيبه عندنا، وهم يستعملون لها آلات رشاشة فيها كarbonات الكالسيوم، ويقولون إن الفدان في تجاربهم يأتي بثلث بالة من القطن، والبالة خمسمائة رطل شعر، ومن هنا تَعْرُف أن الفدان يأتي في تجاربهم بقطارين



منظر آخر لحمامات البحر في بيش.

إلا ثُلث شعراً، وهو ما يقرب من أربعة قناطير وثلث بيذره، وهذا الاعتبار لا يتمشى على عموم الأرضي، خصوصاً إذا كانت واسعة، فقد لا يبلغ القطن فيها نصف هذا القدر.

ويسبخون القطن في تجاربهم بمخلوط من نترات الصودا، ونترات البوتاسي وسبر فوسفات، وليست عندهم دودة للورق، وقد تنضح اللوزات في آن واحد كلها أو جلها، فإذا جَنَّوها بأيديهم — كما هو الحال عندنا — بدعوا في قطع الخشب من غير أية صعوبة؛ لأنَّه هش فيه صلابةً ما عندنا منه حتى في الأشموني.

وقد رأيت في معرضهم شجرة قطن فيها أكثر من ثلاثين لوزة كلها مفتوحة، فاستأذنتُ وأخذت منها لوزة لمعرفة حال تيلتها وطولها، فوجدتها خشنة ونوعها أقل من الصعيدي عندنا، وتيلتها لا تزيد عن سنتي ونصف.

وبجوار بناء الجامعة وجدنا بناءً فخماً هو نادي مُدرِّسي الجامعة، أقيم تذكاراً لمن قضى نحبه من مدرسيها في ساحة الحروب الأوروبية.

ولقد شاهدنا شيئاً جديراً بالذكر، وهو أن أبواب الجامعة في الصيف كانت مفتوحة، وقد لجأ إلى أبنيتها المختلفة المتبااعدة عن بعضها البعض معلماتٌ ومعلمون المدارس الأولية؛ ليقيموا بها مدة الصيف في حضور الدروس الصيفية، ولهم معلمون خصوصيون يدرّسون

لهم ما يزيد في معارفهم في نظير مصاريف تافهة لا تتجاوز بضعة ريالات في الشهر، والجنسان منفصلان عن بعضهما البعض في النوم، لكل دارٌ خاصة به، وقد يجتمعان في حضور الدروس كلها أو بعضها.

وهنا لا أدرى إذا كنت ألفت نظر وزارة معارفنا في فتح أبواب مدارس المديريات في الصيف لمُدّرسي المدارس الأولية حتى يزيدوا في معارفهم بدوروس هم في حاجة شديدة إليها؟

تركنا مدينة أثينا وسار القطار عائداً إلى أطلانتا فوصلها في السابعة مساءً، وهناك رأينا الأتوبيسات تنتظرنا مع بعض أعضاء النادي التجاري، فساروا بنا إلى النادي مباشرة، وكان معنا بعض مندوبي وزارة الزراعة، وقد رتبوا أمراً علينا على الاستحمام به؛ حيث كان لنا بضعة أيام ونحن في دورتنا من غير استحمام، وبمجرد دخولنا الحمام قرأت في جوه شيئاً من دروس الفلسفة العالية؟ رجعنا بها إلى فلسفات كثيرة؛ منها ما هو خاص بأصل الإنسان حين كان يسكن الكهوف والأدغال! ومنها ما يدور حول الحلقة المفقودة التي تصل الإنسان بالحيوان؟ وقد كنا في هذا الوسط إلى التمثيل العملي بحيث إذا عَفَ البصر عن النظر إلى جاره وقد تجرد عن كل شيء إلا عن جلده وقع على عشرات غيره تحت سماء هذا المكان بحالتهم الطبيعية! وكانت أقل الفلسفات بحثاً في هذا الوسط أن الغاية تبرر الواسطة، ومن أعلاها تلك التي فيما وراء الديمقراطيات، في أن الإنسان لا يمتاز عن الحيوان في بلاد فصلَتْ الأوتوقراطيةُ فيها بين الإنسان وأخيه الإنسان!

وبعد ذلك قصدنا محطة السكة الحديدية وركبنا قطارنا الذي سار بنا إلى منفيسي وقد قطع ولاية ألاباما، وولاية مسيسيبي من الشرق إلى الغرب، ومررتنا في أثناء سيرنا في منتصف الليل على مدينة برمنجهام وهي في ولاية ألاباما.

(٣٨) يوم ٢٦ يونيو

وصلنا في ضحى هذا اليوم إلى مدينة منفيسي، وهي مدينة عظيمة في الجنوب الغربي لولاية تنسى، وعدد سكان هذه المدينة ١٦٣ ألف نفس، والمسافة إليها ١٩٦ ميلاً، ونهر المسيسيبي يمر بهذه المدينة، وهناك شاهدنا ما بلغ من أمر فيضانه بما تَخلَّفَ عنه من الجزر. وفي الساعة الرابعة بعد الظهر ركبنا قطارنا فسار في أرض مسطحة والزراعة فيها منتظمة، تراها وقد غرفت قد أعادوا زراعتها والقطن فيها على ارتفاع ١٥ سنتيمتراً مما



إحدى حدائق لونج بيتش.

لا يبشر بمحصول له قيمة، وكما تكثر المزارع في هذا الإقليم تكثر فيه الغابات، وبهذه المناسبة أرى أن الغابات مزرعة الضعف قليل الأمل القريب، مزرعة من لم يكن عنده كثير من الأيدي العاملة، وفي الساعة الخامسة بعد الظهر كانقطار يسير في أرض ولاية أركنساس، وكانت مياه المسيسيبي تعلو جميع الأراضي من على يميننا وشمالنا على مسافات بعيدة لا يصل البصر إلى مداها، وعليه فجميع الغابات والأراضي الزراعية هنا يعلوها الماء بمقادير مختلفة، وقد تلتفت مزروعات كثيرة في هذه المنطقة ولا يدرى إلا الله متى ينصرف الماء الذي عليها.

والذى يهم البلاد التي تزرع الجيد من القطن أنه قليل هنا في هذا العالم، وكنا في سيرنا كلما وجدنا أرضاً قد انحسر عنها الماء، لم نعد أرضاً يعلوها الماء إلى حد لا نعلم، وعلى كل حالٍ فهذه الأراضي قد اكتسبت كلها من الطمي ما يعوضها ما فاتها في هذه السنة من وفرة الزرع في قابل. فليعمل على حسابه العاملون.

ونهر المسيسيبي أكبر أنهار الدنيا بعد الأمازون وطوله 7300 كيلومتر، ويقطع الولايات المتحدة في وسطها من شمالها إلى جنوبها حتى يصب في خليج المكسيك، ومتوسط تصريفه 18 ألف متر مكعب في الثانية الواحدة، وله فروع كثيرة تخرج منه وتتجه إلى الشرق والغرب، كما له فروع كبيرة تصب فيه، أعظمها نهر مسوري. وما زلنا حتى وصلنا في الصباح إلى محطة هوبرج، بعد أن قطعنا إليها 361 ميلاً.

(٣٩) يوم ٢٧ يونيو

وصلنا في صباح هذا اليوم إلى مدينة هوبرج، ومنها إلى مدينة قرطاجة، والمسافة بينهما ٢٩ ميلًا، وعدد سكان الأخيرة ٩ ألف نفس، وفي الساعة ٨ صباحاً ركبنا الأتوبيسات لزيارة بعض المزارع على بعد ٣٠ كيلومتراً كلها في ولاية ميسوري، وهذه الولاية لا يزورون فيها القطن؛ لأنها تُشَرِّبُ على المطر وهو قليل فيها صيفاً، وزراعتها بصفة عامة الغلالُ وبعض الخضر والفاكهة، والأراضي فيها يساوي فداناً من عشرة جنيهات إلى عشرين، واليد العاملة فيها قليلة؛ لذلك لم يعنوا بنظام الطرق بها إلا من خمس سنوات فقط، وهي معبدة وليس بمرصوفة ولا مقيرة، وفي هذه الولاية معدن الرصاص والزنك والبترول، والزراعة فيها ليست على ما يجب، مع أن أرضها أكثر جودة من بعض ما شاهدناه في غيرها، وقد كان معنا شاب هو أكبر سرة هذه الجهة، أخبرنا أن عندهم ٧٠٠ فدان و٥٠ بقرة فيها ثلاثة عائلات، فسألته عما يلزم للمائة فدان من الرجال لزرعها؟ فقال: «ثلاثة رجال» لأن عملية الزراعة كلها الآلات، والأراضي واسعة وضامنة للكسب غير قليل، ومن الأمور الحيوية في هذه الجهة الشركة بكل معناها بين الزراع وصاحب الأرض، فأثنان الآلات مناصفة، والملاشى مناصفة، وغذاء الماشي مناصفة، والسباخ والبذور مناصفة، والمحصول مناصفة، ومع هذا فالأرض تعطي لصاحبها ستة في المائة من ثمنها سنويًا.

وقد سألناه عن كيفية الحكم في هذه الجهات فقال: «إن لكل ٢٥ ألف نفس قاضٍ للحكم في شؤونهم، ومُرتبٌه ٥ آلاف دولار في السنة»، ومن أحسن ما شاهدناه في هذه الجهة.

(٤٠) آلة الحليب

وهي آلة بقوة حصان واحد تدور بالغاز، وتخرج منها ماسورتان قطر الواحدة نصف بوصة، تسيران في طول مداد البقر على ارتفاع نحو متراً ونصف، وفيها على يسار كل بقرة حنفيتان، وهاتان الماسورتان واحدة للمص والآخر للكبس، وهناك جهاز هو عبارة عن خزان صغير من الكاوتشوك فيه من أعلاه خرطومان يُركبان في الحنفيتين المذكورتين، وأربعة في محيطه تُركب في ضروع البقرة الأربع، وواحد في أسفلها مُسلط على الآنية المخصصة للحليب، فإذا دارت الآلة وفتحت الحنفيتان حصل المص في الضروع، فيخرج اللبن إلى الخزان، وفي آن واحد يحصل الكبس إلى الآنية حتى إذا امتلأت أُتي بغيرها.

وبعد دورتنا في بعض المزارع كنا نرى بعضها جيداً والبعض ردئاً، لا من جهة تربة الأرض، ولكن من جهة العناية بالأولى وإهمال الثانية؛ وعلة ذلك هو أن العامل مع



مدينة لونج بيتش على المحيط الأطلسي.

قلته هنا يفضل أن يعمل في المناجم وهي هنا كثيرة جدًا، وخصوصاً مناجم الزنك التي قد ترى العشرات منها في منطقة واحدة، كلها مالك واحد أو عدة ملاك. وقد تغدينا عند أحد أصحاب هذه العزب على النظام الذي مر بك شيء منه، وبعد الغداء قام الخطباء من الفلاحين يخطبون في المنفعة المتباينة بين الإنسان والإنسان، وبين الأمم وبعضها بعضاً، وبعد ذلك عدنا إلى قطارنا الذي قام بنا في الساعة السادسة إلى مدينة كانساس سيتي وهي في حدود ولاية ميسوري وكansas.

(٤١) يوم ٢٨ يونيو

وصلنا في صباح هذا اليوم إلى مدينة كانساس سيتي، والمسافة إليها ٣٢٥ ميلًا، وأول ما رأينا منها محطة، وهي في ترتيبها ونظامها وفخامتها شيء قد بلغ حده، بحيث كنت أتردد في المقابلة بينها وبين محطة واشنطن التي قلنا: إنها من أحسن محطات الدنيا، وما من كمال هنا إلا إذا سرنا نرى أكمل منه! تركنا المحطة إلى الأوتوموبيلات التي خصصتها لنا الغرفة التجارية، وسرنا قاصدين عزبة «أسني بار»، وهي من أكبر المزارع هنا، وكان البوليس الراكب يحافظ على النظام ك شأنه في كل سياحتنا، وهذه المدينة منقسمة إلى قسمين يفصلهما نهر ميسوري، الأولى ولاية في ميسوري، والثانية في

الرحلة إلى أمريكا

ولاية كانساس، وعدد الأولى ٤٠٠ ألف نفس، وعدد الثانية ٣٥٠ ألف نفس، ومحصول ولاية ميسوري من الغلال ويقدر بـ ١٠٠ مليونين ونصف من الدولارات، وأغلبه من الذرة وإيرادها من الألبان والجبن والزبدة ثلاثة ملايين دولار.

مررنا في شوارع المدينة الأولى وكانت أبنيتها على غاية من اللطف في نظامها ونظافتها، ولما خرجنا إلى المزارع وجدنا الأرض بين نجود وخروف، وهضبات ومنحدرات، كلها خضراء، فالعالى منها قامت عليه الأشجار، والمنحدرات زُرعت بالغلال، والأخياf فيها زراعة الذرة نامية نمواً عظيماً، ويظهر أن تربة الأرض هنا أشبه شيء بالطمي، وهذه المنطقة في زرعها وتربيتها خير من كثير مما شاهدناه في الولايات التي قبلها، وخصوصاً من جهة العناية فيها بالزراعة وأرضها غنية بالصودا والنتروجين والبوتاسي.



أحد أسواق مدينة بيش.

ومن أغرب الأمور هنا: أننا كلما مررنا على جهة سواe في التي زرناها أو في التي بين أيدينا، يعطوننا بيانات وافية عن تحليل الأرض في طبقاتها الأربع الأولى، مع مقدار ما فيها من الخصوبة، كما كانوا يعطوننا في الجهات التي كنا ندعى فيها للطعام عصير التفاح المتخمر، وقد أحـلوا هذا الشيء من الشراب بعد تحريم الخمر عندهم على شريطة ألا

يكون له أثر في الأسواق، وقد ذكرني ذلك بما كنت أقرؤه في كتب الأدب العربي للأغاني وألف ليلة من أن بعض الخلفاء كان يشرب نبيذ التمر أو غيره بما أحلوه لأنفسهم بعد تحرير الخمر ولو أُسْكَرْتْ كثراً.

زرتنا عزبة أنسى بار، وكلها إسطبلات من الخشب تُربَّى فيها أبقار من عترة جيدة لها عندهم شهرة كبيرة، ثم تُرسَّل إلى الأسواق فتباع بثمنٍ عالٍ جدًا، وقد ذكر لك بعض ما شاهدته بها لأقرب إلى ذهنك شيئاً منها: رأينا عجلًا من البقر زنته ١٠٥٠ رطلًا على أن عمره ١٥ شهرًا! وليس هو الوحيد في نوعه وفي جسمانه وعمره، وقد رأينا ثورًا تحاله في جسمانه فيلاً لا ينقصه غير الخرطوم، وقالوا لنا: إن عمره ثلاث سنوات! وهنا يمكنك أن تحكم على مقدار عناية القوم بتربيبة الماشية.

ثم توجهنا إلى عزبة ثانية لصاحب الأولى، وتغدينا فيها غداء خلوياً جمع بين البساطة وجمال الطبيعة، وإنني أذكره لك باختصار: لتعرف كيف يمكن لرجل أن يُعدَّ غداء لثلاثمائة شخص في بضعة ساعات من غير ما هرج ولا مرج، وب بدون كُلْفة ظاهرة: يسير مجموعنا صفًا واحدًا، وأول ما يجده الشخص سيدة من وراء مائدة عليها خزان للماء، وبجواره كوبات من الورق المضغوط، وإلى جانب منها إناء كبير للشراب الخمر، فيأخذ كل كوبته ويعرج على ما يشربه، ثم يسير إلى مائدة واسعة عليها صناديق من الورق (عشرون سنتي في نصفها في نصفها)، فيُعطى إليه صندوق منها، ويسير إلى حيث يريد أن يجلس على العشب في ظلال الأشجار المحيطة بالمكان، وهناك مكان للقهوة يذهب إليه الواحد فيتملاً كوبته قهوة أو لبنًا أو خليطاً منهما، أما الصندوق فيه «سندوتش» باللحم أو بالجبن، وفيه كوبة بها شيء من الخضار المطبوخ وورقة فيها بعض قطع من السكر لتحلية قهوته، وأخرى فيها قليل من الملح، وإلى هذا شوكة وسکينة من الورق، وفي بعض الأحيان ترى به شيئاً من الفاكهة.

وكتيرًا ما تدور علينا بعد الأكل سيدات بشيء من الجلطة؛ قل لي بربك ما في ذلك من الكلفة؟ إنه كرم لا كلفة فيه! كرم جمع بين حاجة الضيف وما لا يثقل على المضيف؟! كرم لا ندرى له شكلاً في بلادنا المشهورة بالكرم وسعة الصدر! لأننا في كثير من الأحيان نتجاوز حدود الكرم؛ فإذا أتانا الضيف في الظُّهر مثلاً على غير انتظار بمجيئه، فهو عوضاً عن كوننا نقدم إليه ما يسعه وقته من الغذاء الذي هو في حاجة إليه بدون أدنى كلفة، فإننا نرى صاحب البيت يغدو ويروح بين يدي ضيفه بعبارات التأهيل «لا التسهيل»، ومع تكرار طلب ضيفه لما تيسر من الغداء فإن الغداء لا يُقدَّم إليه إلا في الساعة الخامسة أو

الرابعة! يقدم إليه واللهم يكاد يتتصاعد من أطباقه، وهو في الغالب قليل الشواء في جميع أصنافه التي نراها فوق الحاجة في كثرتها، وأقل مما يجب في جودة صناعتها! ذلك لأن صاحب المكان اعتاد أن يكفل نفسه في طريق كرمه لما لا يلزم، ويكفل أهل بيته بما ليس في طاقتهم، احتفاءً بهذا المسكين الذي كان يفضل أن يأكل في ميعاد أكله كما لو كان يأكل في بيته بدون كلفة وبدون أدنى مشقة.

وهذه الولاية لا تفرق بين السود والبيض؛ لأنها من ولايات الشمال التي ليس للألوان فيها من فوارق؛ لذلك ترى السود فيها رافلين في نعمتهم، وأسعد حظاً من إخوانهم في الولايات الجنوب، وهنا نتساءل عما إذا استمرت هذه الفوارق بين الأبيض والأسود في الولايات الجنوب «والسود هم القائمون فيها بالزراعة والخدمة العامة»، وهاجر الأسود إلى ولايات الشمال فماذا يكون من أمر ولايات الجنوب؟

عدنا في الساعة السادسة مساءً إلى المدينة، وقصدوا بنا نادي الغرفة التجارية وهو بناء فخم أكثر من عشر طبقات، فصعدنا إلى الطبقة الثامنة وفيها الحمامات الباردة والساخنة، وإلى جوارها مكان فيه بركة عُمقها أكثر من مترين وسعتها نحو عشرين متراً في عشرة، وكل بنائهما من الرخام الجميل، وهنا كانوا يطلبون منا أن نداري سوأتنا باللباس الخاص بالحمامات البحرية؛ لأن البركة في أعلىها إيوان قد تُشرف منه السيدات على المستحبين، وبعد ما أحذنا حذانا من الاستحمام صعدنا إلى الدور العاشر وفيه مطعم النادي، ويطل من جهاته على المدينة التي تراها في أنوارها كأنها في زينة من أجمل الزينات، وبعد أن تناولنا عشاءنا توجهنا إلى المحطة حيث ركنا القطار فسأر بنا في



شارع البحر في لونج بيتش.

الساعة العاشرة إلى محطة لاكروس، التي وصلناها في الساعة الثامنة صباحاً، وكان سيرنا كله في أراضي ولاية كانساس.

(٤٢) يوم ٢٩ يونيو

وصلنا في صباح هذا اليوم مدينة لاكروس وعدد سكانها ٨٠٨ ألف نسمة، وهي في ولاية كانساس، والمسافة إليها ٣٦ ميلاً، والأرض في هذه الجهة منبسطة بحالة عامة، وترى فيها أثر الغلال مزروعة بكثرة، ويه تشغل ثلاثة أرباع الأرض، والزراعة فيها على المطر، وهو أقل منه في ولاية ميسوري، واعتمادهم هنا على تربية الماشية، والزراعة على نسبة ثلاثة فدانًا لكل شخص، وهذا ما يدُلُّ على كثرة الأراضي في هذه المنطقة؛ لذلك ترى ثمنَ الفدان من أربعين إلى خمسين ريالاً، وارتفاع القمح في هذه الأرض لا يزيد عن أربعين سنتيمتراً، وعملية الزراعة على الآلات، والذي يظهر لي أن هذه الأرض في غاية الخصوبة؛ لأن القمح يُزرع فيها محل القمح بدون تسميد على الدوام، وهو ما يدعو إلى الحكم بأن الأرض غنية جدًا بالنترات ومتوسط محصول الفدان من القمح ١٣ بушل، والبشل ثمنه ريال.

وعلى هذا يكون دخل الفدان تقريباً من أربعة إلى خمسة في المائة، والحكومة تتضع الضريبة هنا على الأراضي بنسبة ما يخترقها من السلك الزراعي، وبنسبة العناية بهذه

السلك؛ فإذا كان الطريق ممهدًا عبّدًا على حاليه أخذوا نحو ربع ريال عن الفدان، وإذا كان مرصوفًا أخذوا ريالًا، وإذا كانت المنطقة فيها مدرسة أخذوا على الشخص ريالًا، وهذا غير الضريبة العامة على الأشخاص، وهي ريال عن كل نفس.

والتسميد في هذه الجهة هو بما يسمونه بالسماد الأخضر، وهو أن يزرعوا فيها برسيمًا أو ما في معناه، ثم إذا نما يحرثونه وهو أخضر في أرضه، ويكثر عندهم البرسيم الحجازي الذي يمكث في الأرض جملة سنوات.

وقد وصلنا في هذه الجهات إلى عزبة شاهدنا بها منظراً جميلاً؛ شاهدنا في دائرة من الأرض مسورة بالأسلام الشائكة بضعة مئات من الأبقار بين كبير وصغير، ذكر وأنثى، والكل في صعيد واحد، ومن دونها راعيها على فرسه وفي يده فرقlete يفرقع بها يميناً فتجري جملة الأبقار إلى اليمين، ثم يفرقع بها يساراً فتجري بجملتها إلى الشمال.



شاطئ الأطلنطي ومرفأ حمام البحر في لونج بيتش.

ومن أغرب شيء أن المطر لا ينزل هنا إلا في مدة الصيف، وحيث إن طبقة الأرض صخرية على بعد قريب فيخزن فيها الماء، وخصوصاً في الأرض المترفة من الزراعة، حتى إذا جاء شهر سبتمبر وزرعوا الغلال بها أمكنها أن تتغذى بالامتصاص من الماء المخزون في الطبقة السفلية للنبات حتى تنتهي أشهر الشتاء التي لا مطر فيها، فإذا جاء شهر

مارس وابتدأ المطر تغزت منه في آخر أيامها إلى وقت حصادها، وعندما يأتون بالآلة الضم والدرس فتسرير في الأرض فتضم ما فيها من النباتات وتترفعه إلى جهة منها، فينزل الحب إلى مخزن فيها، وينزل الهشيم على الأرض من جهة أخرى، فيأخذونه غذاءً للمواشي، وهذه الآلات إما أنها تسير بواسطة الخيل أو البترول، وقد سألنا عن الآبار الأرضاوية فعِلمَنا أن الماء بعيد عن سطح الأرض التي طبقتها حجرية صخرية، على أنها تحتاج إلى مصاريف باهظة لا تتناسب مع منتجات الأرض.

تركنا العزبة في الساعة الخامسة، وبعد أن تعشينا في القطار قام بنا في الساعة السابعة ينهب الأرض وهي بصفة عامة ليس فيها شيء من الغابات، وحتى أشجار الفاكهة قليلة فيها، ولكن يظهر أن للقوم هنا عناية بتربية الماشية والخيل وهي عندهم كبيرة الحجم، وما زلنا حتى وصلنا إلى محطة «أوردو».

(٤٣) يونيو ٤٠

وصلنا في صباح هذا اليوم إلى مدينة أوردو وهي في ولاية كولورادو، والمسافة التي قطعناها إليها ١٠٧ أميال، والأراضي في طول هذه الولاية مسطحة، والزراعة فيها قليلة أو هي لا تزرع إلا القمح في بعض جهاتها وبعض الحشائش التي تغذي الماشية، ولا يلوح على هذه الولاية شيء من مظاهر الثروة؛ لأن زراعتها قليلة وليس فيها من المعادن لغاية الآن ما يفتح أبواب الكسب من طريق آخر؛ وذلك لأنها داخلة في المنطقة الصخرية التي في غرب الولايات المتحدة.

ويحسن بنا ألا نترك هذه الولاية من غير أن نشير إلى الولاياتين في جنوبها، وهي ولاية «أوكلاهوما» ثم ولاية «التكساس»، والأولى مشهورة بمعادن الفحم، وزراعة الحبوب والقطن، وتربية الماشية، والثانية مشهورة بوفرة قطنها وجودته، وهو ما يهدد البلاد التي تحصر كل حياتها في زراعة القطن، كالقطر المصري.

تركنا هذه الأرض المنبسطة التي يهددنا مستقبلاً لزراعتها للقطن، وإذا عدم القوم كل أو بعض الوسائل التي تسمح لهم بزراعته اليوم فإنهم والعمل ملازمهم والجهاد بأنهم لا يعدون وسيلة في المستقبل القريب لزراعته في أرضهم التي هي من الجودة بمكانٍ عظيم، تركنا هذه البلاد المنبسطة التي تقرأ في صفحتها كل عبارات التهديد والوعيد لبلادنا بزراعتها القطن الذي حَصَرْنَا فيه حياتنا وقوتنا ومجدنا، أو بعبارة أخرى حصرنا فيه ثروتنا ما دامت الثروة هي ذلك كله! ودخلنا في ولاية كولورادو التي تبدئ بعد قليل

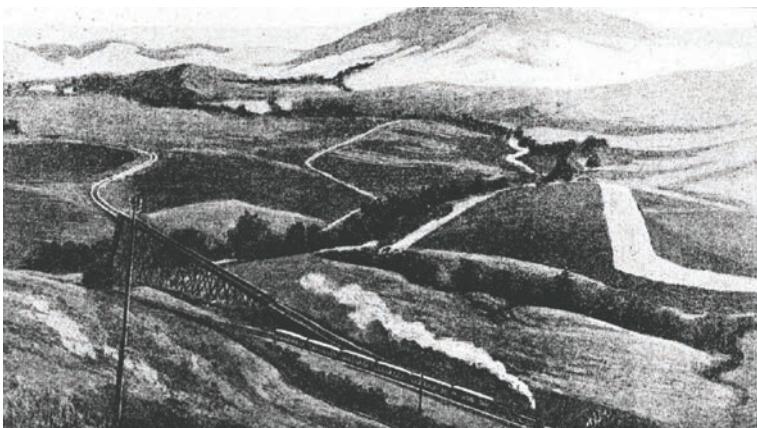
من حدودها الشرقية بالمنطقة الصخرية للولايات المتحدة، وهي تتناول الولايات التي في شمال وجنوب وغرب كولورادو، وهي: ولاية مكسيكا الجديدة، وأريزونا — في الجنوب — وولاية ويومنج، و蒙تانا وداهو، وأريجون، وواشنطن — في الشمال — وولاية أوتا، ونوفادا، وكاليفورنيا — في الغرب — ومع صخرية أرض هذه الولايات فإنها مشهورة بغاباتها الكثيرة، وبغزارة ماشيتهما، كما أن كاليفورنيا مشهورة ببساتينها ووفرة ما فيها من الفاكهة المختلفة الأنواع والألوان.

و قبل أن نترك ولايات الوسط المشهورة مع الولايات الشمال بمعانها وحبوبها وماشيتهما، لا بد أن نشير إلى ولايات الجنوب «التي حُرمنا من زيارتها» وهي كارولينا، وجورجيا، وألاباما، ومسيسيبي، ولوبيزيانا، وأوكلاهوما، وكلها تزرع القطن بكثيّر وافرة، وخصوصاً الأربعه الأخيرة التي تزرع كثيراً من قطن «سي أيلاند» الذي هو كالقطن السكريدي المصري في جودته إن لم يكن أحسن منه.

وهنا نذكر لك مساحة هذه الولايات التي تزرع القطن في الولايات المتحدة لكي تعرف شيئاً بسيطاً مما يهدم بلادك في هذه المملكة وحدها.

	ميل مربع
التكساس	٢٦٢٢٩٠
أوكلاهوما	٦٩٨٣٠
أركنساس	٥٣٠٤٥
لوبزيانا	٤٥٤٢٠
تنسي	٤١٧٥٠
ألاباما	٥١٥٤٠
كارولينا الشمالية	٤٨٥٨٠
كارولينا الجنوبية	٣٠١٧٠
جورجيا	٥٨٩٨٠
مسيسيبي	٤٦١٤٠
المجموع	٧٠٧٧٤٥

وإذا قلنا: إن مجموع الولايات القطنية لا تقل في مساحتها عن ربع الولايات المتحدة، وإذا فرضنا أن المزرع من الولايات القطنية رباعها فقط، كان المزرع كل سنة أكثر من مائة وثلاثين ألف ميل مربع من القطن، وهو أكثر من خمسين مليون فدان مصرى! «وقد تجاوزنا عن الكسور ليكون عندنا عدد بارز».



الطريق الحديدية لصحراء كوليادو.

وإذا اعتربنا أن الفدان يأتي في متوسط السنين بقسطنطalon ونصف شعر، كان متوسط محصول الولايات المتحدة (في غير هذه السنة) هو من ١٥ إلى ١٦ مليون باللة! وهي نسبة القلة للمحصول الأمريكي، ثم إذا اعتربنا أن اهتمام القوم بزراعة القطن سائرة إلى الأمام سواء في زيادة المساحة، أو في العناية بالزراعة مع قلة الأمراض في شجيرات هذا الصنف عندهم، واعتربنا أن المزروع هو ثلث الأرض لا رباعها؛ عرفنا أننا مهددون من الولايات المتحدة على الدوام بكثرة محصولها، والقطن يُجْبَى فيها إلى الآن باليد، وكانوا اخترعوا آلة لِجَنْيَه، وكانت تأخذ معها كثيراً من الورق واللوز بحاله، ثم اخترعوا آلة أخرى لها خراطيم ستة تُسلَّط على الشجرة فتشفط القطن من لوبياته، ولكنهم وجدوها ليست وافية بالغرض فتركوها حتى يحسن حالها.

على أن الذي كان مزروعاً من القطن في سنة ١٩٢٦ بالولايات المتحدة وهو ٤٨ مليون فدان، بلغ محصولها ١٨ مليون باللة تقريباً، وحوض المسيسيبي إلى الجنوب هو

الذي يزرع القطن والذي يتكافأ مع القطن الكلاريدي في جودته «المسمى أيلاند» إن لم يزد عنه، وقد غمرت المياه في هذه السنة من حوض المسيسيبي ثلاثة ملايين فدان ونصف، منها مليونان ومائة وثلاثون ألف فدان قطن، و٧٢٧ ألف فدان ذرة، و٢٥١ ألف فدان دريس، و١٨٠ ألف فدان خضارات، وغرق مع هذا كله ١٧٧ ألف باله قطن محلوج.

ومن الغريب أن وزارة الزراعة في واشنطن لا تريد أن تعطي بيانات عن زراعة القطن الحالية، ولا عن التي في العام القابل.

وهنا لا بد أن نشير إلى أن حكومة التكساس استقدمت المستر «طود» الإنجليزي الذي يشغل الآن في المباحث القطنية في بلاده، وخصوصاً من الوجهة الاقتصادية، هذا الرجل الذي لا يجهله المصريون؛ حيث كان مدرساً لعلم الاقتصاد بمدرسة الحقوق الملكية، استقدمته حكومة التكساس لإلقاء بعض محاضرات في القطن في بلادها، تريد بذلك ألا تقف عند حد في كلّ ما يتعلق بالقطن، سواء من الوجهة الزراعية أو الاقتصادية. فهل حكومتنا أن تستقدمه بعد ذلك للانتفاع برأيه، خصوصاً بعد زيارته لهذه الجهة التي تهددنا في حياتنا؟



إحدى محطات السكة الحديدية بالولايات المتحدة.

أظن أن الحكومة لا تضن بمثل هذا العمل، في حين أنها لا تضن على بلادها باستقدام هؤلاء الذين يحاضروننا في التاريخ القديم – لإيطاليا مثلاً – مما نحن في غنى عنه؛ لأنه لا يزيد في حياتنا المادية ولا ينقص منها.

وأمراض الوراثة في النباتات كما هي في الحيوان تجب العناية التامة بها، وال القوم هنا درسوا كثيراً من أمراض النباتات، وإن كانوا لا يزالون في حيرة من وصولهم إلى دواء نافع لبعض الأدواء ومنها الحشرة التي تصيب لوبيزات القطن، ولكنهم أخيراً توصلوا إلى حل، وهو أنهم يرشون القطن بمادة سامة بواسطة الطيارات، تطير الطيارة فوق سطح شجيرات القطن وبواسطة خرطوم رشاش يرشون الشجيرات، ويقال: إن هذه العملية أنتجت نتيجةً محسوسة في إبادة هذه الحشرات، ولكن هل يمكن أن تتتوفر عندنا هذه العملية بعد أن رأينا ما عملته الحكومة مع الطيارة أنيسة التي قدمَ بها حسن أنيس باشا من أوروبا في الخريف الماضي سنة ١٩٢٦م؟ وقد وضعت الحكومة في وجهها جميع الموانع بحجة أن قانون الطيران لم يُسَنَ بعد في بلادنا.

وهل لوزارة الزراعة أن تدرس هذا الموضوع بحالة جدية فيما يختص منه بدولتي الورق واللوز؟ خصوصاً بعد أن شاهدْتُ ما عملته دودة الورق بقطن مصر في هذه السنة، وتعلمت لذلك طيارات تضيفها إلى ما عندها من أدوات التبخير الذي تراه، وإن كان لم يأت بكل الفائدة فقد وصل منها إلى شيءٍ كثير.

وكلما تقدمنا في هذه الجهات إلى الغرب كلما دخلنا في أرض الصحراء التي لا حدود لها، وهنا نرجع بالقارئ إلى القرن الثاني والثالث للهجرة لنرى معه أن العرب سيرت الماء إلى صهاري إسبانيا ولم يكن عندهم من الوسائل الهندسية، ولا من هذه الآلات الجهنمية ما عند القوم الآن منها، إذن فلا يبعد على القوم يوماً من الأيام أن يُسَيِّروا الماء من نهر كولورادو إلى هذه المناطق التي تنتج كل شيء إذا وجدت إلى الماء سبيلاً. وهل ما نراه فيها الآن يميّناً وشمالاً من ذلك السراب الذي يرينا على حدود الأفق ماء ولا ماء، يتحقق

٤ والآن وقد اهتم شبابنا المصري الجريء أمثال صدقى ورشدى وحسنين بك بالطيران الأهلي، ووصول الأول إلى مصر بين مظاهر الحفاوة الكبri التي استقبلته بها الحكومة والشعب جميراً، لعل هذا كله يفتح السبيل إلى إيجاد مصلحة طيران أهليه تتنفع بها البلاد في مرافقتها الحيوية المختلفة.

بعنائية القوم يوماً ما مع مساعدة الأقدار التي نراها على الدوام سائرة خطوة بخطوة مع العاملين الجددِين.

هذا إذا حصرنا خوفنا في الولايات المتحدة وفي محاصيلها، ولكن إذا نزلنا إلى الجنوب وتعدينا المنطقة الاستوائية إلى البرازيل، تلك المملكة الواسعة الشاسعة التي تتباهى في مجاهلها الولايات المتحدة بقطنها ومحاصيلها، هذه المملكة الجديدة في كل شيء، والفتنة في كل شيء، والغنية في كل شيء، إلا في ناسها؛ غنية في أرضها، في غاباتها، في معادنها، في مائها، ببركة كثرة ما فيها من الأنهر، وخصوصاً نهر الأمازون الذي هو أكبر نهر في الدنيا، فلو تيسر لها اليد العاملة هي الأخرى ووصلت فيها زراعة القطن إلى كل أو بعض ما وصلت إليه في الولايات المتحدة فماذا يكون من أمرنا؟ نعم، إن هذا لا يتيسر في زمِن قريب، ولكن إنما نبحث عن حياة الأمة، نبحث عن حياة أمتنا العزيزة، وعمر الأمم لا يحسب بالأيام.

وهنا نرجو وزارة زراعتنا الاهتمام بهذا الموضوع، نرجوها أن تضع من اليوم أساس تجاربها في كل ما ينفع في بلادنا، نرجوها ألا تجعل تجاربها على ما فيه رُقِيُّ زراعة القطن بصفة خاصة، بل زراعات القطر بصفة عامة، خصوصاً إذا راعت زيادة السكان عندنا بهذه الكثرة التي إن استمرت على نسبتها الحالية، لا بد أن تصلك بنا إلى ضعف عدتنا في عشرات من السنين، نرجوها أن تفكري في وضع أساس لتجارب جديدة في زراعات جديدة، وعندها من خيرة رجالها المجدِين المفكرين ما يكفل قبول الرجاء، ويصل بنا إلى ما يتحقق به الأمل.

في ظُهُر يوم ٣٠ يونيو وصل قطارنا إلى محطة بيوا بلو، و才是真正ها ٤٣ ألف نفس، ومسافة ما بينها وبين أوردو خمسون ميلاً، وبعد أن تعدينا بالقطار ركبنا الأتوبيسات التي سارت بنا في وسط أرض منبسطة من على الجانبين، وممهدة تمهدًا تاماً، وهذه الأرض تُسقَى بالري المنظم من نهر كولورادو، رأينا من الجانبين أرضاً تمبل إلى بعض الأصفرار، والزراعة عليها نامية نمواً عظيماً، والأشجار فيها هنا وهناك نضرة، والعزب تخلل المزارع من قرب، فتخيلنا أننا بمصرنا العزيزة، لو لا ما نراه في مزارعنا من كثرة الأيدي العاملة، وإن كان العامل عندنا لا يعمل بهمة العامل الأمريكي ولا بتشاطه، اللهم إلا القليل من ي العمل لخاصة نفسه.

وهذه الأرضي تترُّع في الغالب البنجر، وثمن الطن منه سبعة ريالات، والفدان ينتجه هنا عشرة أطنان، فيكون إيراد الفدان نحو ١٤ جنيهاً في الأربعة أو الخمسة أشهر التي تشغله فيها الأرض بهذا الصنف! سألنا عما يعلموه في الأرض بعد ذلك، فقالوا: سلباً، ثم

أردفوا ذلك بأنهم مجذون في عمل دورة زراعية حتى لا يُحرمون من الانتفاع بالأرض طول السنة، والزراعة هنا واسعة تسقيها تُرْع صغيرة عرضها نحو مترين، وماؤها فيما رأيناها أعلى من الأرض الزراعية بأكثر من نصف متر، وبهذا تَعرِف أن الري بالراحة، ومع ذلك لم أَر في الأرض تطبيقاً مطلقاً، كما لم أَر بها أملاحاً، والشيء الوحيد الذي رأيت عدم العناية به! هو جسور الترع ووفرة الحشائش التي تنموا عليها، وهذا ولا شك سببه قلة الأيدي العاملة. ولقد شاهدت هنا القمح ينموا نمواً عظيماً، وإنَّ ما شاهدت منه هنا يمتاز في جودته عن كل جهة رأيتها، ولا بد أن غلة الفدان تأتي بضعفها في الجهات الأخرى؛ لأن زراعته صيفية وصيفوًّا صفوًّا، وبين كل صف والذي يليه عشرة سنتيمترات أو تزيد قليلاً، في حين أنها في غير هذه الجهة لا تقل عن أربعين سنتيمتراً، وقد شاهدت أن البنجر هنا قوي جدًا، ومساكن هذه الجهة من الخشب، وبعضها بالطوب الأحمر، وفي أبنيتها ما هو من الطوب الأخضر، وطول الطوبية نحو ٤٠ سنتيمترًا فيما يتاسب معها عرضًا وسُمكًا.

وكانت أشجار البقس وغيره مما لا أعرف له اسمًا تظلل الطرق، ومجاري المياه الحمراء تخترق الأرض في كل جهة، ذَكَرْنا هذا في مجموعة بمصرنا العزيزة، ذَكَرْنا بوطننا المحبوب الذي وإن بُعدت عنه جسومنا فقلوبنا كانت - حيثما كان وأينما وُجِدنا - لا تبرح عالقةً به تؤدي له على الدوام تحية الولاء والإخلاص، ومما شاهدناه هنا مزرعة تَكُنُ في أرضها نترات الصودا، والغريب هنا أن تجاربهم دائرة حول تخفيف ما فيها من هذا الجوهر الذي نحن محرومون منه ونشتريه بثمنٍ غالٍ! وذلك بإضافة أملاح أخرى على الأرض تقلل بتفاعلها الكيماوي من شدة تأثير النترات على النبات، ويبقى الخط الوسط بينهما جافاً.

وبعد ذلك توجَّهنا إلى حيث أخذنا عشاءنا في محل لأصحاب هذه الأرض يسع نحو أربعين شخص، وكانت الموسيقى به تتعشنا بنغماتها وقت الأكل، وعند الانتهاء قام الخطباء شاكرين كَرَمَ القوم، ذاكرين ما في البلاد من نعيم وخيرات لا تفني، ثم عُدْنَا إلى قطارنا الذي قام بنا صاعداً نحو الشمال إلى «كولورادو اسبرنجل».

(٤٤) يوم أول يوليو

وصلنا إلى هذه المدينة في أول يوليو بعد أن قطعنا إليها ١١٩ ميلًا، وعدد أهلها ٣٠ ألف نفس، وهي في آخر الخط الحديدي الذي يسير إليها من نيوا بلو.

وفي الساعة السابعة صباحاً ترکنا القطار وأفطربنا في لوكندة المحطة، ثم ركبنا الأوتوموبيلات إلى محطة الفنوکيلير، للصعود إلى قمة جبل كولورادو، وكنا أخذنا لها تذكرة من قبل، ركبنا هذا المصعد الكهربائي في الساعة التاسعة صباحاً فسار بنا مارّاً في طريق محفور في الجرانيت بيد الطبيعة وهذبته يد الإنسان، وقد قامت على حافتيه أشجار الصنوبر والبلوط، وعلى ارتفاع ١١٥٠٠ قدم انبسط الوادي نوعاً، ورأينا فيه بحيرة ممتدّة بملاء الذي ينزل إليها من المثالج التي في أعلى الجبل! وبعد أن صعدنا نحو مائة قدم رأينا السحاب يتكون في منطقة أسفل منا.

ولما صعدنا إلى ١٣٠٠ قدم وجدنا البرد قد اشتد كثيراً، والأشجار قد انقطع نموها وأصبحت رأس الجبل جرداً، وقد ابتدأت مثالج الجليد تظهر لنا هنا وهناك في أخدود الجبل مما ذكرنا بجبال سويسرا، لولا أن منظرها هنا جافٌ، وليس فيه من مظاهر الحياة إلا ذلك الطحلب الذي نراه عادة على قبور الموتى.

وصلنا إلى قمة الجبل، وكانت درجة الحرارة نحو عشرة تحت الصفر، ودخلنا لوكندة هناك أخذنا بها شيئاً من الشاي، وبعد أن استرخنا حول المناقد التي بوسطها، عُدنا أدراجنا إلى قطارنا الكهربائي الذي سار بنا في منتصف الساعة الحادية عشرة إلى مدينة كولورادو، فوصلناها الساعة ١٢ ونصف، ولا يفوتنا هنا أن نقول: إن كثريين من الركاب أخذوا دوار الجبل، وهو ما يشبه دوار البحر تماماً في تأثيره على أعصاب المعدة، ثم ركبنا قطارنا فسار بنا إلى مدينة «كامون سيتي» والمسافة التي قطعناها إليها ١٦٠ ميلاً.

(٤٥) يوم ٢ يوليو

وصل القطار إلى محطة كامون سيتي في صباح هذا اليوم، وهي مدينة صغيرة عدد سكانها أقل من خمسة آلاف نفس، وبعد أن أفطربنا ركبنا المركبات لمشاهدة مزارع هذه الجهة التي تكتنفها الجبال من كل جهة حتى يصح أن نسميها واحة جبلية، فيها بعض أشجار الفاكهة، ومزارع الخضر والحبوب، وتتخللها بعض مجاري المياه، ومنها مجاري جافة لا يسير فيها الماء إلا في آخر فصل الشتاء، وهناك جبل على شكل حائط بين الصحراء والواحة يبلغ ارتفاعه مائة متر، وعرضه من أعلى على عرض الطريق الذي لا يزيد على أربعة أمتار، فلما وصلنا إلى أعلى تمثّل لنا الخطير في صعوده ونزوله، خصوصاً ونحن راكبون «الأوتوموبيل»، ولما نزلنا إلى الوادي حمدنا الله على سلامتنا، وسرنا إلى المحطة حيث ركبنا قطارنا الذي قام وقت الظهر وسار في طريق بين جبلين عاليين أحمررين

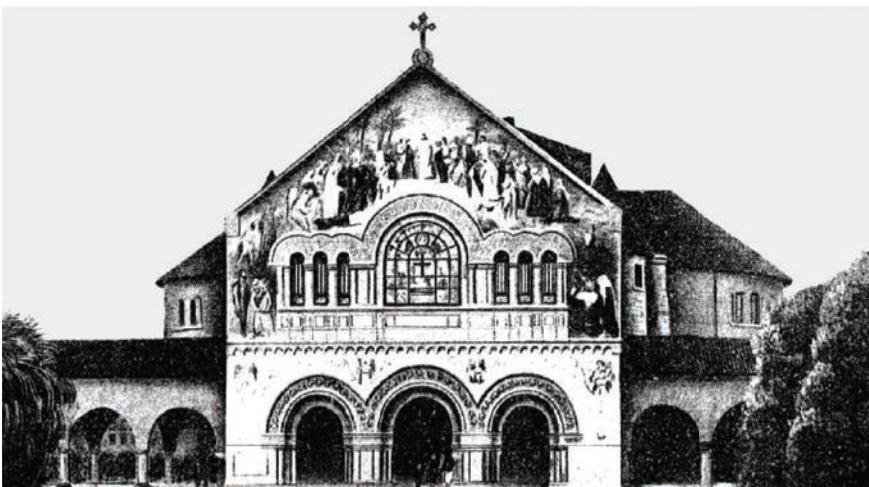
يسموه «ويل جورج»، ومن دون الطريق الحديدي نهر كولورادو الذي لا تزيد سعته هنا على ثمانية أمتار.

وقد امتدت في حضن الجبل على جانبه الأيسر أنبوبة قطرها نحو ثلاثين سنتيمتراً يأوي فيها الماء من ارتفاع بعيد لشرب المدينة، وعلى جانبه الآخر طريق عرضه نحو ثلاثة أمتار يرتفع عن الماء بметр ونصف أو مترين على الأكثر يسير فيه الطريق الحديدي، فوقف القطار بين لابتي الجبلين الصخريين، ونزل بعضاً منه لمشاهدة هذا الوادي الذي حَطَّته يد الماء لجري الماء، ذلك الوادي الصخري الذي اخترقته تلك اليد اللينة الرقيقة التي ما زالت — والصبر قرينه والجهاد ملازمها — تطالب — على ضعفها — بحقها في الحياة، تلك القوة الهائلة التي وقفت في طريق حريتها، حتى زحزحتها عن مكانها بيد الحق لا بيد القوة، وهذا هو هذا المخلوق الرقيق يسير بين هذه الصخور الشامخات بكل عظمة وكبراء هما نتيجةً صالحةً لصدقه في جهاده، وإخلاصه في عزيمته.

وهل يصح أن يكون هذا الوادي مدرسة يتعلم الإنسان في صفحتها درساً من دروس الدفاع الوطني؟! من هذه الطبيعة التي كثيراً ما تقف منا عن قرب موقف تعريفٍ وإرشادٍ ونحن في عمى عنها، وصمٍ عن نصحتها وإرشادها؟!

استأنف القطار سيره في هذا الوادي الضيق نحو ساعتين، ثم انفرج نوغاً، وظهرت أمامنا رعوس الجبال وقد ظهر على نواصيها جلال المشيب، وظهرت على قممها المثالج، وأخذت تظهر على صفحة الوادي هنا وهناك بعض المزارع، حتى إذا كانت الساعة الرابعة تَغَيَّرَ شَكْلُ وجه الطبيعة بما هو فوق الجفاف، حتى لكانك ترى الأشجار التي تمر عليها في حالة النزع، وقد سار قسمٌ من النهر إلى جهة المغرب بعد أن كان سيره كله إلى الشرق. وما زال القطار يسير وسط هذه الجبال الجافة، وكلما سرنا أخذ منظرها يزداد جفافاً حتى خلنا أنفسنا بين يدي تلك الطبيعة المتوجحة التي يُذَكِّرُنا ما فيها من وحدة ورهبة بالنقطة التي تنتهي إليها الكائنات الحية، خصوصاً إذا لاحت منك التفاتة ورأيت جميع السُّفار وكل جاثم على نافذته وأبصارهم حائرة، وقلوبهم طائرة من خشية ما ينظرون، ووحشة ما يحيط بهم من تلك المناظر التي إذا تركوا شيئاً منها وقعوا في دائرة مناظر أخرى أشد وحشة ورهبة! وكان بجواري رجل من أهل المكسيك حرق لي أنه مع كثرة أسفاره لم يَرَ مشاهد أَعْجَب ولا أَغْرَب مما وصفناه لك بكل اختصار.

وفي الساعة السابعة مساءً وصلنا إلى محطة «جلنود إسبرنجس» وفيها تغير منظر طبيعة الوادي الذي ظهر لنا لابساً حللاً السُّندسية، ولم يزل القطار سائراً في هذا الوادي



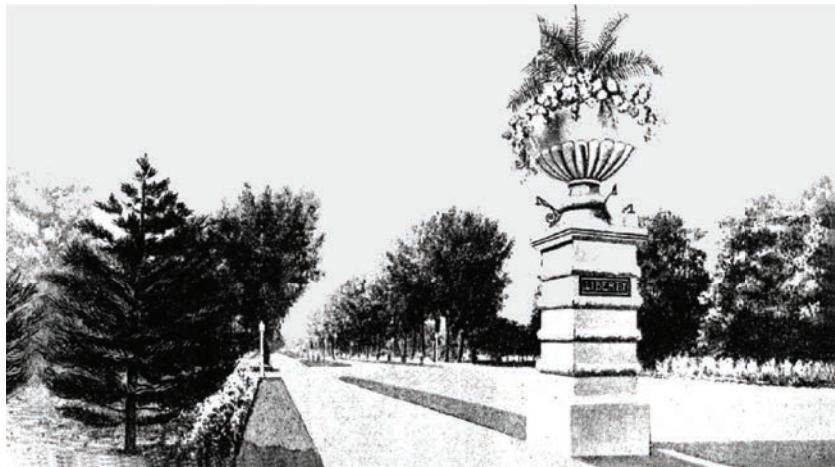
واجهة كنيسة بوليات الاتحاد.

يضيق أحياناً، ويتسع أحياناً، ويخشن آونة، ويحمل أخرى، حتى وصلنا في الساعة الثامنة صباحاً إلى محطة «سيلت ليك ستى».

(٤٦) في يوم ٣ يوليو

وصلنا في صباح هذا اليوم إلى مدينة سيلت ليك (مدينة البحيرات المالحة)، وهي في وسط ولاية إيتاه بميل إلى شمال بعد أن قطعنا إليها ٥٨٥ ميلاً، وعدد سكانها ١١١ ألف نفس كلهم من طائفة المورمون، وكان في انتظارنا جماعة منهم، فأخذونا إلى محطة القطار الكهربائي فركبناه إلى البحيرات، فسرنا في وادٍ اتسع أمامنا اتساعاً عظيمًا، وظهرت على أرضه من الجانبين تلك الأملاح التي أفسدت تربتها بحيث أصبحت غير صالحة للزراعة، وتكثر البرك المالحة على طول الطريق، وكان يظهر فيها شيء من البط، وكان يتخلل هذه الأرضي بعض الجداول الصغيرة، ولكنها لا تفيدها لأنها محرومة من المصارف، نعم كانت هناك بعض مزارع من البرسيم والقمح في بعض الجهات العالية، ولكن القوم أحاطوها بمصارف واسعة تجذب إليها بواسطة الرشح بعض الأملاح الموجودة فيها، وكنا ننصر

من بُعد أكواًما كبيرة من الملح، وقربياً منها وابورات لتنقيته، ومركبات للسكة الحديدية لشحنة.



مدخل حديقة المكتبة في مدينة سولت ليك (البحيرة المالحة).

وانتهى بنا المسير بعد ساعة إلى بحيرة كبيرة بُنيَ في وسطها رصيف تسير عليه القطر الكهربائية نحو كيلومتر، وفي نهاية الرصيف كازينو كبير جدًا جمع كثيراً من موجبات التسلية والسرور؛ ففيه قسم للألعاب المختلفة، وأخر للحمامات، وثالث للمطعم، ويلي ذلك قاعة للجلوس تَسْعُ أكثر من اثنى عشر ألف نفس، وهذه القاعة تُطلُ على البحيرة من الجهةين، وبجوارها الحمامات البحيرية وهي بنظام جميل جداً أحسن منه في كل جهة،رأينا فيها نحو ألف غرفة للمستحبين، وماء البحيرة فيه $25 / 100$ من الملح مع أن البحر الملح ليس فيها منه أكثر من $4 / 100$! وقصارى القول إن هذا المكان به ما يشوق الإنسان ويروقه بنظامه البديع وسعته العظيمة. وبعد أن أخذنا حماماتنا «بأجرة نصف ريال لكل شخص»، تغدىنا هناك بدعة من الغرفة التجارية للمدينة على النظام الخلوي، ثم قامت الخطباء بعد الغداء حسب المعتاد تتكلم في شتى الموضوعات، وكانت أرجو أن يكون لنا نصيب من ذلك، ولكن ما دامت الخطابة في مدارسنا ممنوعة،

وفي غيرها غير مشروعة، فنحن على قديمنا فيما هو محفوظ عن ظهر قلب! وهل يمكننا أن ننسى أنه يوجد بين أظهرنا إلى الآن قوم لا يزالون يقولون في دعائهم يوم الجمعة: «اللهم اجعلهم هم و... و...» نعم إننا نشطنا من عقالنا يوماً ما، وأخذنا نكتب ونقول ونخطب ولكن في موضوع واحد.

أما القوم هنا فمن ضمن مسابقاتهم المدرسية تربية البديهة عندهم، سواء من طريق الكلام أو من طريق الكتابة؛ لأن في جامعاتهم ومدارسهم مسابقات بين الطلبة في أوقات يقتربون عليهم فيها الكلام في موضوعات مختلفة يرتجلها المتكلمون، أما إذا اجتمعوا للمسابقة في الكتابة فتُوزَّع عليهم ظروف مختومة لا يعلم أحد بما فيها، ويحدَّد لهم ميعاد ضيق للجواب عنها، هناك تنشط الأقلام بما توحيه الأفكار، وتعطى للمبرزين فيها الجوائز، وبهذا تربَّت عندهم قوة البديهة في الكلام وفي التحرير.

دخلنا روضة جميلة جداً فيها بناة؛ واحد على شكل الكنائس المعتمد بأوروبا في جمال منظرها الخارجي وحسن روائعه بما فيه من النقوش البارزة أو المحفورة، وهذه تُسمَّى عندهم قدس الأقداس، ولا يدخلها أحد إلا من كان متقدماً في مذهبهم، والثانية بناء هائل بسيط في منظره الخارجي وهو الذي دخلناه.

وهذا البناء على شكل بيضاوي، قُطْرُه الكبير نحو مائة متر، والصغير نحو خمسين متراً، قامت عليه قبة واحدة وإن كانت بسيطة في بابها ولكن بساطة المكان في عمومه ترفرف عليه آيات الجلال والفاخامة، وبعد أن أخذنا مقاعdena وقف رجل في جانب من الهيكل وتكلم بعبارات التأهيل والترحيب بصوت عاديٍ كان يرن في أرجاء المكان، ثم دعا رجلاً منهم فقد إلى آلة موسيقية (أورج) كانت تشغله صدر المكان، وهي كبيرة جداً في نوعها، فأدار يده عليها فصدرت عنها نغمات تُطرب الآذان مع ما كنا فيه من سكوت عميق، وكانت هذه النغمات تبدو تارة قريبة بحيث تكاد تكون على ملمس منا، وأوْتَة تبدو بعيدة بما كنا نحالها معه على بضعة أميال، وبالجملة فقد أسمعنا هذا الرجل المعجب والمطرَب بما كادت نبراته تطيش لها الأباب، لولا ما كان يكتنفها من جلال وجمال، وهيبة ووقار، وهنا نقول لك كلمة عن طائفة المورمون الغربية التي أصبح لها في عالم النصرانية شأنٌ كبير لطقوسهم الخاصة بهم، لا سيما فيما يتعلق بتعدد الزوجات.

(٤٧) المورمون

في سنة ١٨٢٠ م ظهر رجل اسمه يوسف سميث في قرية شارتون من ولاية نيويورك، ادعى أنه رأى الله جهراً. وفي سنة ١٨٢١ م ادعى أن ملاك الرب أتى إليه وأخبره بأن الله

بعث إليه برسالة الإنجيل الحقيقي مكتوبة على ألواح من الذهب، وفي هذه الألواح قصة المورمون الذين كانوا ي يوجدون بهذه البلاد قبل المسيح بستمائة سنة وكانوا من المؤمنين الذين يعبدون الله على الطريقة الحقة.

ومن عقائدهم أن الإنسان ما دام قادرًا على الزواج فله أن يتزوج. وفي سنة ١٨٤٣ قررت كنيستهم تعدد الزوجات وأخذوا به فعلًا، وهنا قامت قيمة الناس على هذا المتنبي الجديد، ورفعوا أمره إلى القضاء جملة مرات، ولكنه كان يخرج من أمامه بريئًا، وكان هذا يزيد في نار الحقد التي كانت تضطرم في قلوبهم، حتى إذا انتهوا فرصة وجوده هو وأخوه وستة عشر من شيعته في مدينة قرطاجة رموهم بالرصاص وقتلوهم جميعاً، فانتَحَبَ المورمون خليفة له رجلًا من حواريه اسمه «بريهام يانج»، ولكنهم ما زالوا في اضطهادهم حتى قرر قرارهم على الهجرة، فباعوا أملاكهم وساروا إلى جهة الغرب في فبراير سنة ١٨٤٦م، وما زالوا سائرين حتى وصلوا إلى البحيرات الملحية في ٢٤ يوليو سنة ١٨٤٧م بعد أن قطعوا على أرجلهم ٢٤٠٠ كيلو متراً كانت كلها مشقات وألواناً من العذاب.

وهنا أخذوا يحرثون الأرض ويشقون مصارفها ويصلحون من أمّرها بهمة لا تُعرف الملل، ثم زرعوها فأنفتحت لهم غلة وافرة، أقاموا منها هيكلهم، وما زالوا باجتهدتهم في الزراعة حتى قلبوا هذه الصحراء إلى روضة غnaire، وهي الآن من أحسن أراضي أمريكا إن لم تكن أحسنها جودة وإن تراجعاً ومعادن مختلفة، إلا أن أهل الجهات المجاورة ما زالوا يحسدونهم على نعمتهم، فاتهموهم بأن لهم ضلعاً مع الحمر (الهنود) وأنهم يُخشى منهم على الأمن العام، فأرسلت حكومة الولايات محققين لتحقيق هذه الإشاعات فوجدوها لا صحة لها، وأن ليس عليهم من شائبة إلا ما يخالف الدين المسيحي في كثرة الزواج.

وحقيقةً فقد كانوا يتزوجون مثنى وثلاث ورباع، بل أكثر من ذلك، وكان رئيس كنيستهم يباح له زواج إحدى وعشرين امرأة، وهم يقولون: إن الله أباح إلى نبيه سميث كثرة الزواج لصلاح النوع الإنساني؛ لأن فيه عصمة وفضيلة، وإن الأنبياء إبراهيم ويعقوب وغيرهم كانوا يتزوجون بأكثر من واحدة، ويرتكبون في كثرة الزواج على قول المسيح لحواريه: «تكاثروا تناسلوا وعمروا الأرض»، ومن جهة أخرى فإنهم يقولون: إن مذهب لوثير يرى أن زواج الإنسان بأمرأتين في آن واحد ليس فيه من جريمة ضد القانون الإلهي، وهم يزعمون أنه يأتي يوم تنقص الحروب من الرجال فيضطرون إلى كثرة الزواج لأجل حفظ النوع الإنساني.

إلا أن حكومة الولايات المتحدة أصدرت في ٢ يوليو سنة ١٨٦٢ م مرسوماً بإمضاء الرئيس لنكولن يمنع تعدد الزوجات في الولايات المتحدة، وجعلوا لذلك عقاباً يتراوح بين ٥٠٠ ريال غرامة إلى خمس سنوات سجن، ثم غيروه بقانون آخر في ٢٢ مارس سنة ١٨٨٢ م وجعلوا عقابه السجن ستة أشهر، والحرمان من الحقوق المدنية.

وفي التعداد الأخير وجدوا منهم ثلاثة آلاف رجل في عصمتهم تسعة آلاف امرأة، فقررت الحكومة التفريق بينهم، إلا أن القوم لم يعدوا وسيلة لإنكار الزوجية في حال عدم الجمع بين الزوجات بحيث أصبح لكل واحدة مسكن بمفردها «مسكن شرعي».

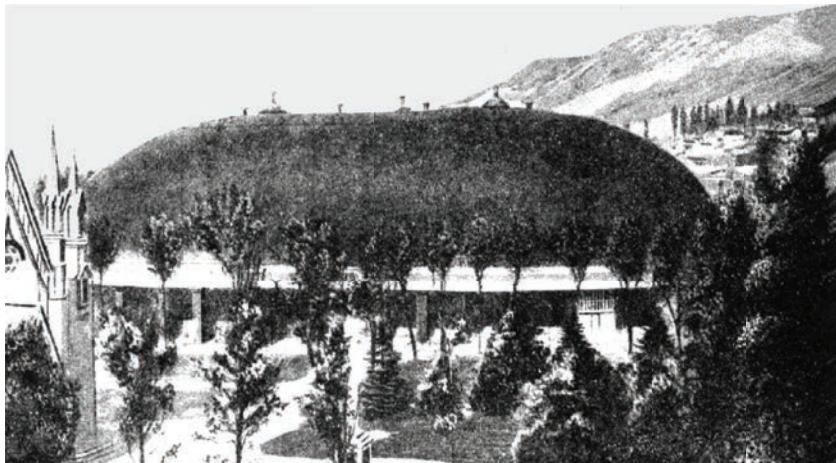
وفي سنة ١٨٨٧ م صدر قانون يقضي بأن قسمات الزوجية لا بد أن تُقيَّد عند كاتب العقود، ومن يخالف ذلك تصادر جميع أملاكه، وهنا ابتدأت الحكومة في الضغط عليهم وصرَّح لهم القاضي بأنه يكتفي منهم بالوعود باحترام قانون البلد، ولكن الكثير منهم لم يقبل هذا الوعود وفَضَلَ السجن على وُعْد يقوم على قاعدة الكذب.

غير أن رئيس الكنيسة المormونية (البابا) أظهر لهم النصيحة بعدم كثرة الزواج حتى يهدعوا من نعمة الحكومة وضغطها، ولكنها العقيدة تتظاهر بغير ما تخفي الصدور، خصوصاً في حالة ضعفها.

ولقد كان مجلس السناتو في السنتين الأخيرتين ينظر في صحة انتخاب أحد الرؤساء الذين عندهم عضواً بالمجلس، ولكن المجلس قرر عدم صحة انتخابه؛ لأنَّه يتبع مذهبًا يقول بـتعدد الزوجات الذي يحرِّمه القانون، وقد قال هذا الرجل في أثناء تحقيق المجلس معه «إنه متزوج بخمس زوجات، وكلهن يقدسن تعدد الزوجات»، ولما سئلت إحداهن في ذلك (وهي السيدة أدنا لامسون)، قالت: «إني أفتخر بأنني زوجة لرجل تعدد زوجاته، وإنني أعتقد بصحة تعدد الزوجات اعتقاداً تاماً، ونحن سعداء بهذه العقيدة، وليس للسناتو شأن بالاهتمام بأمورنا الداخلية»، وكانت هذه الزوجات الخمس يسكنُن في بيت واحد.

وأخيراً صدر أمر من رئيس الكنيسة المormونية (البابا سميث) بتحريم تعدد الزوجات بشرط ألا يسري هذا القانون على الذين تزوجوا قبل صدوره، والبابا سميث هذا له من الزوجات ثمان، ومن الأولاد ٤٥، ومن الأحفاد ١٥٠!

وللmorphون إنجيل خاص يسمونه إنجيل الغربي، للفصل بينه وبين الإنجيل الشرقي، وهو إنجيل المسيح، وفي ديانتهم من الأسرار ما لا يطلع عليه غيرهم، ولا يدخل هيكل الرب مَنْ كان على غير شيعتهم مطلقاً.



كنيسة المورمون في مدينة سولت ليك (البحيرة المالحة).

ويصل عدد المورمون إلى أكثر من ثلاثة آلاف نفس، ولكنهم ربما زادوا على ذلك كثيراً، وهم قوم أغنياء جداً بما أصبحت عليه أرضهم من الجودة بعد إصلاحهم لها، ولما وجدوه فيها من المعادن المختلفة من ذهب وحديد ونحاس وبرول.

وعندهم أكثر من أربعين شركة لاستخراج البرول فقط في ولاية إيتاه وحدها.

وهم يدفعون عشر إيرادهم للكنيسة، وهم على أحسن ما يرام سيرة وفضيلة وهمة ونشاطاً، ويُصدرون كل سنة أكثر من ٢٠٠ مليون طن من الملح إلى الولايات الأخرى غير ما يصدرونه من السكر وال الحديد المشغول وخامات المعادن المختلفة.

وعلى ذكر المورمون ومذهبهم الذي يمتنون به إلى النصرانية، أقول: إنه قام في شيكاجو في العقد الأخير من القرن العشرين رجل وفد إليها من أستراليا اسمه «دوي»، وادعى أنه نبي تَقَمَّصَ فيه روح إلياس النبي، وبعث للتجديد الواجب لإصلاح الدين المسيحي، ذلك التجديد الذي به يمهد الطريق لنزول المسيح إلى هذه الأرض لنشر راية السلام بها، وكان يدعو في خطاباته إلى تحريم التيارات والبارات والأجزاء الخانات والدخان والأطباء وأمكنة الدعاارة والتمثيل؛ لأنها مما يكرهه الخالق، وكذلك كان ينهى عن تربية الخنزير وببيعه وأكله؛ لأنه يُولّد السرطان ويُسَبِّ السل، ووصل به تأثيره على سامييه بأن كان

يشفي مرضاهم، واستأجر مكاناً بشيكاجو أقام فيه كنيسة للعبادة على مذهبة، وانتشر خبره بين الناس فتبعده خلُقٌ كثير، وكان يأمرهم بالعمل في التجارة أو الصناعة مع الجد والاجتهاد في المكسب، شرطًا أن يكون للكنيسة عشر ما يكسبون.

وما زال هذا شأنه حتى أصبحت له ثروة واسعة فاشترى نحو ثمانية آلاف فدان على بحيرة مشيغان وعلى بُعد ٦٧ كيلومترًا من شيكاجو، وهناك خطٌ مدينته، وبعد أن رسم شوارعها على أحسن ما يكون نظامًا وصحّة، بحيث بلغت سعة الشوارع العاديَّة إلى أربعين متراً والرئيسية إلى ٩٠ متراً، سمى الشارع باسم ما ورد في الكتاب المقدس من الأنبياء؛ فترى بها شارع إبراهيم، وشارع إسماعيل، وشارع موسى، وهكذا ...



دار لرصد الكواكب على جبل هاملتون بكاليفورنيا.

ثم قسم ما بينها من الفضاء إلى نِمَر باعها من تابعيه بثمن باهظ، وابتنت في وسط المدينة كنيسته التي سماها «سيون»، وفي يوليو سنة ١٩٠١ م فُتحت أبواب هذه الكنيسة لمريديه، وقد بلغت ثروة هذا الرجل عشرات الملايين من الدولارات، وحتى الدين يتذدونه آلةً في الولايات المتحدة للوصول إلى الثروة!

ولهذه المناسبة أقول: إن التيار الديني يجد له بها أذنًا صاغية لكل جديد؛ لذلك ترى فيها عدداً كبيراً من الفرق الدينية، وفيها مذهب واسع للصوفية، بل وصل إليها مذهب

البهائية، ولقد سافر إليها السيد عباس البهائي قبل وفاته لزيارة شيعته بها، بل يقولون: إن بها كثيرين قد اعتنقوا الدين الإسلامي؟ وبالجملة فكل شيء في هذه البلاد غريب في بابه.

وفي الساعة الثانية بعد الظهر ركبنا القطار الكهربائي إلى المدينة، وهناك امتطينا الأتوبيسات لزياراتها، فوجدناها من ألطاف وأنظف ما رأينا في كل الولايات المتحدة، وأبنيتها لا تزيد في الغالب عن طبقتين، يحيط بها حديقة صغيرة من الجازون، وقد زرنا المتحف وهو في بنائه من أخر شيء في بابه، والدور الأرضي منه فيه بعض المعارض من معادن البلاد، ومن ضمنها الذهب والفضة والزنك والفحمة الحجرية، يتلو ذلك بعض الفاكهة المحفوظة في أوان زجاجية، وهي من أحسن إن لم تكن أحسن شيء في نوعه، وبجانب هذا وذاك بعض حيوانات البلاد المصبرة، أما الدور الثاني فهو مخصص للسلالات ودراساتها من الرخام المرمر مما لا يُمْكِن وَصْفُ جماله، خصوصاً ما فيها من النقوش الطبيعية، ثم تركنا هذا المكان لزيارة الكنيسة التي مَرَّ بك ذِكرها.

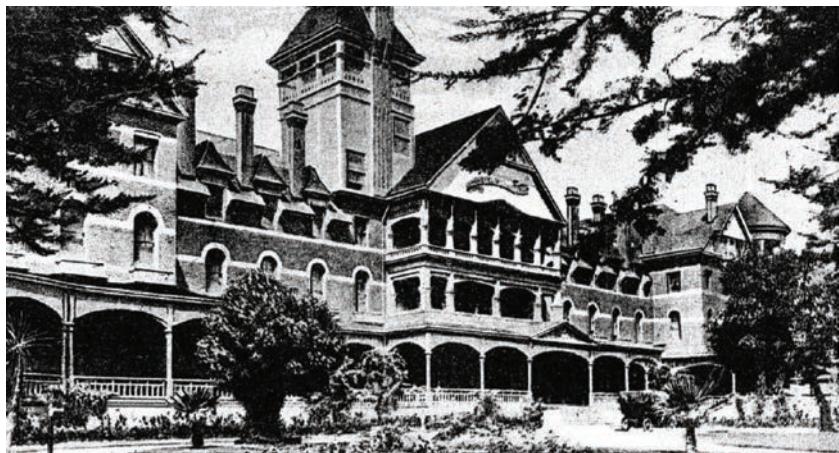
(٤٨) يوم ٤ يوليو

قمنا من مدينة سيلت ليك متوجهين إلى الجنوب الغربي، فقطعنا ولاية «إيتاه» ثم دخلنا في ولاية «نوفادا»، ومررنا فيها على مدينة لافيجا (المرج)، ودخلنا في ولاية كاليفورنيا حتى وصلنا إلى مدينة ريفرسايد، والمسافة التي قطعناها إليها ٧٢٦ ميلًا، وبينها وبين الأقيانوس الهادي نحو ٦٠ ميلًا.

ومدينة ريفرسايد سكانها عشرون ألفاً، وهي محطة للتجارب علىأشجار الفاكهة وخصوصاً على البرتقال، وربما كانت أهم محطة للتجارب في جميع العمورة؛ لأنها تُصدِّر من البرتقال وحده سنوياً بمبلغ مليوني جنيه، وهي مختصة بنوع برتقال اسمه «واشنطن»، وهو الذي نجح بمصر واسمه «أبو صرة»، وأهم تجارتها — عدا البرتقال — التفاح والعنب والبرقوق.

وأشجار البرتقال هي التي عليها التجارب هنا، وهي مزروعة صفوفاً مستقيمة جدًا على بعد أربعة أمتار، وأرضها معزولة كلها سواء في مجرى الأشجار أو المسافات التي فيما بينها، وعلى بعد نصف متر من ساق الشجرة يمْيِنَا وشمالاً قناة للري، وبعد سقي الشجرة يكسرونها قبل جفافها حتى تحتفظ الأرض ببرطوبتها؛ وذلك لقلة المياه

في هذه المنطقة، وتربي الأرض هنا بين الحمراء والصفراء، ويظهر من خدمتها العناية الشديدة هنا بالزراعة في الأشجار على الخصوص، وفي وسط هذه المزارع بناء عظيم فخم هو إدارة التجارب التي تبلغ أرضها ٧٥٠ فداناً، ومنها جزء مخصوص لتمرين طلبة جامعة كاليفورنيا ببروكلي، وعندهم معامل متصلة بهذه المحطة للمباحث المتعلقة بالنباتات الخاصة بالمنطقة المعتدلة، وهي أقسام: منها قسم للفحص النباتي، وقسم للفحص الفطري، وأخر للحشرات، وأخر للتحاليل الكيماوية.



شكل جميل للوكندة كاليفورنيا.

وأحسن ما شاهدته مزرعة للم المشمش أشجارها محملة بالفاكهه من مبدأ الفروع إلى نهايتها، بحيث تكاد لا ترى ورقة إلا وبجوارها ثمرة! والتجارب في البرتقال كلها سائرة على التطعيم بالنارنج، وهم يجربونه الآن على شيء من غيره من الموالح الأخرى! كما أنهم يجربون كل أنواع السماد ليتبينوا الأصح منها للموالح.
ومما رأينا في تجاربهم أن الشجر يُزرع على طريقة الثالثولث المعروفة عندنا، ولكن ثمرة أقل منه في الصفوف المستقيمة المزروعة على التربيع، ومن وقت ما تُزرع الشجرة تطعم بعد سنة، أو سنتين، وتتشرم بعد أربع سنوات، يعني بعد ست سنوات من مبدأ

زراعتها، ومتوسط محصول الفدان في المقاطعة كلها (كاليفورنيا) من ٢٥٠ إلى ٥٠٠ ريال في الأراضي الجيدة، وربما بلغت مصاريف الفدان إلى نصف ذلك.

ومزارع الفاكهة عندهم كل على حدته؛ فالبرتقال وحده، والليمون وحده، والمشمش وحده، والتفاح وحده ... وهكذا، وذلك كله لأجل تقدير الماء اللازم لكل صنف وسقيه في أوان شربه، ويُقْرَب من هذه الجهة مزرعة من العنب كبيرة جدًا مشهورة بكرورها، وهي لأخوين إيطاليين، وعنها يباع إما فاكهة أو مجففًا (زيبيب) أو على هيئة شراب لهذا الذي يسمونه في الاستانة «بكمز»، وقد يزرون البقول بين أشجار الفاكهة، حتى إذا كبرت حرشوها بحالها لتكون سماماً.

ويقال إنهم زرعوا القطن في هذه الجهة ولكنهم رأوا مصاريفه أكثر من محصوله، ومياه الشرب تأتي إلى المزارع في أنابيب من الحديد، فترى على كل قناة حنفيّة إذا أطلقوها تَفَجَّر منها الماء، ولهذه المياه شركة مخصوصة لها آبار أرتوازية تعمل ليل نهار لسقي المزارع في تلك المنطقة؛ لأن الأنهر فيها تجف مدة الصيف، وقد يشرب الشجر بِرَشه رشاً كثيراً بواسطة خراطيم يثبتونها في الحنفيات التي نراها هنا وهناك وسط المزارع، والماء يسير في المواسير في كل مزرعة كل أربعة أسابيع خمسة أيام فقط، وماء الآبار الأرتوازية على مائتي قدم من سطح الأرض، وهو يسقي المزروعات والمدينة، ومصاريف الفدان من الماء ١٢٠ ريالاً في السنة.

ومن أغرب الأمور أنهم يُمْرِّرون الماء الساخن في مواسير تخلل بعض مزروعاتهم مدة الشتاء!

والأمطار تقل جدًا هنا مدة الصيف، ولا تتدنى إلا من نوفمبر، وليس هنا من ترّع إلا مدة الصيف، وأكبر أنهار هذه المنطقة هما «ساكلامنتو، وسان فاكين» وهما بعيدين من هنا، ويتحدان قريباً من سان فرنسيسكو، وتendum مياههما في الأقيانوس، وقد فَكَّرَ القوم هنا في مياههما لعمل أحواض للري، ولكن هذا المشروع يحتاج إلى مصاريف باهظة، خصوصاً في اختراق بعض المناطق الجبلية، وهم يفكرون الآن في تسيير مياه نهر كولورادو إلى هذه الجهة، وهذا المشروع يحتاج أيضاً إلى عمل خزانات واسعة تكاف مائة مليون ريال!

والتسميد تجربته دائرة حول خلط بعض الأسمدة بعضها بعض على نسب مختلفة، نترات صودا، سلفات نوشادر، نترات بوتاسا، سنانيد، بلدي، ونتيجة هذا التجارب لا تظهر إلا بعد عشر سنوات على الأقل، أما مدار السباح عند الأهالي فعل السباح البلدي (سباح الإسطبلات).



أحد مناظر مكسيكي بارك بكاليفورنيا.

إلا أنهم يعنون بهذا السماد الأخير (البلدي) عناية تتناسب ما يلزم لكل زراعة منه، حتى يكون وافٍ بالغرض من تغذية كل صنف من الأصناف المنزرعة، ويحفظونه من التأثيرات الجوية؛ فلا يعرضونه إلى الشمس، ولا إلى التيارات الهوائية كثيراً حتى لا يفقد بالتبخر العناصر المغذية للنبات (كما هو الحال عندنا!).

أما أمراض النباتات فالطرق المستعملة فيها هنا هي الطرق المستعملة في مصر من تبخير ورش، ومن حُسن حظهم لا توجد عندهم تلك الآفة الثقيلة التي لا توجد إلا في حوض البحر الأبيض المتوسط، وهي ذبابة الفاكهة، وقد أخبرني المرحوم أباذهلة بك أن قسم الحشرات بمصر وصل في سنة ١٩٢٦ إلى نتائج مُرضية في مقاومة هذه الذبابة.

وأول زراعة البرتقال هنا تبتدئ من سنة ١٨٧٥ م على يد سيدة اسمها «مسز تبت»، أخذت هذه السيدة شجرةً من ولاية واشنطن وزرعتها في هذه الجهة، وكانت هذه المنطقة صحراً لا يسكنها غير الرمل والهواء، فقدمَ إليها جماعة المبشرين، وفتحوا فيها أبواب الاستعمار بواسطة الدعوة العامة للناس، فوصلَ إليها جماعات اشتروا مساحات واسعة من الأرض بثمن بخس دراهم معدودة، وأخذ هؤلاء من جهتهم يدعون الناس بكل وسائل الإعلان متسلحين لهم في بيع ما ليسوا في حاجة إليه من أملاكهم الواسعة، فلم يمض زمانٌ



سانتا باربارا أو دار المبشرين بكاليفورنيا.

كبيرٌ حتى استعمر الناسُ هذه الجهة، وأخذوا يزرون في تربتها الجيدة مختلف الشجر حتى أصبحت كما ترى.

زرتنا المدينة فرأيناها جميلة ونظيفة، ومساكنها بعيدة عن بعضها رغمًا عن شوارعها الكثيرة، والتي إنما خطّت للمستقبل، وفي تقاطع بعض الطرق مثبت في رأسه دائرة مسورة بالحديد فيها شجرة برتقال قد شاخت، وعملوا لها دعامات تحمل أغصانها، وهذه هي الشجرة الأولى التي زرعتها مسز تبت، هي الشجرة التاريخية التي شاهدت من أولادها ما غير منظر الصحراء إلى هذه الرياض الريانعة، التي تدرّ الذهب على أصحابها، وفي جوار الشجرة قطعةٌ من الرخام منقوشٌ عليها تاريخها، ويقرب من هذه الجهة جبل ارتفاعه ۱۲۵۶ قدماً، يسمى جبل روبيدو، صعدنا إلى قمته بالأوتوموبيل في طريق متعرجة، فظهرت لنا المدينة مستطيلة من الشمال إلى الجنوب، تكتنفها الأشجار من كل ناحية، ويحيط بها من جهةٍ غاباتٌ من الكافور والسرво ومن غيرها غاباتٌ من البرقال، مما لا ترى له مثيلاً في مدن أخرى، وفي غربيها نهر سارنابا، وفيه قليلٌ من الماء الراك، وهو يجف مدة الصيف ويكثر ماؤه مدة الشتاء، ولما وصلنا إلى قمة الجبل ظهرت لنا مساكن المدينة وكلُّ ما فيها كأنها روضة من الرياض، أو غيضة من الغياض.

وفي هذه المدينة كلية للحرم (الهنود) الذين يُكثرون في هذه الجهة، ويظهر أن أول من استعمر هذه الجهة الإسبان؛ لأن فيها كثير من الأعلام الإسبانية؛ فلُفظ روبييدو مُحرَّف عن «توبيدو»، وهو ذلك الجبل الموجود في برشلونة، ومقاطعة نوفادا الصحراوية إنما سُمِّيَت باسم نوفادا الجبلية التي تقطع بلاد إسبانيا من شمالها إلى جنوبها تقريرًا بميل إلى الغرب، وقد تعشينا في أهم لوكندة من هذه المدينة وهي على النظام الإسباني، وإن شئت فعل النظام العربي الأندلسي، وبعد العشاء قصدنا قطارنا الذي قام بنا إلى مدينة لوس أنجلوس، وقد تركنا في هذه المدينة حضرة العالم الفاضل «المرحوم محمود بك أباظة لزيارة ولاية كاليفورنيا»، والتقتيش على الطلبة المصريين الموجودين بها، فقدت في سياحتي به أنيساً وقاموساً! فَقَدْتُ بِهِ أَنِيسَاً كَانَ يَعْلَمُنِي بِلطفهِ وَأَدْبِهِ وَعَطْفَهِ وَكَرْمِهِ، وَلَا غَرَابةٌ فِي ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ وَرَثَ هَذِهِ الْمَكَارِمَ عَنْ مَحْتَدِهِ، وَفَقَدْتُ بِهِ قَامُوسًا زَرَاعِيًّا كَنْتُ أَجَأَ إِلَيْهِ فِي كُلِّ مَا يُشَكِّلُ عَلَيَّ أَمْرًا، فَكَانَ يَفِيَضُ عَلَيَّ وَفَنَّا بِمَا أَفَادَنِي كَثِيرًا رَحْمَهُ اللَّهُ تَعَالَى.

(٤٩) ولاية كاليفورنيا

هذه هي البلاد الغنية بثروتها المعدنية والزراعة، وهي واقعة في غرب الولايات الاتحاد على المحيط الهادئ، هذه هي البلاد التي وهبها الله من طبيعة أرضها، واعتدال جوها، ما جعل الزراعة فيها تنمو نمواً لا تراه بأرض غيرها من أي جهة من جهات المسكونة؛ فبينما ترى حدودها على المحيط جبالاً صغيرة، قد اتخذت فيها الطبيعة خزانات للمياه التي تكون من مناطق التلوج الواسعة، والتي تنحل شيئاً فشيئاً على طول أيام السنة فتفجر منها العيون، وتكون منها البحيرات التي تتغذى الأنهر الطبيعية التي تتخال تلك الغابات الشاسعة التي تغطي مساحات هذه الجبال على مسافات بعيدة الأطراف، مما تبلغ مساحته مئات الكيلومترات، وترتفع أشجارها في الجو إلى أكثر من خمسين متراً، ويصل قُطْرُها إلى ستة أمتار في الغالب، حتى إذا اتجهت مياه هذه الأنهر إلى ما وراء المنطقة الجبلية، وتغلغلت في وسط تلك السهول الواسعة بما هذبته يد الإنسان من مجاريها وجداولها وأبارها الأرتوازية، وبما أقامته من هذه الخزانات الصناعية التي تدبر المياه إلى مزارع هذه المنطقة في الوقت المناسب، أحالت تلك الصحاري إلى جنات ذات ذوات أفنان فيها من كل فاكهة زوجان، مما اشتهرت به هذه البلاد من حيث وفرة المحصول وجودته، مما لا يوجد له مثيل في العالمين القديم والجديد، وعلى الخصوص في التفاح والكمثرى والبرقوق والممشمش والخوخ.

ونجد إلى جانب هذه الجنات تلك المراعي الواسعة التي ترعى فيها مئات الآلاف من الأبقار والخيول والغنم، حتى إذا جاء الخريف، وجفَّ الماء، انتقلت الماشية مع رعياتها إلى مساحات الجبال لترعى في المناطق التي يستأجرها أصحابها من الحكومة، وإلى جانب هذه المراعي ترى بعض مزارع القمح والأرز، خصوصاً في جهات «سكلمانتو»، ولم يُزرع الأرز بها إلا في سنة ١٩٠٠م، وهو ينمو فيها نمواً عظيماً، حتى إنهم يُقدِّرون محصوله الآن في هذه الولاية بأكثر من ٣٠ مليون دولار! وهم يُصدِّرون على الخصوص إلى بلاد اليابان. ويُزرعون في كاليفورنيا الخضروات المختلفة والبطيخ والشمام، وهو من أحسن ما أكلنا من نوعه، وهو في شكل القاون الأزمريلي، وربما كان أحلى منه، وأكثر اصفراراً. أما الكرم وما أدرك ما الكرم! فقد كان من أكثر ما يُزرع في أرض كاليفورنيا إلى سنة ١٩٢٠م التي حَرَّمت حكومة الاتحاد فيها الخمر في كل ولاياتها، غير أن هذا التحريم لم يمنع القوم من الانتفاع بفاكهه الكرم على المائدة، فينقلونه في عربات خاصة إلى أطراف الولايات الاتحاد - خصوصاً ووفرتها إنما تأتي بعد وفرة غيرها من الفواكه الأخرى - وقد يعلمون منه الزبيب، ويصنعون منه شراباً «بكمن» يستعملونه في فصل الصيف. وفي جنوب كاليفورنيا يُزرعون من الفاكهة: البرتقال، والليمون، والزيتون، والجوز، واللوز، والنخيل.

وينسبون وفرة محاصيل كاليفورنيا وجودتها إلى نظام الري بها، حتى إن وزير مصر المفوض طلب من حكومته إرسال بعثة من رجال الري لدراسة أنظمته في كاليفورنيا. ومن جهة أخرى فإن جودة الفاكهة في هذه الولاية يرجع إلى اهتمام القوم بتربية الأشجار، فإذا جاء الشتاء يرشون سيقان الأشجار بالجير، وفي الربيع يرشون فروعها وأوراقها بمحلول من سلفات النحاس بواسطة طلمبة متحركة على عجل. وذلك لحمايةها من الطفيليات التي قد تفتت بها، وقد يغطونها في الشتاء ويدخنون تحتها بمادة معدنية ملتهبة «كالغاز»، ولا شك فهم يأخذون ثمن هذه العناية مضاعفاً من جودة محصول الفاكهة التي ينقلونها إلى الولايات الاتحاد وغيرها من أنحاء المسكونة، وهي في نضارتها، أو مجففة، أو مجهرة في علب.

والفواكه التي تُخَصَّص للتجفيف تُنقل إلى الحقول التي يفرشونها بالقش فتُنثر عليه، أو تُنْتَقل إلى بيادر خاصة بها مقسمة إلى مربعات صُنِعَتْ أراضيها بالأستانة، فتُتَفَرَّشُ عليها معرَّضة للشمس جملة أيام.



شارع في ضاحية على المحيط الهادئ.

ولا بد من استخراج نوى المشمش والخوخ قبل تجفيفهما، ولا بد من تعهد الفواكه المجففة من وقت إلى آخر؛ حتى لا تفقد رائحتها ومرونتها بمكثها زيادة عما يلزم تحت أشعة الشمس.

وهنا يحسن بنا أن نشير إلى عملية تجفيف البلح العامري بشرقية مصر على الخصوص، وما يسمونه بالعوجة على العموم؛ فإنهم يفرشونه على الرمل ويتركونه من غير عناء بتقليبه وهو على كتلته السميكة فيفسد نوعه، وكثيراً ما تتولد البكتيريا على قشرته، بل وتخترقها إلى الداخل، أو تراه يجف أكثر من اللازم فيكون أشهب شيء بقطع من الخشب المسكر.

أما الفواكه التي تُخصص للحفظ فتُنقل إلى مكان فيه موائد طويلة فتنتقله البنات اللواتي يلبسن لهذه العملية لباساً أبيض نظيفاً، وبسگين مخصوص يُقطّعنه إلى نصفين ويستخرجن ما فيه من النوى، ثم يُنقل إلى خزانات فيها الماء في درجة الغليان، حيث يتحرك فيها بالآلة حتى تتقلص منها قشرته وتسقط عنه، وهناك يوضع على شريط عريض متحرك بحركة أوتوماتيكية إلى قاعة بها عاملات يأخذنه ويَضعُنه في علبة، وأمام كل منهن حنفية فيها عصارة مس克راة تصل إليها من خزان في الدور الثاني، فتضخ العاملة منها ما تيسر في العلبة، وبعد وزنها إلى المقدار اللازم توضع العلبة على الشريط المتحرك

فينقلها إلى قاعة بها عمال يضعون عليها غطاءها، ثم تُنقل إلى غيرهم فيلجمونها، وبعد ذلك يضعوها في خزانات فيها ماء مغلي بضعة دقائق لتعقيمها، ثم تُنقل إلى حيث يوجد علىها الغلاف الذي عليه اسم المعمل، وترسل إلى حيث أرادوا.

وهذه المعامل لا تشغّل إلا مدة المحصول — أعني مدة شهرين من السنة — وتعلّم فيها طالبات المدارس زمن العطلة التي تواكب زمان محصول الفاكهة، فيستفدن من ذلك في عطلتهن أجرًا لعملهن، وصناعةً تفيدهن في تدبير حياتهن المستقبلية.

(٥٠) يوم ٥ يوليو

وصلنا في الليل إلى مدينة «لوس أنجلوس»، والمسافة إليها ٥٨ ميلًا، وهي مدينة على بضعة كيلومترات من الأقيانوس الهادئ، وكان تعدادها في أول هذا القرن مائة ألف نفس، وهي الآن إذا أضيف إليها ما يحيط بها من الضاحيّات التي وُجِدَتْ بوجودها يصل عددها إلى مليون نفس؛ والسبب الأول في عمرانها السريع هو جودة مناخها الذي أصبحت معه مصيفاً لأهل كاليفورنيا، ولل كثيرين من أهل مكسيكا، خصوصاً بعد فتح قanal باناما الذي أعطى أهمية كبرى إلى مدينة سان بندرو التي صارت مرفأً لأنجلوس، وتبعده عنها نحو ساعة بال ترام إلى البحر ضاحيّة اسمها بساريينا وهي مشتى الأغنياء، ومركزها هنا كمرکز نيس من فرنسا.

والسبب الثاني: هو أنها أصبحت عاصمة للألعاب السينمائية في العالم كله، وكانت لذلك مورداً لجميع المشغلين بهذا الفن من جميع جهات المسكونة، ولا غرو إذا أصبحت بهذا كله يوماً من الأيام نيويورك الغربية.

وتتصل أنجلوس بالأقيانوس بجهة اسمها هولي هود، وهي قطعة من أجمل ما يمكن أن تراه العين نظاماً في مساكنها التي جمعت إلى لطافة الشكل جميل المنظر، وهي، وما أدرك ما هي! مقر النابغات والنابغين في هذا الفن، ومن ضمن مباني هذه الجهة واجهة تياترو مصرية قديمة آية في الجمال، بحيث لم يكن عندنا بمصر ما يماثلها أو يقرب منها، ويبعد عنها قليلاً على الأقيانوس جهة اسمها بيفرلي هيلز، وقد ترى بها لشركات مختلفة ميادين جمعت أمثلة كثيرة من أشكال البناء المتغيرة في صور كثيرة؛ فمنها ما هو وجهات، أو دخلات، أو صالات، أو غرف، أو أبهاء، وما هو مدخل كنيسة، أو داخلاً، وما إلى ذلك من أشكال كثيرة رومانية أو مصرية، وما إلى ذلك من أعمدة وإيوانات وغيرها، وكل هذا إما من الورق المضغوط، أو من البغدادي الذي لا يكون فيه كثير مصروف في

إقامةه أو إزالته، وإلى جوار هذا كله كثير من القطع التي يمكن أن تتكون عنها أشكال متعددة مختلفة؛ فإذا أرادوا تشخيص رواية وضعوا لها الأشكال التي تناسب أدوارها من هذه المناظر والقطع، كلٌ على حده، وفي كل شكل يأتي ممثلاً الرواية فيمثل كلٌ قطعه على الوضع الخاص بها، وفي أثناء تمثيله تؤخذ صورته الفوتوغرافية في مناظر متعددة بحسب الأوضاع التي له فيها، قليلة كان أو كثيرة.



تياترو جومون المصري في هولي وود بكاليفورنيا.

وفي هذه الجهة تؤخذ ٨٥ في المائة من الصور السينماتوغرافية في العالم كله؛ ذلك لأن الجهة وافية بجميع الأغراض الازمة لها، ففيها البحر، والنهر، والرياض، والغابات، والمغارات، والصحراء، والجبال، والصخور، وغيرها من المناظر الطبيعية المختلفة، مما لا يمكن أن تراه مجتمعاً في صعيد واحد، وعدا ذلك فهوئها وسماؤها وشمسها مما يوافق عملية الفوتوغرافية كثيراً.

بهذا كله كانت لوس أنجلوس مقراً للعمليات السينماتوغرافية ومسكناً لمن يسمونهم بنجوم السينما.

نعم قد ظهرت في سماء أنجلوس شموس الجمال من كل إقليم، في العالمين الجديد والقديم، وهم خلاصة الخلية في الحقيقة، والذين جمعوا جمال الخلقة، إلى لطافة الروح، إلى رشاقة الجسم، إلى حلو الحديث، إلى خفة الحركات، بحيث أصبحوا وفي وسطهم من الجنسين من كُلِّ في خلقه وخُلقه، حتى كان الله تعالى أنسأه على ما يهوى، وأوجده على ما رسم لنفسه من حسن إبداع، وجمال اصطناع! لذلك لم يجد لسان المدنية الراقية بأوروبا تسميةً لهم إلا لفظ «نجوم السينما»، ذلك اللفظ الذي يطلقونه على المشخصين والمشخصات إذا طلعوا في سمائه وظهروا بين أرجائه؛ ذلك لأنهم يفيضون على الناس من أنوارهم ما يكون حياة للنفوس، وغذاء للأرواح، فكم فيها من مشترٍ (نجم)، يبتاع النفوس بكمال إحسانه! ويستهوي العروس بسحر بيانيه! وكم فيهم من زهرة (نجم) تخجل من جمالها الأقمار! وتعنوا لتألها وتمثيلها الآخيار والأبرار!

وبالجملة فهم أفراد جاد بهم الزمان علىبني الإنسان، فيهم محاسن الحور العين، ومتع الدنيا والدين! فيهم من كل بحر قطرة، ومحضرات التاريخ والعبرة! تدرس في تشخيصهم من آداب الاجتماع، ما لم يخطه يراع. وهل ترى فيهم إلا نادياً للأخلاق عليها وسليمها؟ ومسباراً لقرارة النفوس صحيحاً وسقيماً؟ ترى فيهم كل ذلك في قصة شهيبة، تتقبلها النفوس بحسب ما ترى فيها من لذة للأشباح والأرواح، لا يهم الأولى منها إلا رواء المنظر، وسناء المظهر، أما الثانية فحَسْبُها نصيبيها من الخبرة والعبرة.

ولو عرفت أنْ ليس في الناس الآن كثير من أمثال «دلورس كوستالو» و«ديل ريو» و«لليان جيس» و«ونكان سسترز» و«بروسكلادين» خفة روح، وجمال خلق، وكمال تكوين، ودقة عمل، ومقدرة على تمثيل العواطف، وترسيم ما تكُنُّ الحشاشات من دقيق الإحساسات، ولو عرفت أن هناك أشخاصاً مثل «شارلي شابلن» و«جاكي كوجان» و«أمييل جنج» وهم أفادوا في مهنتهم، وأفراد في دائرة صناعتهم، وكأنني بهم وقد تعلّموا السحر من هاروت فأصبحوا فتنة للناس، يتلاعبون منهم بكل عاطفة وإحساس، إن شاءوا أبكوهם! ثم إن أرادوا أضحكوهم! حتى لكان قلوب النظارة بين أيديهم يلعبون بها كيف أحبوا! وكأنني بك وأنت تشاهد شارلي شابلن على مسرحه، ذلك التعس البائس فتعطفك عليه رحمة تکاد ترتفع بيديك إليه بدريرهمات تسد من حاجته! وما هو وأبيك إلا صاحب الملايين، والذي في قصره من الخدم والخدم من هم في غبطة بخدمته، ولو عرفت أن ليس أحد من الناس من يصل أجره في عمله إلى ٥٠٠ جنيه في الأسبوع غير أمثال هؤلاء من ممثلي السينما، لو

عرفت هذا كله عرفت أن السينما قد أصبحت الآن من أكبر العوامل على رقي المدنية، إن لم يكن أكبرها.



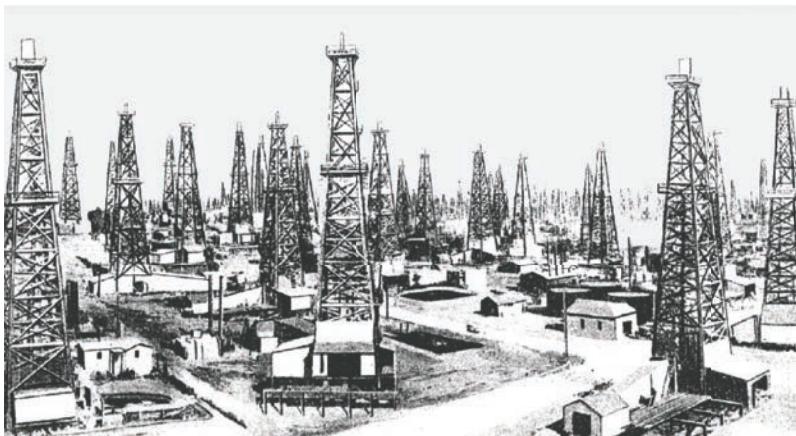
منظر إحدى الحدائق العمومية على المحيط الهادئ.

ولقد وصلوا بالسينما إلى وضع قواعد للعلم بما لا يمكن للنظريات شرحه وتبيينه، وما عسى أن تشرح نظرية حياة الأسماك في قاع البحار؟ أو الصناعات المختلفة في مصانعها! وهل يمكن لليراع أن يشرح أعاجيب التاريخ الطبيعي؟ وأن يُقرب إلى خيالك تلکم الميكروبات التي لا يمكن مشاهدتها إلا بالمجهر؟ كأنني بالعلم من هذه الناحية كلام في كلام، إذا دخل من أدنى الطالب قلًّا لا يخرج بسرعة من الأذن الأخرى، اللهم إلا إذا أمسك به الشخص بكلاليب جهاده واجتهاده، أما الصور السينماتوغرافية فهي عملية صرفة، يراها الطالب قد ترتسم في مخيلته بحالها وبدون أدنى مشقة، ولا تزول صورتها منه بسهولة مهما كان غبيًّا، وعلى هذا الحال كأنني بالسينما إذا كانت الآن مدرسة للأخلاق والعواطف وأداب الاجتماع، فسيكون غدًا الجامعة الكبرى للتعليم بما لا تتصوره الأحلام، ولا تقوى على تمثيله الأقلام، وإذا كان الآن فيه بعض تسلية الأفراد، فسيكون له غدًا كبير الشأن في تربية الجماعات، وإذا كان الممثلون الآن يتحركون في ثبات ويتكلمون في صمت،

فقد نسمع صوتهم على المسرح يوماً ما؛ لأن إديسون أكبر علماء الطبيعة في أمريكا بل في العالم كله يعمل لذلك من زمن، ويقال: إنه قد وصل في عمله إلى ما يتحقق به أمله.^٥

ولقد توجهنا إلى الاستحمام في البحر في جهة تبعد ٣٢ كيلومتراً عن أنجلوس، وعندما اقتربنا من هناك فإذا بنا نرى غابة من الأشجار العالية على تلٌ كان يقطع علينا طريقنا، فلما دنونا منها وجدنا تلك الأشجار إنما هي تخايب من حديد هرمية عالية، وعرفنا أن كل تخايبة من تحتها بئر من البترول! وطول هذه الغابة عشرون ميلاً، وقد اكتُشف البترول فيها في سنة ١٩٢٠ م، وهي ملايين كثرين، وقد رُكِبتْ على هذه التخايب طلبات ماصة كابسة (لومبيدج)، تدور بالآلات رافعة بالغاز، وبين الطلمية والأخرى عشرة أمتار أو أقل، وعدد هذه الآبار الآن ١٥٠٠ بئر! وقد صدرُوا منها في السنة الماضية ٢٠ مليون برميل! وإننأسألك الآن بعد أن عرفتَ مقدار ما استُخرج في سنة واحدة من آبار البترول التي بينك وبينها عشرات الآلاف من الكيلومترات، أسألك عن مقدار البترول الذي يخرج من بلادك (مصر) فهل يمكنك أن تجيبني؟ اللهم إني أشتراك معك في الجواب وهو: كلام كلام! وصلنا إلى الجهة التي بها الحمامات وهي من ضواحي أنجلوس، ويسموها بشاطئ الباسيفيك، وفيها أبنية جميلة، وعلى الأقيانوس مباشرة ترى فيها اللوكنات الفخمة، ومن دونها رصيف طويلاً في جانب منه متسع رملي (بلاج) تحيط به أبنية الحمامات، دخلنا بناء منها ولبسنا لباس الحمام ونزلنا إلى الماء في وسط جمع من الرجال والنساء والأطفال، وحرية القوم في البحر لا يحيط بها شرح، وإذا كان الله تعالى يقول: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَمِ حَرَجٌ﴾، فالمدنية الحديثة تقول: «وليس على البصیر حرج» إذا كان البصیر يتحرك في دائرة بكل ما يملك من حریته، أما إذا اشتراكاً معه حاسة أخرى يظهر معها أثر قد تحرّمه الآداب العامة، فهناك يكون الخطر كل الخطر، وليس العيب هنا عيباً لذاته كما تراه الشرائع على اختلاف أصولها، ولكن العيب لا يكون عيباً إلا إذا ظهر أثره لعين القانون. وماء الأقيانوس هنا بارد جداً، وفيه شيءٌ من رائحة البترول، وقد يعلق بجسم الإنسان شيءٌ متجمداً منه لا يزول إلا بمادة الجازولين التي تجدها لهذا الخصوص في بناء الحمام تحت طلبك، وبعد الحمام ركبنا عرباتنا إلى أنجلوس، ومنها إلى القطار الذي قام بنا ليلاً متوجهاً إلى الشمال حتى وصلنا إلى مدينة «فريسنون».

^٥ وقد تحقق هذا الأمل فعلاً، وأصبح التمثيل السينمائي ناطقاً بعبارات المشخصين والمشخصات وبأغانיהם الجميلة، بما يقرب من درجة الكمال التي سيصل إليها قريباً من غير شك.



بعض آبار البترول في سجنل هيل.

(٥١) يوم ٧ يوليو

وصلنا إلى فريسنو في الساعة التاسعة من صباح ٧ يوليو بعد أن قطعنا إليها مسافة ٢٧٨ ميلًا، وهي واقعة تقريرًا في منتصف المسافة بين لوس أنجلوس، وسان فرنسيسكو، وعدد أهلها ٦٤ ألف نسمة، وتبعد عن الأقيانوس شرقاً بأكثر من عشرة أميال، وقد رأينا سوقها النقال في ميدان بجوار حديقة جميلة، يقيم التاجر فيه تحت خيمة صغيرة مثبتة على عصا مركوزة في الأرض كالتي عندنا في مثل هذه الأسواق إن كان لا يزال لها أثر، ولم تفرض عليها الشركة حتى تختص بكل شيء لذاتها! وأرض هذه الجهة من أحسن الأراضي الصفراء التي تنموا فيها على الخصوص بساتينتين، ولم أرَه هنا في غيرها بهذه الكثرة، وهو ينضج في شهر أغسطس، وما وها كثير صيفاً وشتاءً، وقد زرعوا القطن في أراضيهم، ولكنهم يقولون: إنه لا ينضج إلا إذا كانت الحرارة في سبتمبر عالية.

وتكثر هنا مزارع الخوخ الجيد العظيم، والمشمش الذي لا نظير له، والعنب والزيتون، وهم يرشون سوق أشجار الفاكهة الحلوة بماء الجير لاتقاء المرض، ومع كثرة المياه هنا تجد سوادي الهواء الحديدي بكثرة حول المساكن لرفع الماء من بُعد ٢٠٠ قدم للشرب. وقد أمضينا هذا النهار في امتحان تربة الأرض في أماكن كثيرة، وهي تربة من أحسن ما رأينا في كل أراضي الولايات المتحدة، وفي المساء عدنا إلى قطارنا فقام بنا إلى مدينة «أوكلاند».

(٥٢) يوم ٨ يوليو

وصلنا في صباح هذا اليوم إلى مدينة أوكلاند بعد أن قطعنا إليها مسافة ٢٠٢ ميل، وهي مدينة كبيرة عدد سكانها ٢١٧ ألف نفس، وواقعة على خليج سان فرنسيسكو، وهذا الخليج يمتد من الشمال إلى الجنوب على شكل بحيرة لها فتحة على الأقنيانوس من غربها وفي وسطها، وعلى طرف الفتحة من جنوبها مدينة سان فرنسيسكو وتجاهها على حافة الخليج الشرقية مدينة أوكلاند، وفي شمال هذه مدينة «بروكلين».

(٥٣) سان فرنسيسكو

كانت هذه المدينة إلى منتصف القرن الماضي صغيرة جدًا، وعدد سكانها ٨٠٠ نفس، فلما اكتُشِفتْ معاين الذهب قريباً منها في سنة ١٨٤٨ م أخذ الناس يَتَبَعُونَ إلى هذه الجهة، وأوى إلى هذه المدينة كثير منهم، وكانوا يقيمون لهم مساكن من الخشب، فلما امتلأَتْ جيوبهم أخذوا يشيرون بها القصور والعمارات، ويمهدون بها الطرقات، حتى إذا ضاق بهم رحبها ردموا منطقة كبيرة من الخليج مما كان يكتفه من التلوّل، وبنوا فيها كثيراً من المجال التجارية التي اتصلت مع الشرق الأقصى بعوامل التجارة المختلفة، خصوصاً مع الصين، واليابان، وشرق سيبيريا، والفلبين، وجاوه، وأستراليا، بما ترى معه المدينة بعد سبعين سنة من عمرها وقد أصبحت من أكبر مدن الولايات المتحدة، ولو لا ما صادفها من ذلك الزلزال الشديد في سنة ١٩٠٦ م. ذلك الزلزال الذي هدم أغلب مبانيها وأتى بعاليها وسافلها لكتن تراها أكبر وأضخم مما هي عليه، وبالجملة فهي أكبر ثغر تجاري في غرب الولايات الاتحاد، وتجارتها على الخصوص في الحرير والأرز والسكر والبن، وتُصدَّرُ كثيراً من الحبوب والفاكهه والآلات الزراعية، وعدد أهلها يبلغ ٧٠٠ ألف نفس، وهم خليط من فرنساويين وألمان وصينيين ويابانيين، وعلى هذا الجنس الأصفر الأول مدار الحركة في الخدمة العامة، وعلى الثاني الحركة في الزراعة على الخصوص.

وكان اليابانيون يملكون في سنة ١٩١٩ م «٥٨٠٠٠» فدان من أراضي كاليفورنيا التي يبلغ مجموعها ٣٨٩٣٠٠ فدان، أعني أنهم كانوا يملكون ثمن أراضيها تقريباً. وكانوا يشتغلون في الزراعة بنشاط كبير، حتى أصبحت مواردهم منها واسعة، وصادراتهم لبلادهم كبيرة جداً، مما حرك سخيمة الأميركيان على الجنس الأصفر في عمومه، على أن الصيني بوداعته ومرؤنته أمكنه أن ينال عطف الرجل الأميركي بعد أن



مدينة سان فرانسيسكو.

وقف هجومه الاقتصادي على هذه البلاد، وها هو الآن يتمتع بتجارته التي ترى لها شارعًا مخصوصاً في سان فرانسيسكو من غير ما حنق من مواطنه الأمريكي؛ ذلك لأن خوف الأميركيان اتجه إلى اليابانيين الذين كان عددهم بالولايات المتحدة كلها في سنة ١٩٠٠ لا يزيد على ٢٤ ألف نفس، فأصبح في سنة ١٩٢٠ م ١١١ ألف نفس، منهم ٧٢ ألف في كاليفورنيا وحدها! وكان الرجل منهم يبدأ عمله صغيراً فلا يعتم أن يصير كبيراً، حتى أصبح منهم أرباب المصانع والتجارات والأراضي الواسعة؛ لأنهم لم يجدوا أمامهم في أول أمرهم قانوناً يفهم عن الحد الذي وقف عنده الصينيون؛ ذلك أن الياباني كان يعيش في ظل دولته التي ظهرت بقوتها الحربية بانتصارها على الروس في سنة ١٩٠٥ م، أضف إلى ذلك جهاده في طريق الحياة جهاداً يفوق جهاد الأميركي بكثير، فالإلياباني يعمل في مزرعته ١٦ ساعة، في حين أن الأميركي لا يعمل إلا بمقتضى قانون العمل (٨ ساعات)، والإلياباني تعمل زوجته كل الأعمال المنزلية ثم تساعد زوجها في مزرعته! والمرأة البيضاء لا تعمل إلا بإرادتها، والإلياباني مقتضى بطبيعته — بل أكثر من مقتضى — يرضيه القليل، ويشبعه التافه من الغذاء واللباس، أما الأميركي فيعيش في سعة بنظام لا يمكنه أن يتخلّى عنه، ولو استمر الحال على هذا المنوال أصبح الجنس الأصفر وفي يده مراقب البلاد المالية كلها! نظر الأبيض إلى هذا الخطر فتنى كل عاطفة إلا عاطفة الاستبداد بهذا الأجنبي الفظيع، فاستصدر قانوناً في سنة ١٩١٣ م ثم في سنة ١٩٢٠ م يُحرّم على اليابانيين امتلاك

الأراضي، ثم أُعلن قانوناً بتحريم الزواج بالجنس الأصفر لعدم الكفاءة بينه وبين الجنس الأبيض، وبعدم قبول تغيير جنسيتهم إلى الجنسية الأمريكية. وفي سنة ١٩١٧ م أمرت حكومة الاتحاد ممثليها في اليابان بعدم إعطاء جوازات سفر إلى اليابان. وفي سنة ١٩٢٠ م استصدرت قانوناً يبيح لها طرد كل آسيوي من بلادها لسبب أو لغير سبب! ولا يدرى إلا الله ما هي فاعلة في غدها؟



منظر مدينة سان فرانسيسكو من جهةها الشرقية.

وفي سان فرانسيسكو قسم للصينيين يسمونه المدينة الصينية، فمهدت لنا الغرفة التجارية زيارة مساءً، وهو الوقت الذي يزورونه فيه عادةً، وهو الوقت الذي تتجلّى فيه الطبيعة على سان فرانسيسكو في عمومها، خصوصاً إذا كان الجو صحوًّا، فربّنا من أوكلاند المعدية البخارية وهناك رأينا الخليج غالباً بالفلك التي تغدو وتروح بين المدينتين، ولما اقتربنا من سان فرانسيسكو ظهرت لنا بعض المباني العالية بما ذكرنا بعض الشيء بمنظر نيويورك من جهة البحر.

نزلنا إلى مرفا المدينة، ذلك المرفأ العظيم الواسع، وركبنا الأتوبياثات الكبيرة التي أعدّت لنا لعمل دورة في المدينة، وكانت الساعة ٨ مساءً، وكانت مصابيح الإعلانات المختلفة

الأشكال والألوان تُظهر المدينة أمامنا كأنها في زينة هي حلتها الليلية العادمة، سرنا في شارع «مارك» وأظنه أكبر شارع في المدينة، فكانت المباني من جهتنا على أحسن ما تكون نظاماً ورواءً، وهي في جملتها لا تزيد أن تصعد إلى السماء كالحال في نيويورك، ولكنها في طبقاتها المعبدلة — خمس أو ست طبقات على الأكثر — قد لبست بديع النظام، وجمال الهدم، وفي أرضية هذا الشارع سك حديدي للترامواي بجوار بعضها البعض، وتقطعه جملة شوارع لا تقل عنه جمالاً، وأنوار الإعلانات في جميعها على ما يأخذ بالأ بصار، ومع ما وصفته لك من جملة هذه الأنوار فالحركة في الشوارع معبدلة، حركة عظيمة ولكنها هادئة مطمئنة كالمدينة التي تعيش في أكتافها، حركة تميل أن تكون شرقية! وهل قامت سان فرنسيسكو إلا على أيدي مهاجري الشرق الأقصى؟ هل ارتفعت مبانيها وتحطمت شوارعها وزرعت مجاهلها ودارت معاملها إلا على أيدي اليابانيين والصينيين والفلبينيين؟ تركنا المدينة التجارية ووصلنا إلى حي المساكن؛ حي هادئ تقل فيه الحركة، وتنعدم فيه الأنوار لولا ما نراه من مصابيح الأوتوموبيلات التي تندو وتتروح في طول الطريق أبنية صغيرة جميلة من ذات الطبقتين مما يسمونه بالفلات، والمدينة مبنية على منحدرات جملة جبال، فترى المباني على هذه المنحدرات إلى الوادي هنا وهناك في منتهى الجمال وخصوصاً بالليل، وهذه الجبال يتصل بعضها ببعض على شبه نصف دائرة أقواسها متعرجة، صعدنا على الجبل من طريق حلزوني في وسط المدينة! فكان حينما دُرْنَا نجد المدينة من تحتنا في زينتها البدعة بما تَخيَّلنا معه أن السماء انقلبت من تحتنا بما فيها من نجوم زواهر وكواكب بواهر! وقد ظهر فيها شارع برودوبي بأنواره الجمة كأنه المجرة تشق كبد السماء بأضوائها المتألقة!

ما زلنا سائرين من منبسط إلى منخفض، ومن قمة إلى قمة، حتى وصلنا إلى ما يسمونه المدينة الصينية! وهي هي في الشمال الشرقي من سان فرنسيسكو، طرفة إله ليلًا وهو هادئ في نومه وإن لم يكن هادئاً في ضميره، رأينا هذه المساكن على نظمتها الصينية في شكلها الخارجي، مساكن كل منها على حدتها، ومدخلها من أحد جانبيها يُصعد إليه بسلام من الخارج درجاتها في اعوجاج بين ضيق وانفراج!

تركنا هذه الجهة إلى جهة أخرى مساكنها أكبر وأظهر، ونظمها خليط من الشرقي والغربي، نظام ترى فيه صورة من البناء الياباني والصيني والأوروبي (إلا في المباني الكبيرة فهي على النظام الجديد الأمريكي)، وكان الأذواق اختلط بعضها ببعض ف تكون منها هنا ذوق واحد سرى في نظام البناء العام، وبعد أن انتهينا من هذه الزيارة البدعة عدنا إلى أوكلاهوما حيث قضينا ليانا في قطارنا الذي كان ينتظرنـا في محطتها.

وفي سان فرنسيسكو كثير من المدارس والمتاحف والمليادين والمكتبات وكله عادي في بابه، وقد أعجبني فيها «نادي الأطفال»، وهو نادٍ قام بتنظيمه أحد رجال هذه المدينة العاملين وهو مستر بكسوتو، ترك عمله واشتغل بنظام جديد ل التربية النشء على قواعد متينة؛ فأقام نادياً للأطفال، ودعا إلى الاشتراك فيه بواسطة الإعلان في الجرائد على أنَّ سنَ المشتركين من ١٢ إلى ١٦ سنة! وكان يدور على آباء الأولاد ويُفَهِّمُهم الفائدة التي تعود من هذا العمل الجليل، فامتلاً المكان بالمشتركين ففتح مكاناً ثانياً، ثم ثالثاً، ورابعاً.

وفي النادي جملة قاعات، واحدة للألعاب من دومينو إلى شطرنج إلى ورق كوتشنينا إلى بلياردو صغير، وأخرى للمحاضرات يحضرهم الرجل فيها بما يزيد في معلوماتهم العملية، لا على نظام الدروس ولكن على نظام الحكايات التي تشوق الصبية ويتوجهون بكليتهم لسماع قصصها، كما هو عندنا بالبيوت من حكايات الشاطر محمد، وستحسن والجمال، وأبونا الغول وأمننا الغولة، التي كلها سخافات يفسد معها فُكُر النشء من حيث لا يشعرون ولا يشعر بهم أحد!

وقد يحاضر الأولاد أنفسهم في مواضيع يجهزونها بإرشاد رئيس النادي مستر بكسوتو، وللنادي مجلة يكتب فيها الأطفال كل ما ورد بخاطرهم من فكاهات أو مواضيع علمية على حسب مقدورهم، وقد ترَّقتْ هذه الصحيفة بحيث أصبحت يقرؤها كثير من الناس لتفكيره بعباراتها الشيقة.

وفي حوش النادي العمومي ميدان للألعاب الرياضية يأتي إليه مشتركو التوادي الأخرى كلُّ في وقت خاصٌ به.

والمشتركين في هذه الأندية رحلات خلوية في كل صيف مع هذا المربى الكبير، فيأخذون ما يلزمهم من الخيام والغذاء إلى الصحراء، ويعيشون فيها أسابيع في زيارة الغابات والمزارع مما يزيد في معارفهم وينفعهم في صحتهم، وقد أصبحوا به رجالاً ثوب طفولتهم، والفضل في ذلك كله لهذا الرجل العظيم!

(٥٤) مدهشات الطبيعة

وعلى بُعد أربعين متراً من سان فرنسيسكو واد اسمه «أنوزوميث» ينتهي إلى جبال سيرانوفادا، فيه غابة كبيرة جداً، فيها نحو ٣٠٠ شجرة عتيقة، وفيها شجرة اسمها «سيكوايا جيجانتيا» يعني السيكوايا الهائلة! ومحيط هذه الشجرة ٢٩ متراً وقطرها تسعه أمتار وأربعون سنتياً! وارتفاعها ٨٢ متراً! وأكبر فرع فيها قطره متراً! ويبعد عن



بعض المباني بمدن الاتحاد.

الأرض بستين متراً! ويقولون: إن عمرها ٤٠٠٠ سنة! وقريباً منها شجرة اسمها النفق؛ ذلك أن القوم نقبوا في ساقيها نفقاً ارتفاعه ٣ أمتار وعرضه ٢ أمتار، وتَمُرُ من وسطه العربات الكبيرة بكل سهولة، ومع هذا فإنه لم يؤثر على حيوية الشجرة التي فقدت بهذا النفق كثيراً من كتلتها الغذائية! وإذا كان الأقدمون حصرموا عجائب الدنيا في سبعة آثياء، فلا بد أن نضيف إليها بمثل هذه الشجرة عجيبة ثامنة، ويقال: إنه كانت في هذه المنطقة أشجار كثيرة من هذا النوع، فسقطت عليها عاصفة أحرقتها ولم تَبْقَ منها إلا هذه الشجرة، وبها تَذَكَّرْت تلك الشجرة التي بمطيرية القاهرة (شجرة الجميز)، والتي يزعمون أنها أَظَلَّت السيدة العذراء ولدها عندما حضرت إلى مصر؟

وحيث إنَّا نَوَهُنا في الكلام على سان فرنسيسكو عن معادن الذهب في كاليفورنيا، فَيَجِدُ
أنْ ذَكْرَ لَكَ شَيْئًا عَنْهَا.

كاليفورنيا والذهب

كان عدد سكان ولاية كاليفورنيا في سنة ١٨٤٨ م ١٣ ألف نفس، حتى ساعد الحظ رجلًا من المورمون اسمه مارشال وصل إلى هنا هربًا من الضغط والفتائع التي كانت تنصب عليهم من البلاد المجاورة لـ دينية البحيرات المالحة التي وضعوا رجالهم بها، اكتشف هذا الرجل بِطَرِيقِ الصدفة في مجرى ماءٍ جافٌ شَيْئًا يلمع، فوجده تبر الذهب.

ولما داعَ أمرُ هذا الاستكشاف العظيم، هب الناس مرة واحدة من كل جهة يحفرون على طول النهر إلى قرية كولورنا، وحتى الجنود تركت ثكناتها، وحتى البَحَارة تركوا مراكبهم وأتوا بِبُلْطَهِم وسيوفهم يحفرون بها مع الحافرين، حتى بلغ عدد أهالي كاليفورنيا في سنة ٤٩ مائة ألف أو يزيدون.

وفي سنة ١٨٥٠ م كان الخبر وصل إلى أوروبا؛ فأخذ الناس يهاجرون منها بالآلاف إلى كاليفورنيا، وأخذ الصينيون واليابانيون يهجرون بلادهم إلى ساحل أمريكا الغربي للبحث عن هذا النضار الذي عَمَّ أمرُه جميع الأقطار، فكانت كاليفورنيا بابل جديدة اختلفت فيها الألسن، وتغايرت الناس إلى شعوب كثيرة؛ فمن أمريكيان، ومن فرنسيسين، ومن ألمان، ومن إنجليز، ومن هنود، ومن يابانيين، ومن صينيين، ومن عبيد! وكل قد أخذهم دوار البحث عن الذهب بحيث أصبح مرضًا فسدت معه الأخلاق، ولُؤْمِت النفوس بعوامل الحسد لكل من كان في جانبه شيء من الحظ، بما أصبح معه الأمن العام في اضطراب شديد لكثرة اللصوص وقطع الطريق الذين كانوا يهاجمون كل من آنسوا عنده شيئاً من هذا المعدن الثمين! وكانت حكومة الولايات ترسل الجندي لحفظ النظام والضرب على يد المفسدين، فكانوا هم ضغثاً على إبلة؛ لبحثهم هم أيضًا عما يملأ منهم الجيوب بمادة الحياة والسعادة، بل بمادة المجد والشرف (في نظر الكثير من الناس).

ولما كثر التبر في أيدي الناس مع قلة النقود، علت أسعار الحاجيات حتى بلغت أثمانها جملة أضعاف ثمنها في أمريكا نفسها، فكانت البيضة بريال، والبصلة بريال، وقدح العدس بعشرة ريالات، ورغيف العيش بخمسة ريالات، والزجاجة الفاضية بخمسة ريالات؛ لأنَّهم كانوا يضعون فيها الذهب!»



شجرة سكوايا جنجمانيا والنفق الذي بساقها لمرور العربات.

وقد طمع كل إنسان فيما في يد الآخر ففشا فيهم لعب الميسر، فكانوا يجتمعون جماعات، ويلعبون بزجاجات الذهب، فمنهم من أفلس ومنهم من أثرى، وانتهى الحال بأن تألفت شركات لمشترى هذه الأرضي بعد أن انعدم ما على سطحها من هذا المعدن الثمين، ومن ثمَّ أخذ البحث عن هذه المادة مجراه الطبيعي والذي يرتکز على القانون في دائرته، وعلى العلم في استخراجه، وأصبح في يد بعض الشركات.

وبالجملة فقد انتهى هذا المنام الذهبي باتصاله بمنام آخر، هو توجُّه عناية الذين أثروا من الذهب إلى مشترى الأرضي الواسعة في كاليفورنيا، وبعد أن مهدوها، أخذوا يزرعونها ويغرسون بها الملائين من الأشجار المثمرة، حتى أصبحت بهم جنة أشجارها

عالية، قطوفها دانية، وبذلك انتهى الحلم الثاني، واستيقظ الناس وهم يقرءون في صفحة أفق هذه البلاد أن الحياة فيها للعاملين المُجَدِّدين ومدارها على الزراعة والتجارة اللتين هما المطية الوحيدة الموصولة للثروة في هذا الزمان.

(٥٥) جامعة بروكلي

في هذه المدينة جامعتان؛ واحدة تَبَرَّعَتْ لبنيتها سيدة أمريكية تُسَمَّى مسر هارست بمبلغ ١٠٠ ألف دولار! والثانية أقامتها سيدة ثانية اسمها مسر إشبانفورد بأنَّ وَهَبَّتها مبلغ ثلاثين مليون دولار! والأرض التي تَحْصُّ هذه الجامعة هي ٣٣٦٠ فدانًا! وقد أقامتها هذه السيدة تذكاراً لولدها الذي مات وهو على أبواب دراسته.

زرنا هذه الجامعة الأخيرة القائمة في متسع من الأرض بُنِيَتْ فيه جملة مبانٍ بعضها للجامعة الزراعية، وبعضها للطب، وبعضها لغير ذلك من العلوم المختلفة، والذي عُنيَّ به هو الجامعة الزراعية، فوجدناها تُعْنِي بتربية النباتات ودراساتها في صوبات كثيرة حارة وباردة.

تُزرع النباتات عادة في الرمل الصافي في أصص من الفخار – ولكنها هنا من البلاور – ويصلون إلى جذورها بعض المواد المغذية الذائبة في الماء بواسطة أنابيب زجاجية مغمورة في إحدى حاويات الإناء، وهذه المواد يختلف بعضها عن بعض في النوع والكمية، وبهذه التجربة يمكنهم أن يصلوا إلى أحسن مغذٍّ للنبات، وبجوار كل آنية ترمومتر؛ ليتعرفوا به درجة الحرارة التي ينمو فيها أحسن من غيرها، هذه هي الطريقة العملية التي يعمل القوم بها هنا للعثور على أحسن ما ينهض بنباتاتهم، ولا شك أنهم واصلون بها إلى الكمال الزراعي الذي ينشدونه، أقول الكمال الزراعي ولا أقول ما في ورائه! لأنَّ العلم هنا أصبح من المدهشات، بحيث ما نراه منه اليوم كما لا نراه غداً مبدأً لكمال آخر، ولا يبعد أن يكون هذا مبدأً لغيره، وهكذا مما لا يخفى عليك من مدهشات العلم الذي لم يقف عندهم عند حد!

قبل ستة وثلاثين قرناً علمنا الله درساً في زراعة القمح بمصر؛ إذ أوحى إلى نبيه يوسف بأن يحتاط من القحط الذي سينزل بالبلاد، فأكثرَ من زراعة القمح الذي أبقاه في سنبله، وكان يأخذ منه مدة السنتين السبع العجاف ما يدفع به غاثلة القحط وكفى الناس شر بلائه، وكانت هذه السياسة الإلهية الاقتصادية فاتحةً لما رأيناها في سني الحرب الأخيرة

من إيجاد مصلحة للتمويل، كان عملها محصوراً في تخزين الأقوات وتوزيعها على الناس كافة بحسب احتياج كلّ منهم، وضرب الله لنا مثلاً بسبة فيها مائة حبة، ولم يضرِّ به لنا عبئاً، ولا شك أننا نستنتاج منه درساً زراعياً جليلاً نصل منه بجهادنا إلى مثل هذه الستبة القيمة التي لم يصل الاهتمام الزراعي في أيامنا إلى أكثر من نصفها. فهل يأتي يوم نصل منه إلى ما أشار إليه الخالق في مثيله.

وبعد زيارة أقسام الجامعة المتعددة ومكتبتها التي رأينا فيها سرباً من الأنسات مشغولات بالقراءة والبحث، ركبنا مركباتنا التي أعدّتها لنا الغرفة التجارية، وسرنا في أهم شوارع المدينة نخترقها من شرقها إلى غربها، فما أنظر شوارعها، وما أحلى منازلها، وما أجمل مناظرها التي جمعت من كل شيء أحاسنَه!

وفي الساعة الواحدة بعد الظهر عدنا إلى قطارنا فقام بنا ونحن نتغدى به إلى حيث المعدية التي نقلتنا به إلى الجهة الغربية من الخليج، وهناك قسموا القطار إلى ثلاثة أقسام، حتى يتسع المكان له عرضاً بالمعدية إن لم يتسع المكان له طولاً، وبعد أن عدinya إلى الشاطئ الآخر واتصلت أجزاء القطار بعضها ببعض، سار بنا إلى جهة الشمال يقطع مزارع واسعة جداً من القمح الذي تراه مضموماً عن قرب، وأرضه فيها من أثر السيقان ما ينبغي بجودتها، وكانت تتخل هذه المزارع من آن إلى آخر بعض غابات الزيتون والفاكهه، وأكثرها من البرقوق وفصيلته.

وما زال القطار سائراً حتى وصل في صباح اليوم الثاني إلى «ولاية أريجون»، وكلها غابات جميلة جداً من الصنوبر ذكرنا بمناظر سويسرا، خصوصاً مع ما في جبالها من المثالح التي برد منها الجو بحال انتقلنا معها من حر شديد إلى برد شديد! وكان القطار يسير في هذه الجهة من نفق إلى نفق، ومن منحدر إلى مرتفع، حتى وصل بنا إلى قمة الجبل، ثم أخذ يسير نازلاً في الجهة الأخرى في طريق كثُرت تعربيجه وزواييه حتى وصل إلى أسفل الوادي بما ذكرنا طريق السمرنج بين تريستا وفيينا.

ويظهر أن هذه المنطقة كلها منطقة غابات إلى حدود كندا، إلا أنهم هنا يقطعون أشجار الغابات من غير أن يغرسوا بدلهما؛ لذلك يخشى أنه بعد بعض سنوات تendum الغابات من هذه الجهة، ولكن يبعد على حكومة الولايات إذا أهملت الغابات في هذه المنطقة فيما مضى أن تهملها في مستقبل أيامها، وهي مما يدر الخير الجليل خصوصاً في المناطق الجبلية التي لا ينمو فيها ضرع، ولا يصح زرع، وما زلنا في سيرنا حتى وصلنا إلى «مدينة كورفاليس» بعد أن قطعنا إليها ٦٩٤ ميلاً.



إحدى مناظر كاليفورنيا.

(٥٦) يوم ٩ يوليو

وصلنا إلى هذه المدينة في الساعة الأولى بعد الظهر، وعدد أهلها ٦ آلاف نفس، وهي مشهورة بجامعتها الزراعية التي قصدناها بدعوة منها سابقة، وتغدينا بها في ظلال أشجارها، وبعد ذلك زرنا غرفها ومعملها الكيماوي، ولا يمكن أن أحدهنّك عنه بشيء إلا بما فيه من نظام، والذي لاحظته في الجامعة أن فيها خرائط لأرض هذه الولايات مرسومًا عليها جميع الأراضي الزراعية بأنواعها، يمكنك أن تتعرف منها العامر والغامر، والطالح والصالح، ولعل عندنا من أثر مصلحة المساحة ما لا يقل عن ذلك أو ما يقرب منه! بعد ذلك ركبنا السيارات إلى مزارع المدينة فوجدنا أرضاً كالمختلفة من الطمي عندنا، ووجدنا القمح فيها يعلو إلى متر ونصف، وهو أحسن ما شاهدناه فيها.

والأراضي التي من هذا القبيل تدفع من دولار إلى اثنين كل سنة للحكومة بصفة ضريبة، وكذلك يدفعون هنا عن الإيراد فيما يزيد عن خمسة آلاف دولار شيئاً قليلاً جدًا، وسقيمة الأرضي هنا من نهر ولامب الذي يتغذى من مثالج الجبال التي لا تبعد عن المدينة إلا بُنحو ثلثين ميلًا، وفي الساعة الرابعة بعد الظهر قام بنا القطار حتى وصل إلى مدينة «بورتلاند» بعد أن قطعنا إليها ٩٢ ميلًا.

(٥٧) يوم ١٠ يوليو

وصلنا إلى هذه المدينة التي عدد أهلها ٢٦٠ ألف نفس تقريباً، وهي مدينة جميلة تَبَعُد عن المحيط الهادئ ببضعة كيلومترات، بُنِيَت على جبل قد شقَّته الشوارع الأفقية مستقيمة في منظرها، وقطعتها الشوارع الرأسية مائة نازلة بانحدار كبير إلى الوادي، وقد يصل انحدارها إلى ٢٠ / ١٠٠، ومع هذا فإنك ترى الأوتوموبيلات فيها صاعدة نازلة بسرعة عجيبة، أما التراموايات فإنها تسير فيها على قضبان مسننة.



بعض الأشجار العتيقة على الأقيانوس الهادئ.

والذي أعجبني في الولايات المتحدة أن عربات التراموايات لكل منها كمساري ولكنه لا يحمل دفتر تذاكر منمرة كما هو الحال في مصر يأخذها الراكب في نظير الأجرة، بل يجلس الكمساري هنا على كرسي عند باب العربة «وهي مقفلة في الغالب» وبجواره صندوق مرتفع إلى متر ونصف وفيه ثقب في أعلىه يضع فيه الراكب القطعة المكونة للأجرة، فإذا كانت أكثر من اللازم غيرها له الكمساري بنقود صغيرة.

وبعد أن درنا دورتنا بالمدينة عدنا إلى القطار الذي قام بنا متوجهًا إلى الشمال، وفي الليل أخبرونا بأنّا دخلنا حدود كندا، فوقف القطار حتى عمِلَتْ عملية التفتيش الجمركية المعادة — ولكن بسهولة كبيرة — لأنّا ضيوف كندا كما كانا ضيوف ولايات الاتحاد.

ثم استأنف القطار سيره مارًّا بمدينة ستيل، وما زال حتى وصل إلى مدينة وانكوفر بعد أن قطع إليها ٣٦٣ ميلًا، وقبل أن نترك ولايات الاتحاد التي على الأقيانوس الهادى نقول لك: إن الولايات المتحدة صدرت من هذه الولايات الثلاث — كاليفورنيا، وواشنطن، وأراغون — من الفاكهة وحدها في العام الماضي بخمسة وسبعين مليون دولار! منها أربعون مليوناً من التفاح وحده.

(٥٨) كندا

كندا هي قسم من أمريكا الشمالية، واقعة في شمال الولايات المتحدة، استعمرها الفرنسيون من سنة ١٥٣٤ م إلى سنة ١٧٦٣ م، وفيها استولى عليها الإنجليز، وعلى مقتضى معاهدة باريس سنة ١٧٦٣ م تركت فرنسا كندا بما فيها من الفرنسيين الذين كان يبلغ عددهم ٣٠ ألف نفس، وحوَّلَتْ عليهم ما كان عليها من الدين الذي كان يبلغ ٣٠ مليون فرنك، والعنصر الفرنسياوي إلى الآن يحافظ على لغته في الغالب، وقد ساعدت كندا الإنجليز في حرب الترسفال، واشتركت معها في الحرب الأوروبية، ومن ثمَّ استقلت في جميع أمورها الداخلية، وإن كانت داخلة في الاتحاد الإمبراطوري الإنجليزي.

ومساحة كندا ٩٦٠٠٠٠ تسعه مليون وستمائة ألف كيلومتر مربع، وعدد سكانها لا يزيد عن عشرة ملايين نفس، وتنقسم إلى جملة ولايات عاصمتها العمومية مدينة أوتاوا، وفيها مركز الحكومة الاتحادية، وفي كندا غابات كثيرة، وتكثر في شمالها حيوانات المنطقة الثلوجية، وفيها معادن كثيرة أهمها النحاس والقصدير والحديد، وهي التي تقوم بحياة أهلها في الغالب.

ومما يلاحظه السائح لأول وهلة إذا دخل أراضي كندا، أن العملة هنا بالدولار، حتى كأن لا فرق بينها وبين الولايات المتحدة التي تتصل حدودها بحدودها على طول نحو سبعة آلاف كيلومتر، وأغرب من ذلك أن لـ^{كندا} عملة فضية مقسمة على النظام المئوي (القاعدة المترية) كما هو في الولايات المتحدة مما لا يجده في إنجلترا؛ فالريال في كندا ينقسم إلى مائة جزء، ونصفه خمسون جزءاً، وربعه خمسة وعشرون جزءاً، وهناك عدا هذا قطع فضية بعشرة أجزاء، وقطع نيكيل بخمسة أجزاء، والجزء الواحد من المائة

(سنت) من البرونز، وكلها عليها رسم إمبراطور الإنجليز جورج الخامس، وإذا عرفت أن أموال الأميركيان تزداد يوما عن يوم في كندا، والأميريكان يشترون كل يوم كثيراً من الأرضي الواسعة بها، عرفت أنه لا بد وأن يأتي يوم يكون للولايات المتحدة شأن معها، خصوصاً والعنصر الفرنسياوي فيها يميل إلى الأميركيان.

(٥٩) يوم ١١ يوليو

وصلنا فيه إلى هذه المدينة وانكوفر وتعدادها ٢٥٠ ألف نفس تقريباً، وهي عاصمة ولاية برتش كولومبيا، وهي التغر الكندي على المحيط الهادئ، وتصل كندا بالشرق الأقصى، وتغلب فيها السحنة الصينية واليابانية، وكل الخدمة فيها على هذا اللون من بني الإنسان. زرنا هذه المدينة وهي تنقسم إلى قسمين، أحسنهما القسم الجنوبي، وتغلب في تجاراتها الأنواع الشرقية من صينية ويبانية على الخصوص. ومن أحسن ما شاهدناه في المدينة بستانها النباتي، وفيه كثير من حيوانات المنطقة الباردة مما لا تراه كثيراً في جهات أخرى، وقد رأينا بها أنواعاً كثيرة من الورود المختلفة في ألوانها وارتفاعاتها، ولكن الذي أدهشنا هي تلك الغابة الهائلة التي تتصل بهذا البستان، أشجار عالية جداً يبلغ قطر ساقها نحو مترين، وارتفاعها أكثر من خمسين متراً، وهي من فصيلة الأرز، وفيها سبع شجرات هائلة قريبة من بعضها البعض يسمونها بالسبعين الأخوات، وقد رأيت بها شجرة ساقها على شكل مثلث طول كل ضلع فيه نحو مترين ونصف متراً وارتفاعها نحو ستين متراً، ويظهر أن هذه الجهة مشهورة بغاباتها الكثيفة العتيقة، ولكن بلغني أن القوم يجتنبونها، وقد يتركون لها أصولها فتنبت من جديد، وبهذا يعزّزها الزمن الطويل لوصولها إلى حالة صالحة للصناعة.

ومما يلاحظ هنا اختلاف الجو اختلافاً كبيراً عما كان عليه في الولايات المتحدة، فقد انتقلنا من حر كان يشوي الوجوه ويقاد يgef منه الماء في الآفاق والأحدائق إلى برد شديد ومطر متدافع التزَّمتُ أن أشتري لهما عدتهما من هنا وأنا أترنم بقول الشاعر الجاهلي:

يتمنى المرء في الصيف الشتاء
وإذا الصيف أتى أنكرهُ
فَهُو لا يرضي بحالٍ واحدٍ
قُتِلَ الإنسانُ مَا أَكْفَرَهُ

وفي ظهر هذا اليوم ركبنا قطارنا فسَارَ بنا في طريقِ بين جبلين تعلوهما غابات الصنوبر، وكان نهر فريزير يسير عن يسارنا تارةً، وأخرى عن يميننا، وكانت تُغذّيه بعض الشلالات التي كانت تنزل من الجبل من آنٍ إلى آخر، وفي هذا الطريق تكثر الأتفاق، فكانت تصايقنا بدخانها وظلامها — وإن كانت غير طويلة — أتفاق كانت تمنع عنا تلك المناظر الجميلة، وتذكرنا بكلة سواها بحالي الزمان ومره، وخierre وشره! وحتى في غربتنا هذه لا يريد الزمن أن يغفل عنا ساعة واحدة من غير أن يرينا من تأثيره وتكديره!



مدينة وانكوفر.

أمضينا ليتنا صاعدين إلى الشمال، ولما ظهر نور النهار رأينا الوادي وقد انفرج قليلاً، والغابات كثرت وتكلفت واتصلت حُضُرَتها بناصع الثلوج التي على قمم الجبال بما لم يكن أحسن منه وفرة ونمرة، وانعكست خضرتها في صفحة النهر البلورية بما كان يتتصاعد من جوانبها من تلك السحب التي تكاثفت واستحالت إلى غَيم انعقد في أفق السماء كان يحجب عنا ما تعودناه من ضوء الشمس الذي منه حياة الأرواح وانتعاش الجسم، وما زلنا حتى وصلنا في الساعة العاشرة صباحاً من يوم ۱۲ يوليو إلى قرية «جاسبر» بعد أن قطعنا لها ۵۳۵ ميلًا.

(٦٠) يوم ١٢ يوليو

بمجرد وصولنا إلى قرية جاسبر، ركينا منها الأوتوموبيلات التي كانت في انتظارنا، ويسرنا في طريق مرصوف مقير، وعلى جانبيه غابات من الصنوبر لا تزال في صيتها، وقد ضربت حولنا منطقة من الجبال تعلوها المثالج من كل ناحية، حتى وصلنا بعد قليل إلى لوكندة حديقة جاسبر – أو حديقة لوكندة جاسبر – وهي من ألطاف النزل في العالم؛ لأن هذه الجهة مصيف سراة القوم في كندا، نزلُّ حوى نظاماً وترتيباً ونظافة، نزلُّ حوى من كل شيء ألطفة، ومن كل قبيل أطْرَفَه، فكنت ترى فيه جمال المكان بجوار جمال المكين، وإذا أضفت إلى ذلك ما إليه من بحيرة زرقاء قد انطبعت فيها صورة السماء بما فيها من سحاب أبيض حتى لكانك بين سماءين كليهما من لُبِّين، وإذا لاحت منك التفاتة إلى الحمام البحري الذي يدخل في البحيرة ويعلو ماؤه ماءها ببضعة أمتار، شاهدت ما يغدو فيه ويروح من أشباح نشطة، وأرواح لطفت، مما تخال معه أن أهل السماء نزلت إلى الأرض واختلطت بأهلها لتفيض عليهم سلاماً ورضواناً!

من كل هذا يمكنك أن تخيل صورة صادقة لهذا النزل الفخم، فله لحظات قضيناها به قد أنسَتنا بجمالها ما صادفناه في رحلتنا من شقاء وعناء، أنسَتنا بما فيها من نسيم عليل، وهواء بليل ما رأيناه في ولايات الاتحاد الأمريكي من حرّ قد توقدت ناره، واشتد أواره!

ولقد أنسانا الله بما فيها من طبيعة راقت، ومناظر شاقت، ما صادفناه في سفرنا من وجوه العذاب وضروب البلاء!

وفي المساء قام بنا القطار إلى جهة الشمال الشرقي حتى وصلنا إلى مدينة «أدمونتون» بعد أن قطعنا إليها ٢٣٦ ميلاً، وعدد أهل هذه المدينة ٦٧ ألف نفس.

(٦١) يوم ١٣ يوليو

ركبنا في صباح هذا اليوم الأوتوموبيلات فسارت بنا في أرض منبسطة بعيدة الأطراف فيها زراعات مختلفة أغلبها القمح وبعض الخضر، وقد زرعت فيها غابات جديدة من أشجار الصناعة، وعدد أهل هذه المدينة ٦٧ ألف نفس، وأرض هذه الجهة سوداء ثقيلة كالتي في مديرية الشرقية، وبعد أن دُرْنَا دورتنا في المدينة التي ترى منازلها متفرقة بعضها عن بعض، ويقطنها نهر سيسكا شوان وهو أشبه شيء بالرياح التوفيقية، فَصَدْنَا إلى



منظر إحدى صخور الأقيانوس.

الجامعة بدعوة من رئاستها مع الغرفة التجارية، فتناولنا بها طعام الغداء، وبعد أن زرنا معامل الجامعة عدنا إلى قطارنا الذي قام بنا متوجهًا إلى الجنوب الشرقي في أرض يلوح لنا أنها من أخصب أراضي العالم، أرض خصّتها الطبيعة بهذا الخصب البكر، والزراعة تنمو فيها نمواً هائلاً رغم عدم الأيدي العاملة!

وهنا نقول: إن أراضي كندا على سعتها وتباعد أطرافها قليلة السكان إلى الدرجة التي على طول سيرنا في القطار ما كنا نشاهد في الطريق كله إنساناً واحداً! لأن تعدادها يبلغ عشرة ملايين نفس كما قلنا، إنهم من أصل أوروبي، ومنهم ثلاثة أرباع المليون من «الهنود» وهم الذين كانوا يسكنون البلاد قبل اكتشافها، وبهذه المناسبة نقول: إن هذا الجنس قد ضُعِفَ بكل عوامل الضعف الطبيعي والإضعاف الاستبدادي أو السياسي، حتى وصل إلى حال تذلل بالفناء والانقراض!

أراك يا حضرة القارئ تجيز بصرك في كلمة الإضعاف السياسي، وإنني أؤffer عليك زمتك الغالي من التفكير وأشرحه لك بما يحتمله المقام.

دخل الإفرنج إلى أمريكا شمالها وجنوبها فوجدوا ساكنيها من بني الإنسان الذين لم يتجاوزوا الدائرة الحيوانية إلا فيما كانت تحتاجه طبائعهم من آلة صيد وطبع وفراء

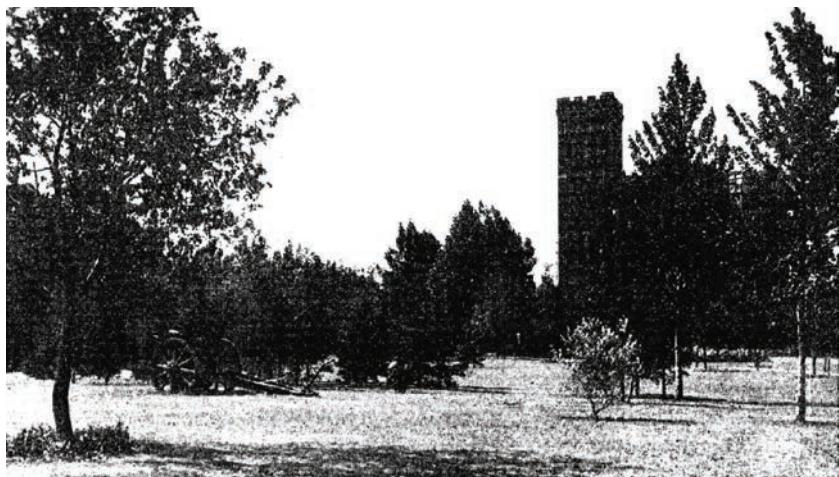
يتقون بها شدة القيظ وَحْدَةُ الشتاء، وأحجارٍ كانوا يأوون إليها من مطر أو خطر، ومع أن حياتهم كانت محصورة في هذه الدائرة الضيقية من العيش فإنهم كانوا بحكم الفطرة الحيوانية تقوى عندهم سلبيّة الدفاع عن النفس إلى حدٍ لا فرق فيه بينهم وبين الحيوانات المفترسة.

رأى الفرنجة هذا الحيوان الإنساني فأخذتهم منه الرهبة ورأوا أنه لا يمكنهم أن يعيشوا معه تحت سماء واحدة، فأخذوا يصطادونه ببنادقهم من بعد حتى لا يصل إليهم منه سوء لحرمانه من آلات القراء والدفاع، حتى أفنوا الشيخ والرجال، ولم يبق إلا صبية استخدموهم في مصالحهم! وكانهم خشوا من نُمُّ عاطفة الانتقام فيهم فأبعدوهم شمالاً وغرباً يعيشون من عشب الأرض وصيد البر والبحر، تحت سماء كلها رجوم، وأوساط كلها سموم، وليس من يعني بهم ولا من يرشدهم إلى ما فيه خيرهم، ولو كان للمحتلين للبلاد أية عنایة بهم أو بعض الرعاية لهم، لكنوا فتحوا لهم دوراً للتكييف والتنقيف الذي كان ينهض بهم ويدخلهم في دائرة العمل الذي كانت تحسن به حالهم، ولكن الدار لا تتسع لِلملِكين، والحجرة لا تنفسح لساكنَيْن.

وهكذا فعلوا بأهل أستراليا وجنوب إفريقيا! وعلى هذا القياس لو كانت الفرنجة استعمرت السودان شرقَيْه وغربيَّه من زمن بعيد، لكان نصيب هذا اللون الأسود نصيب قريبه في أمريكا وأستراليا من الزوال والفناء، ولكنهم جاءوه وكلمات الحرية والمساوة والشفقة والرحمة والإنسانية كانت قد اخترعت سلاحاً ليتاً لطيفاً يقتلون به الناس من حيث لا يشعرون، بل وهم هاشُون باشُون وعنهم راضون! كمادة الكوكايين تقتل أصحابها وهو يمتد نحوها بكل جوارحه حناناً إليها وتلهفاً عليها! وهل يصح أن تكون للإنسانية والرحمة والشفقة معنى في ميدان حرب وكفاح حيوى غاية كل إنسان منه الانتصار بأي عامل من عوامل القوة والقسوة والوحشية والدهاء، والغش والخداع والذب التي تنقلب عند الغلبة فضائل ويكسو التاريخ فظائعها حلاً منسوجة بمادة التحميد والتجريح؟ لهذا كان لا بد لكل أمة أن تتقش على قلبها هاتين الكلمتين، لِتُحييَ القوة، لِيمُتَّ الضعف.

(٦٢) يوم ١٤ يوليو

وصلنا في صباح هذا اليوم إلى محطة «ساسكانون» بعد أن قطعنا إليها ٢٢٦ ميلًا، وعدد سكانها ٣٣ ألف نفس، والذي تلاحظه بصفة عامة في كندا أن محطاتها فيها قاعتان



حديقة فكتوريا في مدينة ريجينا بكندا.

للانتظار، مكتوب على واحدة «استراحة للسيدات»، وعلى الثانية «استراحة للرجال»، وقد زرنا الجامعة فوجدنا فيها — كما وجدنا في جميع الجامعات التي زرناها بكندا — أبنية خاصة للبنات، ولا يجتمعن في الدرس مع الشبان كما هو الحال في أوروبا والولايات المتحدة، وهذا أبقى من غير شك لكرامة الجنسين وتصرف حكومة كندا ٥٨ في المائة من إيرادها في سبيل التعليم، وكله مجاني بمدارسها.

وأبنية الجامعة كثيرة ومترفرقة عن بعضها البعض، وغالبها من ذات الدور الواحد، يحيط بها حدائق جميلة في منتهى النظام، ومن ورائها مزارع التجاريب التي يشتغل طلبة القسم الزراعي بها، والذي لفت نظري هنا كثرة الخيال العظيمة الجسيمة، والخنازير الهائلة السمينة، كما لاحظت أن شجر الفاكهة يقلُّ في هذه الجهات قلَّةً محسوسة، ولكن تكثر فيها الغلال والبنجر والخضر خصوصاً الطماطم.

وأراضي هذه الولاية بصفة خاصة من خير ما خلقه الله، ولا ينقصها غير اليد العاملة وهي سوداء كأنها مخلوطة بهباب المداخن، ومن خير مارأيناها هنا ١٢٠ فداناً ل التربية الأشجار تابعة للحكومة، وهي مقسمة إلى آلاف الأقسام، وكلها مزروعة من الأشجار المختلفة، كل قسم على حدته، ففيها أشجار الغابات، وأشجار الفاكهة من كل نوع وشكلاً، والذي يدهشنا أنها في نظامها كأحسن البساتين ترتيباً وعناية، لا ترى بها حشيشاً ولا

مريضاً ولا ضعفاً، وقد أنشئت من عشر سنوات فقط، وكل سنة يزيدون عليها أربعة ملابس شجرة!

والمهم هنا أن الحكومة تُسلّم لأي طالب ثلاثة وعشرين فداناً بدون ثمن، وتعطيه ألف شجرة من أي نوع يطلبه بدون ثمن، فإذا زرعها وطلب غيرها تعطيه ألفاً آخر بغير ثمن، وهكذا يجد الزارع في خزائن الحكومة الزراعية ما يطلبه من الشجر مجاناً، وكل هذا للتغريب في زيادة صفحة الأرضي المنزوعة غابات وهي ما لا تحتاج إلى عناية في مبدأ أمرها، ثم تتولاها عناية الله وجودة الأرض، وليس لهذه الأرض من واسطة للري إلا المطر؛ لأنها ترتفع عن مياه النهر كثيراً، ومقدار ما ينزل من المطر في هذه الجهة ١٤إنش، ويبدأ من يونيو، وتنزل درجة الحرارة في الشتاء - وخصوصاً في يناير - إلى الصفر لمدة شهر تقريباً، وفي هذه المدة يكسو الثلج سطح الأرض وتبطل الحركة العمومية.

وهنالك أرض للزراعة المنظمة تحت تصرف من يطلبها بالثمن بنسبة ٤٠ ريالاً للفدان، وقد كانوا يعطونها بلا ثمن من عشرين سنة، ومحصول القمح في هذه الأرضي من ١٨ بشلاً إلى ٥٠ بشلاً (والبشل ٢٩ كيلوجراماً)، وبين الزراعة والمحصول ٤ أشهر، فيزرون من أول مايو، ويحصلون في أول سبتمبر! وأجرة العامل في اليوم هنا خمسة ريالات.

ولهذه المناسبة أقول: إن وزارة الزراعة عندنا فَكَرْت يوماً في الإكثار من الأشجار بعد أن قضت الحرب على ما كان منها في البلاد مما كان له ظل ممدود وثمرة ومنفعة متغيرة للغلال، فكرت في ذلك أيضاً مصلحة الزراعة، وتَعَيَّنَتْ مجالس المديريات، وعملوا المشاتل المختلفة، ولكن لا لمساعدة المصلحة العامة، ولا لإكمال النقص الذي وقع في هذا النوع من الشجر مما هو ضروري للبلاد الحارة، ولكن لتجعله مورد كسب جديد، وأخذت تبيعه بأثمان عالية حالت بين رغبة الناس فيه، وهذا هم الآن يعطّلون المشاتل أو يختصرونها بدعوى أن وجودها فيه بعض الخسارة، أو بعبارة أخرى ليس فيه من مكسب، إنما نفهم أن تهتم الوزارة أو مجالس المديريات بالإكثار من الأشجار النافعة، وتتخير الأصلاح منها، وتسورد من الخارج كل ما يصلح في هذه البلاد من الأشجار التي تنفع للصناعة، ثم تبيع ذلك على الناس بما صرفته عليه، ولا تجعله تجارة تنافس فيها الأفراد من جعلوه مورد رزق لهم، وبذلك يكون لها فضل العناية بالإكثار من الأشجار، وباختيار الأصناف الجيدة التي بكثرتها تكون من أحسن الغلات التي تدخل ضمن إيراد البلاد الهامة، وبذلك

تختضن من تلك الأشجار العتيقة وخصوصاً أشجار الفاكهة التي تركزت في عصاراتها الميكروبات الضارة، والتي سيكون لها يوماً ما أثراً سيئاً في إحداث وباء زراعي لا يمكن تقدير ما فيه من الضرر، ولا يمكن أن نقف في وجهه بأي حال من الأحوال.
فهل الوزارة مقلعة عن فكرة الكسب إلى فكرة المصلحة العامة؟



إحدى الحدائق بكندا.

وهنا أقول: إن أغلب الأشجار المثمرة في البلاد استوردها محمد علي من الشام بعد انتصاره فيها على جيوش العثمانيين، وكذلك من مورة بعد انتصار إبراهيم فيها على الجيوش المختلطة من يونان وإنجليز وروس من كانوا يساعدون اليونان في سبيل استقلالهم، وقد مضى على ذلك نحو قرن ونحن نستوردها، وليس من تجديد ولو من طريق التلقيح الذي يخفف من شيخوختها إن لم يرجعها إلى شبابها (على رأي فورونوف).
نحن لا نريد أن تكون لبلادنا الزراعية وزارة زراعة لا تجد لها غير كلمات طيبات لتنسمع من نغماتها تلك العبارات الرقائق: نتائج ساحرة! فوائد باهرة! إيرادات وافرة!
أو ما في معنى ذلك مما تهتم به الأذن بسرعة من غير أن يكون له أثر محسوس، ولكننا نريد أن تكون لبلادنا الزراعية وزارة عمل ليس الغرض منها أن يقضي العامل فيها شطرًا

من النهار في ختم آلاف الأوراق التي كثيراً ما تدور دورتها وهي إن تغيرت في مبنها لا تتغير في معناها!

لَمْ لا يكون في وزارة الزراعة مجلس زراعي علمي عملي يجتمع في الأسبوع مرة على الأقل للبحث في كل ما له أثُرُّ الحَسَنَ في الرقى الزراعي؟ لَمْ لا تهتم الوزارة في تحسين إنتاج الماشية؟ لقد فَكَرُوا من زمن في تحسين إنتاج الخيل وأوجدوا في بعض المديريات حصاناً من جياد الخيل لهذا الغرض، فما للوزارة لا تجعل في كل مركز ثُوراً وفحلًا من أحسن شيء في نوعهما؛ حتى إذا أتى الفلاح بِماشيتها يجد أمامه ما يضمن تحسين النوع، وبهذه الطريقة لا نُمْضِي عشر سنوات حتى نرى أمامنا ماشية بحالة عامة من أحسن وخير ما يوجد من نوعها في العالم كله؟

لَمْ لا يكون للوزارة نشرة أو مجلة زراعية لا تتكلم فيها بلغة العلم، بل بلغة بينه وبين ما يفهم الناس منه، ويوزعونها باشتراكات بسيطة لا تتجاوز ما يُصرَف على طبعها وورقتها، وحسبها من ذلك أن يكون لها فَضْلُ البحث والنشر والتعليم؟ يزعمون أن وزارة الداخلية لها رجال يجولون في البلاد للنصح والإرشاد فيما يتعلق بالآداب والأخلاق، فما بال وزارة الزراعة لا تجعل في كل مديرية مُرْشِداً يتوجل في أنحائها على الدوام أو على الأقل قبل كل زراعة لإرشاد الناس لما فيه مصلحتهم وخيرهم؟

أمام الوزارة من ذلك شيء كثير، فيمكنها أن تفك وتنتمي فيه مع الإصلاح ولها أجرها عند الله وشكرها من البلاد، وإذا كان مدار الزراعة في العالم الجديد على الآلات فلِمْ لا تبحث الوزارة في العائق الوحيد عن استعمالها في أرضنا؟ لا بد هناك من سبب يمكن بطبيعة الحال تذليله بعد دراسته، ويعمل عن الآلة رسم يرسل به إلى بعض الفابريقات، وبعد عمل مثال منه وتجربته فإن أتى بالغرض منه حسن استعمالنا له، وإلا فلا تزال به حتى تصل منه إلى نتيجة صالحة.

لَمْ لا تجعل الوزارة لها معملًا متَسِعًا لتحليل كل نوع من أنواع الأرضي العامة بأجر زهيد جدًا لا يقدر بصاحب الأرض عن تعرف حال أرضه؟ ويُكتب تحت التحليل «صالحة لـكذا» أو «ينقصها كذا لتكون صالحة لـكذا» أو تضع تحتها جدولًا بسيطًا بنوع السماد الذي تصلح به كل زراعة رئيسية في كل نوع من أنواع التربة.

إنك تعرف من مؤتمر دراسة التربة بالولايات المتحدة اهتمام العالم كله بهذا الأمر، فهل لوزارة الزراعة عندنا أن تفكر في دراسة أراضي القطر وتعمل بها خريطة مصحوبة بالنصائح العامة لإصلاح كل نوع من أنواع تربتها؟ عندنا القسم البكتريولوجي لم يظهر

للناس شيء من عمله! وقد يكون له عمل ولكن محدود بين جدران معمله، ولكن ما الفائدة من ذلك؟ يقولون: إن نتائج التجارب في مزارع الوزارة مرضية جداً، ولكن ما فائدة الناس منها إذا كانوا يجهلونها؟ وهلا تكون هذه النتائج الباهرة نتيجة مصروف كبير لا تفي به كمية المحصول وهو ما لا يفيدنا؟ نحن نريد أن نصل إلى نتيجة نُحارب بها أمراض النبات من غير مصروف كبير، وهذا لا يكون إلا نتيجة بحث ودراسة صحيحة. فهل للوزارة أن تُعنى بذلك ولو تستقدم من الخارج من يصلح ويُصلح، نحن نرى وزارة المعارف تستقدم بعض العلماء الأجانب لإلقاء بعض المحاضرات في جامعتها بلغة غير اللغة التي تعرفها طلبتها مما لا يكون لهافائدة قليلة أو كبيرة، مع ما يُصرف في ذلك من جمًّا مال الوزارة وعزيز وقت الطلبة! فما لوزارة الزراعة لا تستقدم رجالاً من لهم شهرة في العلم الزراعي يُذَلّلون ما عندها من الصعوبات، ويحللون ما في صُحفها من المشكلات؟ أظن أنْ قد جاء الوقت لذلك، فهل هي عاملة؟



طريق الأتوبيسات على شاطئ المحيط الهادئ.

عدنًا إلى قطارنا فقام بنا إلى مدينة «ريجينيا»، والمسافة إليها ١٦١ ميلًا، وعدد أهلها ٤ ألف نفس، ثم توجهنا منها إلى مدينة «أندريا» وهي على بعد ٤٢ ميلًا، وشاهدنا ما

فيها من زرع ومن ضرع، وأحسن ما رأينا تلك الخيل المسومة التي يستولدونها من الخيل الإنجليزية والكندية، وبعد ذلك عدنا إلى قطارنا الذي عاد بنا إلى ريجينا، ثم اتجه بنا نحو الشرق حتى وصلنا إلى مدينة براندون في ولاية مانيتوبا والمسافة بينهما ٢٢١ ميلًا.

(٦٣) يوم ١٥ يوليوج

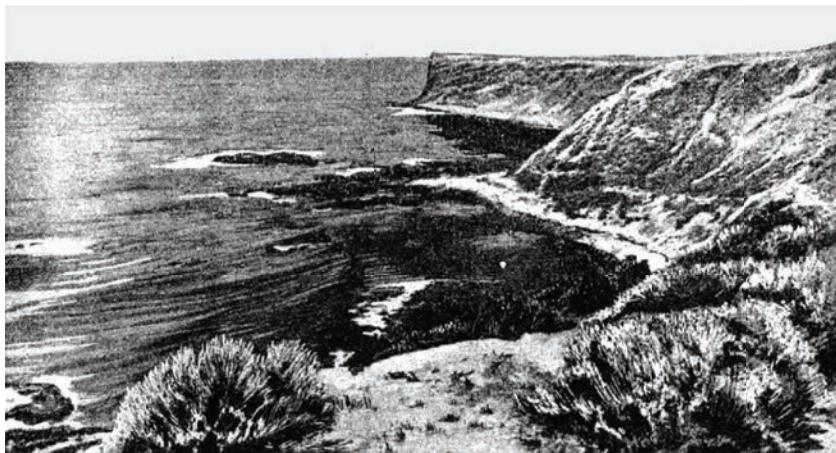
وصلنا في صباح هذا اليوم إلى «براندون»، وعدد سكانها ١٧ ألف نفس، وركبنا العربات التي كانت في انتظارنا إلى المزارع فوجدناها جيدة، والغلال فيها كما لو كانت عندنا في شهر يناير — أعني في ارتفاع عشرين سنتيمترًا تقربيًا — والأرض هنا سوداء، وطبقتها في كندا تكاد تكون واحدة، ومع أننا نزلنا كثيراً إلى جهة الجنوب فإن الأشجار هنا لا تزال من القلة بحيث لا تراها إلا حول المدن، وتكاد الأرض تخلو من نوع الإنسان — بل ومن الحيوان — ومما يلاحظ في حالة كندا أن الذرة لا تنمو فيها بحال جيدة تناسب مع حالة القمح، مع جودة الأرض وكونها غنية بمواد الإنتاج؛ مما يدل على أن الحرارة ضرورية لتكوين نبات الذرة، وهذا وجدنا أيضًا مزارع زُرع فيها القمح من أسبوع فقط حتى إذا تقدم الشتاء كان غذاءً للماشية!

رجعنا إلى قطارنا فقام بنا إلى مدينة «ونبيج» بعد أن قطع إليها ١٣٤ ميلًا، وعدد سكان هذه المدينة ٢٨٣ ألف نفس، فركبنا عرباتنا وقطعنا المدينة فوجدنا شوارعها واسعة ونظيفة، وأبنيتها لطيفة، وأهم شيء فيها البرلان، ثم خرجنا إلى المزارع، وبحثنا — أو بحث القوم — في التربة، وهي كسابقتها من الخصوبة بمكان عظيم، والروس يقولون: إن أرض كندا كأرضهم في سعادها وجودتها وتركيبها. فهل أراضي المناطق الباردة كلها على هذا الحال؟ أو أنها كان تكوينها بحال واحدة؟ نترك الحكم في هذا لأهله من علماء الجيولوجيا.

و قبل أن نترك أرض كندا نقول: إن الشوارع في جميع مدنها عظيمة الاتساع بحيث لا تنقص عن ٦٠ متراً؛ ذلك أن المدن فيها جديدة، وتخطيطها حديث، بحيث إن المدينة وضعَتْ على الرسم الكروكي الذي أبْيَح للناس البناء على نظامه؛ لذلك لا نرى فيها بوجه عام دخولاً ولا خروجاً، بل هو ترتيب كالذي تراه في حلوان والزمالك القبلية، وكذلك المدارس فإنها مع قلة الطلبة تراها مشيدة كما هي في أحسن البلدان، ولا أبالغ إذا قلت: إني أراها هنا أحسن منها في أوروبا، وعلى الخصوص في فرنسا، وقد ترى في المدينة الصغيرة عشرات من المدارس من أولية، وثانوية، أو عاليه، وكلها أبنية فخمة كَلَّفتِ القومَ

الرحلة إلى أمريكا

بدون شك مصاريف هائلة، وبهذا تجد العمار عندهم لا يعتوره خراب، ولا يعتريه زوال، ما دامت عناية القوم به كما ترى، ومنه نرى أنهم إنما يبنون للمستقبل.



الشاطئ الصخري على المحيط الهادئ.

وبعد زيارتني للجامعة توجهنا إلى لوكندة «فورت جاري» بدعوة من رئاسة الجامعة وزعيم الزراعة للعشاء فيها، وقد اجتمعتُ بحضور الوزير وتكلمت معه في شئون شتى، خصوصاً عن إيرادات الحكومة، وعلّمْتُ منه أنها من ضرائب على المشروبات الروحية، والأوتوموبيلات، ومما يباع من الأراضي، وما ينقص عن المصروفات تدفعه الولاية العامة سلفة إلى أن يمكن أن تُغطّي إيراداتهم مصروفاتهم، وعرفت منه أن الحكومة رغمَ عن جودة الأرض موجّهة اهتمامها إلى استئصال الحشائش الطفيلية في مبدأً أمرها؛ لتكتفي نفسها شرّ كثرتها في المستقبل، وليت عمال الزراعة عندنا ينصحون إلى المزارعين بالعناية باستئصال هذا النبات المضر قبل أن تتكون تقاويمه، وعرفت من جانب الوزير أن الحكومة وشركات السكك الحديدية والنقابات تملك كثيراً من الأراضي ويمكن لأي إنسان أن يشتري ما يريده ما دام معه ثمنها الذي هو عبارة عن ١٥ ريال للفدان! وما دام معه من المصروف الزراعي ما يشتري به حصانين للحرث وبعض بقرات تساعده بألبانها على غذائه وغذاء عائلته.

وبعد العشاء ركبنا قطارنا فسار بنا متوجهاً إلى الجنوب حتى دخل في حدود الولايات المتحدة من «ولاية مينيوزتا»، وهناك أتى عمال الجمارك عند الحدود وفتشوا كثيراً من الأمتعة خوفاً من أن يكون مع الركاب شيء من المشروبات الروحية الممنوع دخولها إلى أرض الاتحاد، ثم استأنف القطار مسيره حتى وصل إلى مدينة «مورهيد»، والمسافة التي قطعناها إليها ٢٢٧ ميلاً.

(٦٤) يوم ١٦ يوليو

وصلنا في صباح هذا اليوم إلى مورهيد، وعدد سكانها ٦ آلاف نفس، ومساكنها كلها من الخشب، وشوارعها واسعة وإن كانت أقل بكثير مما شاهدناه بكندا، وبعد أن أقطرنا في نُزُل كاسل ركبنا عرباتنا تحت المطر قاصدين رؤية التربة في جملة جهات منها، وهي أرض كلها قوية، وتربتها من أحسن ما رأيناها من نوعها، والغلال تنمو فيها نمواً عظيماً، ويمر في هذه الولاية نهر مايل، ولكن ليس له أثر في نظام الري؛ لأن الري هنا على المطر ويبلغ ٢٣ إنشا، والبرسيم عندهم ينمو نمواً عظيماً جداً، وخصوصاً النوع الذي يسمونه «ألفا ألفا»، وهم يقطعونه ثلاث مرات ويحفقوه للشتاء! ومع هذا فشمن الفدان هنا لا يزيد في متوسطه عن ١٢٠ ريالاً.

وقد تكثر هنا زراعة البطاطس والكتان، وقد شاهدنا في بعض المزارع غيطاً من البنجر فيها مرض، ورأينا القوم يحاربون هذا المرض بواسطة عربة صغيرة عليها برميل (كعربات الغاز التي تسير في طرق الأرياف بمصر)، ومن أسفل العربة من خلفها أنبوية يظهر منها نحو نصف متر من على يمين وشمال البرميل، وفي أسفل الأنبوية رشاشات من نوع الحنفيات الرشاشة ذات الثقوب الرفيعة التي لفسيل الأيدي، وهذه الرشاشات مثبتة في الأنبوية على نسبة أبعاد الخطوط المزروعة فيها النبات، فإذا سارت المركبة «بحصانين» فتحت حنفيات الأنبوية فتنزل المادة المجهزة التي في البرميل إلى الرشاشات فتغمر النبات من كل جهاته، وهذه المادة لم يتيسر لي معرفتها.

وهذه العملية تتفق عندنا في أمراض الخضروات، ولا أدرى إذا كانت تتفق في دودة ورق القطن؟ لأن هذا الفراش الذي ظاهره فيه الجمال، وباطنه فيه العذاب، كثيرون من المخلوقات الضارة لا يضع بوبيضاته إلا في أسفل الورقة! ولكنها تتفق من غير شك فيه عند الفقس وانتشار الدود على الورقة، وبعد دورتنا ركبنا قطارنا الذي سار بنا إلى مدينة «أفوكا»، بعد أن قطعنا إليها ٢٢٠ ميلاً، ومنها إلى مدينة «سان بول» والمسافة بينهما ٢٨ ميلاً.

(٦٥) يوم ١٧ يوليو

وصلنا في صباح هذا اليوم إلى محطة «سان بول» بعد أن قطعنا إليها مسافة ٢٤٨ ميلًا، وتعاد هذه المدينة ٢٣٥ ألف نفس، وهي عاصمة ولاية منيوزتا، وهي على نهر الميسسيبي، وتجاهها من الشاطئ الآخر مدينة «ميلا بوليس»، وبعد إفطارنا ركبنا العربات وشققنا المدينة فوجدنا أبنيتها في غاية الجمال، وغالبها من الطوب الأحمر، وقليل فيها بالخشب، وفي المدينة حدائق عمومية كثيرة غاية في النظام، وما زلنا سائرين بين مناظر جميلة حتى وصلنا إلى حديقة عمومية كبيرة جدًا على نهر الميسسيبي، وتکاد تكون في دائرتها غابة بشجرها الملفوف، والقوم يذهبون إليها في أوقات نزهتهم — وخصوصاً في أيام الأحاد — فيجلسون على الجازون الأخضر، ويأكلون ويشربون في ظلال أشجارها الوارقة، وهم مُطلّون على ذلك النهر العظيم الذي ينخفض عن الحديقة بعشرات الأمتار.

وهنا بدا لنا الميسسيبي بمائه الصافي وهو قرب منبعه هادئ مطمئن، ليست فيه أية علامة من علامات الاضطراب التي أزعج بها العالم كله من أشهر مضت بما أحيا به أناسًا وأمات آخرين! وسعته من هذه الجهة ضعف رياح المنوفية، وبعد أن استرحنا هناك زماناً تمعنا فيه بهذه المناظر الباهرة، ركبنا عرباتنا وسرنا على ضفتها الشرقية، وكان مجراه يختفي عنا أحياناً بما على شاطئيه من الأشجار الكثيفة العالية، وما زلنا في سيرنا نخترق رياضاً بعد رياض، وغياضاً بعد غياض، حتى وصلنا إلى جامعة منيوزتا.

وهي أبنية كثيرة فخمة، بُني بعضها بعيداً عن بعض بعشرات الأمتار وسط حديقة غنا، وليس كلها على نظام واحد، بل لكل بناء نظام يتناسب مع صفة العلم الذي بني من أجله، ومن ضمن هذه الأقسام: القسم الطبي، والجيولوجي، ومدرسة خاصة لطب الأسنان، وقسم للصور والفنون الجميلة، نقشت على واجهته أسماء من ظهر في العالم في هذه الفنون مبتدئين باسم «دان» منتهيين باسم «فيديايس».

ثم قسم للبيكولوجيا، وقسم للصيدلة، وقسم للهندسة العمومية، وقسم للهندسة الميكانيكية، وقسم للحقوق، وقسم للتعاليم الدينية، وبجوار هذا وذاك معامل مختلفة كيماوية وطبيعية، ثم كنيسة فخمة هي كنيسة الجامعة، ثم دار كتب عظيمة فيها عشرات من آلاف الكتب في مختلف العلوم والفنون تحت تصرف طلبة الجامعة!

ولقد يخيل إليك أن هذه الأبنية كلها قسم كبير جميل من مدينة أرستقراطية تخلالها الشوارع التي لا تقل في عرضها عن ٢٠ متراً، وليس فيها مكان غير صالح لشيء مما وجد من أجله! وفي وسط هذه المباني بناء عظيم على ثلاثة أدوار، فيه قاعات كبيرة جدًا آية



مدرسة الهندسة في مينا بوليس بالولايات المتحدة.

في النظام، جُعلت للاجتماعات العلمية، وهي التي استقبلونا فيها وجعلوها تحت تصْرُّفنا للاستراحة جملة ساعات، وقد تغدينا في هذا القسم بدعة من الجامعة، وبعد الظهر زُرْنا مكان التجارب الزراعية، ومما لفت نظري نوع من البرسيم «ألفا ألفا» يبلغ ارتفاعه مترين، وساقه مثل ساق الفول قبيل زمن غلته! ومررنا ونحن في طريقنا من بعد على شيء غريب في بابه، هو أسطوانات كبيرة جدًا من الحديد، قطر الواحدة نحو ثلاثة أمتار، وارتفاعها نحو عشرة أمتار، ولها فوهة من أعلىها يرفعون إليها الغلال بواسطة آلة رافعة، فيخزنونها فيها ولا منافذ فيها إلا باب صغير في أسفلها يفتحونه عند الحاجة إلى المخزون! وهي أشبه شيء بالزواليع التي نراها على الخصوص عند فلاحي قبلي، فيضعون فيها غلالهم إلى زمن تقاويمهم مدة ثمانية شهور، ونحن نضحك من سذاجتهم ولا نفهم أن العلم لم يصل في حفظ الغلال إلى أبعد من ذلك! ولا شك أن هذه العملية وصلت إليهم من زمن قدماء المصريين وللآن يعشرون في المقابر على زواليع صغيرة مملوءة بالغلال لم يمسَّها سوء طول هذه المدة إلا إذا تعرضت فيها للهواء.

وبعد أن تعشينا في الجامعة ركبنا عرباتنا إلى القطار الذي قام بنا في الساعة الحادية عشرة مساءً، وما زال في سيره حتى وصل في الصباح إلى مدينة «نافارا» بعد أن قطع إليها ٢٢٤ ميلًا.

(٦٦) يوم ١٨ يوليو

وصلنا إلى هذه المدينة التي هي من ولاية «أبيووا» وعدد سكانها ٣ آلاف نفس، وبعد إفطارنا ركبنا مركبات إلى مكان التجارب الزراعية وهي على بضعة أميال من المدينة، وكانت تنمو على جانبي الطريق زراعة الذرة نمواً عظيماً جداً، وقد رأيتها تكثر في هذه المنطقة كثرةً تأخذ منها أنها هي الزراعة الرئيسية فيها، وعلى ذكر الذرة هنا نقول: إن جميع مدن الولايات يستعملونه بكثرة مفترراً، ويضعون عليه جانبًا من السكر وببيونه في دكاكين خاصة به! والأرض هنا كالتي يعبرون عنها بالسوداء، وزراعتها كلها على المطر الذي يبلغ ٣٠ إنشاً، أما زراعة الغلال الأخرى – حتى في أمكنة تجاربها – ليست كغيرها من النمو، ومحصولها يصل في القمح والذرة إلى ٣٠ بشلاً (والبشل ٥٦ رطلًا)، ومن الشعير إلى ٥٠ بشلاً.

والذي أعجبني هنا مكنة لضم الغلال، تضمنها وتربط حزمها وترمي بها إلى جانب واحد، وهذه المكنة تعمل نحو عشرة فدادين كل يوم! والذي شاهدته أنها تعمل في غلال سوقها كالتي في أرض الباقي عندنا.

وبعد أن أخذنا غذائنا في الهواء الطلق، ركبنا مركباتنا إلى القطار الذي قام بنا إلى محطة «دوموان» فوصلناها في الساعة الرابعة، وفيها زرنا مكاناً عظيماً للنشر به مطبعة من أحسن شيء في نوعها، والذي رأيناه من الآتتها:

- (١) آلة تايبريت تكتب عليها فتجمع أحرف الطبع من جهة أخرى منها.
- (٢) آلة تايبريت تكتب عليها فتطبع ما تكتب من جهة أخرى منها.
- (٣) آلة تقطع صفائح الرصاص وكتبتها أحرفاً للطبع.

وفي هذا الدور ٢٠ مكتباً للعمال وإن شئت فقل للعاملات! أما الدور الثاني فيه آلات الطبع، تقدم المجلة مثلًا للطبع فتطبع، ثم تسير إلى آلة تحزمها، ثم إلى آلة تغلفها، ثم إلى آلة تقطعها من طولها ومن جانبها، ثم إلى آلة تغلفها بخلاف العنوان، ثم إلى آلة تضع عليها ورق البوستة والعنوان.

وبجوار هذا عشرات العاملات لتجهزها من آلة إلى أخرى، وهناك آلة لطبع ألوان الغلافات مثلًا! وهي تطبعها على حالها مرة واحدة لا كما هو الحال عندنا في مطابع الحجر كل لون على حدة، وألة الطبع تطبع ٤٠٠٠ نسخة من المجلة كل ساعة! وهناك

سكة حديدية صغيرة متحركة على الدوام لجمع الملازم، فكلما طُبِعَتْ ملزمة تسير على سلك متحرك إلى عاملٍ تضعها على التي قبلها حتى إذا انتهت الملازم المكونة للمجلة أو للكتاب أخذت للتغليف أو للتجليد بهذه السرعة الهائلة وهذا النظام العجيب! وهذه المدينة على صغرها جميلة جدًا، وهي في الليل كأنها قطعة من أهم المدن الأمريكية؛ لكثرة ما فيها من أنوار الشوارع الكهربائية ومظاهر الإعلانات، وبعد أن تناولنا العشاء في نُزُلٍ سيفريي بدعوة من جمعية النشر، وقام الخطباء يتناولون المواضيع المختلفة التي أنعشتني منها ما كان لمصر في قديم الزمان من الفضل على المدينة، وفي المساء توجهنا إلى القطار الذي قام بنا نصف الليل حتى وصل إلى محطة «مولين» وهي في ولاية «النوا» بعد أن قطع إليها ١٧٨ ميلًا.

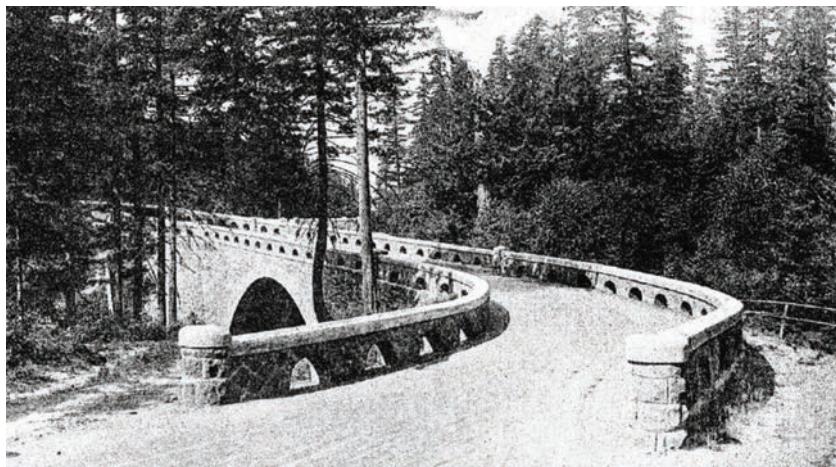
(٦٧) يوم ١٩ يوليو

وصلنا في صباح هذا اليوم إلى مدينة مولين، وعدد سكانها ٣١ ألف نفس، وكان بروجراماً دعوتنا إلى الإفطار في نزل لوكلي، وهو نزل جميل في داخل المدينة.

وفي منتصف الساعة التاسعة ركينا الأوتوموبيلات المعدّة لنا وقطعنا المدينة من غربيها إلى شرقها، وهي وإن كانت كبيرة إلا أن منازلها صغيرة، وكلها أو جلها من الخشب، ويُنذر ما كان فيها من الأجر؛ ذلك لأنها مدينة عمل وصنائع، زرنا فيها مصنع جون ديز لعمل الآلات الزراعية، وفيه بضعة آلاف من العمال، وكم كانت دهشتي عندما زرت المكان الذي يصهرون به الحديد الزهر ويضعونه في قوالبه المختلفة! كم كانت دهشتي عندما رأيته وقد فتح باب قزانه الهائل وأخذت كتلته الهائلة تنزل منه، كأنها الماء استحال إلى نار موقدة، إلى إماء كبير حتى إذا امتلاً سير به معلقاً في قصب سكة حديد في الهواء، حتى إذا وصلوا به إلى قوالبه أخذوا يصبوه فيها، وبعد دقائق يخرجونه منها قطعة متجمدة مما تتكون منه قطع الآلة الزراعية، ثم يُنْزَل بها إلى آلة التهذيب (الخرطة) والصلق!

وكم كانت دهشتي عندما رأيت العامل يتناول العجلة الحديدية وهي قطعة من نار وينقلها بيديه وليس فيهما غير قفازان، لا أدرى إذا كانا من الجلد أو من مادة لا تأكلها النيران، وكم كانت دهشتي عندما رأيت بعض الآنسات يعملن في هذا الوسط! آنسات يعملن في النار وجسمهن من نور! وربما كانت هذه هي الرابطة الوحيدة بين هذين

النوعين من مخلوقات الله، وكم كنت أقول في نفسي: يا نار كوني بردًا وسلاما! نزلنا إلى آلات الثقب بالماء، وهي أنواع كثيرة بحسب ما يتطلب العمل، ثم رأينا آلات قطع الحديد، ووصل الحديد، وثني الحديد، وكلها من الهول بحيث لا يمكن وصفها، ثم رأينا آلات الصقل أو الخرط بواسطة الماء والصابون، أو الزيت أحياناً، وبعد ذلك زرنا الأحواض التي ينزلون فيها بعض هذه الآلات لتلوينها.



قنطرة حجرية في ولاية بريتش كولومبيا بكندا.

ثم دخلنا إلى عنبر لعملية الأخشاب من قطع، ونشر، وتهذيب، وثقل، وتلوين، ثم إلى الجهة التي تكون فيها الآلات مركبة جاهزة للعمل، وهو معرض فيه جميع الآلات الزراعية من محاريث، وآلات ضم، وغير ذلك، وبعد ذلك خرجنا إلى عرباتنا للتنزه على صفاف نهر الميسسيبي الذي يمر من شرق المدينة، وهو هنا واسع الأطراف كأنه النيل في وفائه وحمرة مائه، ثم عدنا إلى قطارنا الذي قام بنا إلى المدينة «شيكاجو» بعد أن قطع إليها 179 ميلًا، فوصلنا إليها في ...

(٦٨) يوم ٢٠ يوليو

شيكاجو

شيكاجو مدينة من مدن الولايات المتحدة على بحيرة ميشيغان، وعلى مصب نهر شيكاجو الذي يمر من وسطها، وعدد سكانها ٢٧٠٢٠٠٠ نفس، ولا تزال في زيادة مستمرة مدهشة، ويكتفي أنك تعرف أن هذه المدينة العظيمة لم تكن في سنة ١٨٠٤ م غير قلعة بسيطة هاجمها الهنود واستولوا عليها في سنة ١٨١٢ م. وفي سنة ١٨٣٣ م أصبحت قريةً بسيطة عدد سكانها من ٥٠٠ إلى ٦٠٠ نفس. وفي سنة ١٨٣٧ م كان عددهم ٤٧٠ نفساً، ومن ثمَّ أخذ عمرانها في الزيادة حتى أصبحت من المدن الشهيرة، غير أن الحريق أتى عليها جميعها في سنة ١٨٧١ م، وقد بُنيت في سنة ١٨٧١.

وكان بها في سنة ١٨٩٣ م معرض الآلات العام، وهي الآن من أكبر عواصم البلاد، ومن أكبر مراكزها التجارية والصناعية والعلمية، وتسمى بحق مملكة المدائن، ومدينة الأعاجيب والمدهشات، ترى فيها النشاط شديداً، والحركة مستديمة في سكانها على اختلاف أجنسهم من بيض، وحمر، وسود، وتكثر فيها قُطُر الترام الكهربائية، والبخارية، والقطار الحديدية التي تذهب إلى قلب ما فيها من المعامل والمصانع، ويشقها نهر شيكاجو، وعليه عدد كبير من الكباري المتحركة، ومن تحته كثير من الأنفاق تصل أقسام المدينة بعضها ببعض وتكثر فيها الحدائق العمومية، وما إلى ذلك من الميادين التي تساعد على تنقية الهواء وسلامة الصحة، خصوصاً في مثل هذه المدينة التي ترى على الدوام دخان مداخن ما فيها من آلاف المصانع منعقداً في سمائها، وفيها من الكنائس ما يربو على المستمائة كنيسة! أما مدارسها وبنوكها ومصانعها فشيء لا يحصيه العدد.

وكانني بك إذا سرت قليلاً في شوارعها التي على النهر، وعلى الأخص التي تقرب من بحيرة ميشيغان رأيت تلك الأبنية الشاهقة التي تُذَكِّرُك بناطحات السحاب بنيويورك، لولا أن أبنية شيكاجو متناسبة في ارتفاعها مما يزيدها جمالاً وإن كانت لا تصل إلى أكثر من ٢٠ طبقه.

وأبنية هذه المدينة بصفة عامة أذكرتني بحي الإفرنج وهي العرب ببورسعيد، أو بالأحياء الإفرنجية والوطنية بالقاهرة والإسكندرية بما بينها من تلك الفوارق في نظامها ونظافتها، كذلك ترى في شيكاجو حي الأغنياء، وهي الفقراء، والأول في عظمته وجلاله، والثاني في أتربيته وأحواله! وقصاري القول: إنها من أكبر مدن العالم تجارةً، وخصوصاً

في الحبوب واللحوم المجهزة، واختلاف الصناعة والآلات البخارية والمobilيات الفاخرة والسيجار والمطابع والجلود المدبعة، وفيها أكبر بورصة للحبوب في العالم؛ لأنها أكبر موارد الحبوب في أمريكا، وهي تأتيها من كل جهة بواسطة البحيرة والنهر والسكك الحديدية، وتصرف منها إما حبوباً وإما دقيقاً.

بورصة القمح بشيكاجو

إذا كانت الولايات المتحدة تنتج من القطن ثلاثة أرباع ما تنتجه المكونة من هذا النوع، فهي لا تنتج من القمح إلا ربع محصول العالم منه؛ لذلك كانت السياسة التجارية للولايات المتحدة في القمح أهم منها في القطن؛ لأنها إنما تسيطر على هذا الصنف الأخير ولها وحدها الكلمة في أسواقه العالمية، أما القمح فترى اهتمامها به عظيماً جدًا.

إذا كانت توجد بالولايات المتحدة أكثر من ألف وخمسمائة غرفة تجارية منتشرة في ولايات الاتحاد، وتمثلها جميعها الغرفة التجارية الوطنية التي مركزها في واشنطن، والتي لها نفوذها لدى الحكومة واحترام رأيها في سياستها الاقتصادية، ففي شيكاجو للقمح أكبر غرفة تجارية في العالم كله، ولهذه الغرفة الأخيرة علاقة بمليين الزراع والتجار في الولايات الاتحاد، فيتعرف أعضاؤها حالة الجو في كل الجهات التي تزرع القمح سواء في الولايات الاتحاد أو فيما وراءها، فتراهم يستفسرون عن حالة الفيضان في الأرجنتين، والمطر في صيف فرنسا، والبرد في هونجاري، وحالة الجراد أو الجفاف في فصل الشتاء بشمال إفريقيا، والجفاف في ربيع أستراليا، وعمّا إذا كانت الأخبار السياسية في الروسيا أو الشرق ملبدة بالغيوم.

إذا تحققوا من شيء من ذلك من وكلائهم في هذه الجهات — وهم على اتصال دائم بهم — عرفوا أن الغلال في هذه الجهات كلها أو بعضها ستكون قليلة فيرتفع سوقها بطبيعة الحال (والعكس بالعكس)، هنالك يتذذون له عدته التي يبنونها على صحة الإرشادات التي وصلت إليهم من مندوبيهم في جهات العالم، هذه الإرشادات التي ينصحون بها علماءهم بسرعة البيع خوف سقوط الأسعار لما ينتظرونها من كثرة العرض القريب أو بانتظار التحسين الذي يوشك أن يأتي حسب تقديرهم، وهم في كلتا الحالتين يبنونه على الأرقام الثابتة لا على التخمين الكاذب، والأوهام التي لا ترتكز على شيء ثابت كما هو الحال فيما تعودناه من الحكم على تصريف محاصيلنا، ومع الأسف الشديد فإنك

لا تعدم من الفلاح البسيط عندنا ولا من التاجر الصغير رأياً هو على الدوام حول صعود الأسعار يبنيه كل منها على^٦ أوهام لا نصيب لها من الحقيقة! وإرشادات النقابة في شيكاجو أثرها في بورصتها، فترى القوم يندفعون في الشراء أو البيع بالتلغراف — باللإلكسي — بالتلفون سواء في دائرة الاتحاد أو في غيرها من المكونة.

وهنا ألفت نظرك إلى أن ما مُنِيَ به القمح في جميع أسواق العالم في السنة الماضية والحالية (١٩٢٩—١٩٣٠م) إنما هو أثر لما أصاب سعره من التدهور في بورصة شيكاجو.

ولقد زرنا في هذه المدينة محل إدارة شركة «سويفت»، فتناولنا بها طعام الإفطار، ثم زرنا مصانعها وبها أكبر مجازر للحيوانات في العالم كله، فإنه يُذبح فيها كل يوم ٣٠٠٠ خنزير، و٢٥٠٠ خروف، و٢٠٠٠ ثور! وقد شاهدنا مذابحها جمِيعاً، ورأينا كيف تجهز إلى علبهما، ويكتفي أن أُحدِّثك عن مذابح الثيران. يأتون بالثور في عربات سكة حديدية خاصة بالمذبح، وهي مائة من إحدى جهتيها إلى ذلك الفنان الذي تذبح فيه، والذي يُشرف عليه النظارة من إيوان مرتفع، حتى إذا وقفت المركبات إلى آخر هذا الفنان، يقف عشماوبيها من الطرف الآخر، ذلك الرجل الذي تقرأ في وجهه آيات القسوة مجسّمة بارزة، وفي يده مطرقة من الحديد، فيضرب بها الثور على أم ناصيته ضربة يخر منها فقد الحياة! وقد تكون الضربة غير قاتلة فيتلوها بغيرها! وعندها يفتح الباب فتتدحرج الجثة إلى هذا الفنان حيث يتناولها أحد الجزارين — وهم كثيرون — فيربط رجلها الخلفية إلى يسرى في حبل يرفعها بحركة ميكانيكية إلى نحو مترا فوق الأرض، وهنالك يضربها بسكين في منحرها فيسيل دمها على أرضية المكان الذي تراه فيه كالنهر يسير إلى بلايلع في جوانب هذا المكان.

وترى هذه العملية في آن واحد في عشرات من الثيران، حتى إذا ذُبحت أحد الجزارون في سلخها بسرعة هائلة، ثم تسير بحركة أوتوماتيكية إلى حمام ساخن تُغسل فيه غسيلاً تاماً، ثم تُنقل إلى مكان آخر بنفس الحركة، فتقطع فيه أرباعاً ثم يُلقى بها إلى من يفصلها أشلاء، ثم إلى من يجهزها قطعاً، ثم إلى أفران تُطبخ فيها، ثم إلى أفران أخرى تُعقم فيها،

^٦ وإنما لرجو أن يكون اهتمام حكومتنا الآن بتعيم النقابات الزراعية فيه كل الضمانات لمصلحة المزارعين في تصريف محاصيلها، على أساس معقول يكون من ورائه الخير العام إن شاء الله.

ثم إلى من يضع عليها ورقة الإعلان أو البيان، ثم إلى من يضعها في صناديقها، ثم إلى من ينقلها إلى مركبات السكة الحديدية، وهذا كله بحركات ميكانيكية سريعة جدًا بحيث تتحدد فيها حركة الآلات بحركة العمال، حتى كأنها كلها أعضاء آلة واحدة!



لوكندة موريسون في شيكاجو.

تركنا معمرة هذه المجازر إلى زيارة بعض مصانع الآلات، فزرتنا مصنع «ماك فورميك»، وهو خاص بعمل الآلات الزراعية، ولا تخرج في عملها عن المصنع على ٨٠٠ فدان! والزائرون لهذا المصنع تُقلّهم عربات كهربائية تسير على قضبان تخلل المصنع جميعه، ومدينة جراري يسكنها الآن أكثر من ٥٠٠٠ ألف صانع، وهي مبنية على آخر رسم وأجمل هندام، فمن شوارع واسعة لا يقل عرضها عن ثلاثين متراً، وحارات نظيفة يسير فيها الترموماكي الكهربائي، وفيها أنابيب الماء، والغاز، وأسلاك الكهرباء، وفيها ما

يلزمها من مدارس وحمامات، وفيها مكتبة عظيمة للعمال أهدأها إليها المستر كارنجي، وفيها لوكندة يستريح إليها زوار المصنوع فيها معدات الراحة جميعها. وعلى بعد ١٤ ميلًا من شيكاجو مصانع بولن التي تعمل مركبات السكة الحديدية، منها ما هو للنوم، أو للركوب، أو للبضائع، وأظنك سمعت عنها بمصر؛ لوجودها في بعض القُطُر المفتخرة. وسعة هذه المصانع مع المدينة التي بناها المستر بولن للصناع ٣٥٠٠ فدان! أما المدينة فهي شوارعها الجميلة، وفيها كل لوازم الحضارة والرفاهية، من متنزهات، وتياترات، ومساكنها على أحسن نظام صحي.

وتستند هذه المصانع سنويًا أكثر من سبعين ألف طن من الفحم، ومائة وخمسين ألف طن من الحديد، و٧٥ مليون قدم من الخشب، وتصنع في كل أسبوع عشر عربات نوم، و٢٠ عربة للركاب، و٥٠٠٠ عربة للبضائع، وهي كل يوم في زيادة مستمرة في عملها وعمالها.

وأغلب مباني مدينة شيكاجو بالطوب الأحمر والأبيض والحجر، ويلوح على الأبنية مسحة من دخان المصانع مما يدل على كثرتها فيها. ومن أحسن مبانيها وأفخمها وأعظمها بناء لجرنال «تربيون دو شيكاجو». وإلى بحيرة ميشيغان متزه كبير جدًا، وفيها مراكب تجارية تغدو وتروح بالركاب والبضائع إلى جهات كثيرة، وإذا نظرت إليها وجدتها كالبحر الخضم لا حدود لها ظاهرة، وعليها كثير من المصانع والمعامل التي لا حد لها. وقد ترى القوم مهتمين ببردم قسم منها ليزيد في مساحتها من تجاه محطتها العمومية «سنترال استيشن»، وعلى البحيرة بناء عظيم جدًا وهو متحف المدينة، ومن خلفه حديقة واشنطن، وفيها تمثاله على حسان أشيه شيء بمتثال إبراهيم باشا عندنا، وفي يده سيف مشهور بأنه يرثمه بقول أبي تمام:

السيف أصدق أنباءً من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

وفي جانب من هذه الحديقة مكان للألعاب الرياضية (إنفياترو) بمدرجات رخامية يسع ١٢ ألف نفس!

الشاي، أو للاستحمام، وهذا الأخير عبارة عن بحيرة من الرخام طولها نحو عشرين متراً في عرض عشرة، وفيها تتعلم الطالبات العوم، وعلى كل حالٍ فهو مما ترتاح له النفوس، خصوصاً في وقت الحر الذي لا يُطاق في هذه البلاد.

وقد زرنا مكتبة الجامعة فوجدت فيها بعض الطالبات يشتغلن بالبحث والمطالعة ومنهم حمر وسود، يظهر عليهن أثر النعمة مما يدل على أن شيكاجو لا تضغط على هذين النوعين منبني الإنسان كغيرها من ولايات الاتحاد الجنوبية، وربما كان السبب في ذلك احتياجهم إليهم في الصناعات المختلفة.

وبعد ذلك زرنا كلوب الطلبة فوجدناه من أفسر شيء في بابه، جمال شكل، في فخامة رياض، وتجاهه المطعم الذي يأكلون فيه، وقد جمعت أصنافه بين الجودة ورخص الثمن، وهذا المكان هو الوحيد الذي يجتمع فيه الشابات بالشبان من الطلبة.

وتكثر الأوتوموبيلات في هذه المدينة بحيث ترى لكل أربعة من أهلها أوتوموبيلاً، وترى الطرق خاصة بها واقفة إلى أفاريزها طول النهار، حتى إذا أتي المساء ركب كلّ عربته — سواء من العمال أو غيرهم — وانصرف إلى حيث أراد.

وما زلنا نتنزه في أنحاء المدينة إلى نصف الليل، ثم قصدنا قطارنا الذي قام بنا إلى مدينة «لافيفيت».

و قبل أن نترك الكلام على جامعة شيكاجو التي هي من أهم جامعات الاتحاد نقول: إن القوم عندهم لجان في وزارة المعارف للبحث في بروجرامات جميع الدول الأخرى، وتقديم ما تراه منها موافقاً لبلادها إلى لجنة خاصة تبحثها بحثاً دقيقاً وتتدخل فيها ما ثبتت التجربة بصلاحيته، وتوجد لجان أخرى تدور في الأرياف وتبث في كل متعلقات مدارسها من بروجرامات وغيرها، وتنتظر في أحوال الطلبة وما يصلح من شأنهم، حتى إذا رأت تخفيف مصاريف تعليمهم في هذه المدارس أقنعت مديريتها بهذا التخفيف، وتعوض عليهم ذلك بإعانتها ترتيبها لهم الوزارة.

وعندهم أسبوع يسمونه «أسبوع التعليم»، يجتمع فيه كلّ سنة في كل عاصمة من عواصم الاتحاد رجال التعليم من جهة الحكومة ب الرجال التعليم في الأرياف ومعهم رجال النقابات العلمية، ويبحثون في كلّ ما من شأنه أن يُعيّن حالة التعليم وال المتعلمين والمعلمين، سواء من الوجهة العلمية، أو الوجهة الاقتصادية، وتذاع نتائج هذا المؤتمر في أنحاء الولايات بالراديو؛ حتى يطلع عليه جميع الناس.

وللفلاحين أسباب للتعليم أيضاً؛ تفتح الجامعات الزراعية أبوابها للفلاحين الذين يقصدونها في وقت معلوم، ويجلسون في العراء رجالاً ونساءً وأطفالاً، ثم يأتي المدرس ويلقي عليهم درساً عملياً في الزراعة الخاصة ببلادهم، وكثيراً ما يكون هذا بواسطة السينما أو الفانوس السحري، فيتعلم الفلاح بهذه الواسطة ما يفيده في عمله، ويرقى به في صناعته، في جانب سروره من هذه المناظر الجميلة اللطيفة التي لا تختلف في نظره عن مناظر التياترات وما يشبهها، وقد يتوجه الأستاذة إلى البلاد البعيدة عن الجامعات لإلقاء هذه الدروس على عامة الناس، وكل هذه الدروس العملية إنما تهتم بها الجامعات لمنفعة العامة، فهي لا تجعل تعليمها محصوراً بين أركان مبانيها لطلبتها، ولكنها ترى أن مأموريتها أبعد من ذلك، وهو اتساع دائرة الإرشاد إلى حدود الإفادة العامة.



ميدان الألعاب الرياضية بمدينة مينا بوليس.

وعلى بعد ٣٦٠ كيلومتراً من شرق شيكاجو توجد مدينة «دوترويت»، وهي واقعة على الخليج الموصل لبحيرة سنت كلير إلى بحيرة أريا، ويقابلها من الطرف الشرقي لهذه البحيرة مدينة وشلالات نيagara، وفي دوترويت جملة مصانع مختلفة فيها ما هو للحديد، وللألوان، وللأقمشة، وكانت إلى سنة ١٨٩٠ لا يزيد عدد سكانها على ٢٠٠ ألف نفس،

فلما ظهر تحت سمائها فورد واخترع أوتوموبيله، وأخذ في إشادة معامله في أول هذا القرن أخذ سكانها في الزيادة الهائلة إلى أن أصبحوا الآن لا يَقْلُون عن مليون وربع من النفوس!

ومصانع فورد داخلة في بناء يشغل مائة فدان مسقوفة بالحديد، وهذا الفناء كله مشغول بآلاف الآلات التي تشتعل في قطع عربات فورد وتخرج كل يوم عشرة آلاف أوتوموبيل! تنقلها السكة الحديدية إلى جهات توزيعها يومياً، والذي خرج من هذه المصانع إلى آخر سنة ١٩٢٦م لا يقل عن سبعة عشر مليون عربة!

وجميع المواد الأولية لهذه المركبات من أملاك فورد، فهو يملك غابات منأشجار الصناعة، ومناجم من الحديد، والنحاس، والبتوول، والفحمر، ويمتلك كثيراً من فروع السكك الحديدية، ومن مراكب النقل التجارية، ومصانعه لا تعمل في صنف الأوتوموبيل فحسب، بل هناك بجوارها مصانع لاستخراج الغاز من دخان الكوك، واستخراج ما فيه من سلفات النوشادر والقطران والزيت، وعنهذه مصانع للزجاج، ومصانع للجلد، ومصانع للكاوتشو، بحيث لا يحتاج في عمل عرباته إلى شيءٍ من الخارج.

وعنده معامل خاصة لعمل وابورات فوردسون بالاشتراك مع ولده، ويُصدّر منها عدد هائل إلى كندا وإلى جهات العالم كله، وعندنا في مصر كثير منها.

ولقد أردت زيارة هذه المعامل، ولكنني بكل أسفِ رأيتها مقفلة في وجه الزائرين لاشغالها بتغيير الشكل المعروف من عرباتها، الذي يُرَى نموذجه الجديد بعد شهرين من هذا الزمن. ولعل قطرات فوردسون^٧ تدخل في هذا الإصلاح حتى يكون النفع بها أتم.

(٦٩) يوم ٢١ يوليو

وصلنا في صباح هذا اليوم إلى مدينة «لافيفيت» بعد أن قطعنا إليها ١٢٩ ميلًا، وعدد سكانها ٢٣ ألف نفس، وهذه المدينة سُمِّيت باسم الجنرال لافيفيت الفرنسي الذي ساعد الولايات المتحدة بجيشه في حرب استقلالها، وهي مدينة لا بأس بها، شوارعها جميلة وإن كانت ضيقة، والأرض هنا وإن كانت جيدة إلا أن الزراعة بها ليست على ما يرام؛ لقلة ماء

^٧ وقد تحقق فالنَا ووصلت إلى مصر في أول هذا العام قطرات، ومحاريثه الجديدة، وهي بطبيعة الحال أحسن من سابقاتها.

المطر الذي لا يزيد على ٢٥ إنشا، مع أن حرارتها كانت وقت وجودنا بها ٣٠ سنتجراد! وفيها مصانع كثيرة لإصلاح الآلات الحديدية، وللسلخانات، ولقياس الغاز، وللكاوتشوك، ويمر بجوارها نهر ووباش، وفيها جامعة للزراعة، والهندسة، والطب، والعلوم، وفيها مدرسة للآلات الزراعية، وللجامعة الزراعية قسم لتربيه الفراخ بناؤه جميل جداً.

وقد زرنا بها عزبة فرأينا مواشيه جيدة، ولكن الذباب هنا يكثر لدرجة مقلقة؛ لذلك تراهم يلبسون قميصاً يكاد يغطي كل الجسم، وهم يعطون الماشي عليقاً في الصيف من دقيق بذرة القطن لمدة ثلاثة أشهر فقط، ويقولون: إن الإكثار منها يجفف جلد الماشية، وربما أصابها بالعمى.

وهنا انتهت مهمة مؤتمر التربة الذي كان الروس هم العضو العامل فيه؛ فقد كانوا سباقين إلى تعرُّف التربة، ويفيض كثير منهم بمحاظاته عليها، والكل سمعاعون له حتى السير جون رسل ذلك الرجل العظيم؛ لذلك كان الروس موضع احترام الجميع لعلهم، ولقد رأيت من كثرين منهم أدباً ولطفاً كانوا يميلان بي أحياناً إلى سؤالهم عن حقيقة البولشفية، هذه الكلمة التي لم نر لها وجوداً في الولايات المتحدة، ولكنهم كانوا يهربون من الإجاجة متشاغلين بشيء آخر، وكأنني بهم قد أتوا إلى هنا مبشرين بعلمهم لا بمذهبهم حتى يجعلوا لهم من تحت سماء هذه الأوتوقراطية البحتة ذِكْرًا جميلاً، وفضلاً أثيلاً، ويدخلون من أبوابهما إلى حيث يُميطُون عن بلادهم ذلك اللباس المخيف، وتلك الصورة المزعجة التي يرتعد من ذِكرها العالم المتمدِّن.

تناولنا غداءنا في الجامعة، أو بعبارة أخرى في مطعم الجامعة، عند دخولنا من الباب أعطوا كلاً منا شيئاً بأكلة واحدة كما يُعطى للطلبة، إلا أنَّ ما أُعطي لنا بغیر ثمن، وقفنا صفاً واحد تلو الآخر وقد تناول كلُّ صينيةً صغيرة، ثم دخلنا إلى غرفة يحيط بها من الداخل مائدة عليها أغذية مختلفة، ومن ورائها آنسات لطيفات، يمرر كلُّ صينيته على إفريز للمائدة من جهته، ويشير إلى إحدى الانسات بما يرغب فيه مما هو في دائرة توزيعها، حتى إذا انتهى من الأخيرة حمل غذاءه إلى حيث يجلس في أي مكان خالٍ بين الطلبة من الجنسين، أخذنا مقاعdenا في هذا الوسط الذي ذَكَرْنا بتلك الأيام، أيام الشباب! أيام السعادة! وإن كانت أنظمة المجموع في الشرق لا تسيغ هذا الجمع الذي قد يكون من الموجبات التي قد تُلْبِس الشباب حُلَّ الآداب، وتُنْمِي فيه عاطفة التهذيب والترتيب؛ لأنَّه لا يريد أن يكون ناقصاً في عين هذه التي يريد أن يتقارب منها ويتحبب إليها، وقد تتصل روحه بروحها، وجسمها بجسمها يوماً من الأيام بعامل الزوجية.

تذكّرت هنا تلك الأيام السعيدة، أيام القوة، أيام كلُّ مسؤولية فيها كانت على عاتقّي! من غير أن أشعر بما فيها من فداحة أثقال، ومرارة أحوال! ولكن هل في الحياة مُتَّسِع لعمل هذه الدورة؟ وإن كانت كهولتنا وشيخوختنا كلها بلاء في بلاء، وشقاء في شقاء! وهل يرجع إلينا ذلك الشاب فنخبره بما فعل المشيب؟ لا، أنا لا أريد أن أُنْفَصَ عليه وقته بسور المفزعات! وصور المرهبات! ولكن لأمْتَع النفس بعظيم شأنه، وأسْعِدها بذلك التاج الذي لم يكن للشبان معرفة بسلطانه، تاج مملكتي العافية والهناء.

وبعد الغداء توجّهنا إلى القطار الذي قام بنا في الساعة الواحدة بعد الظهر إلى واشنطن، فوصلنا إليها ظهر اليوم الثاني بعد أن قطعنا إليها ٧٦٥ ميلًا. وبعد أن تغدىت بمحيطتها أخذت قطاراً آخر مع بعض أعضاء المؤتمر الذين لم ينزلوا إلى واشنطن، وسِرْنَا إلى نيويورك فوصلناها الساعة السابعة من مساء ٢٢ يوليو سنة ١٩٢٧ م وبها انتهت سياحة المؤتمر؛ هذه السياحة التي يمكننا أن نسمّيها بحقٍّ سياحةً أمريكية؟

(٧٠) العودة إلى نيويورك

عُدْتُ إلى هذه المدينة، ولا أُكذب إذا قلت لك: إنني كلما عثر بصري على تلك الصروح العاليات، وتردّد طرفي بين هذه المباني الشاهقات، لم تَقْفِ دهشتي منها عند حد، بل أخذ خيالي يصور لي أن علامة الاتصال — وهو ما يسمونه عند الإفرنج «تریدنيون» — قد صاغ الأمريكان منها هذه الصروح لتكون صلة بين الأرض والسماء، نعم تَجَلَّتْ لي هذه العظمة التي أنسنتي ما جاء في التاريخ من عظمة التمروض، تجلت لي هذه العظمة الحقة التي بُنِيتْ على قواعد العلم، والتي صغرْتْ أمامها في عيني عظمة قصور فرساي، والتوليري، وبكنجهام، وغيرها مما يُمثّل عظمة الأفراد، تلقاء تلك التي تُمثّل عظمة الشعوب.

ولقد وصل الشعب الأمريكي إلى عظمته بجد العمل لا بمجده التاريخ؛ شعبٌ وصل إلى ما وصل إليه من تلك القوة الهائلة في مالِيَّة، في علومه، في مدنِيَّة التي يعجب منها كُلُّ مَنْ رأها أو سمع بها، ولا غَرُو فإن هذه المدينة التي وصل إليها في قرن ونصف — وهو عمر فرد من أفراد الإنسان — لجديرة بالتحميد والتمجيد!

وإنما وصل الأمريكان إلى هذه المدينة الرائعة، وتلك الثروة الهائلة في هذه المدة الوجيز بالعمل، وتقديرهم لقيمة الزمن، وعدم حصرهم مجد أشخاصهم في شارات

الأوسمة، وفخامة الألقاب التي لا أثر لها في حكمتهم، اللهم إلا هذا اللقب العلمي الوحيد «دكتور» الذي تمنحه الجامعات للذين ينالونه منها بجدارة واستحقاق.

أينما سار الإنسان في بلاد الاتحاد يرى الناس كالقطع التي تتركب منها الساعة كل في عمله؛ فالأفراد يعملون وبهم يعم المجموع، وهذا معنى صحة جسم الشعوب والذي به وحده عظمتها ومجدها. وهل نظام الشعوب شيء آخر غير نظام الفرد مكرراً أو مضاعفاً؟ انظر إلى الإنسان تجد نسبة ما فيه من القوة بنسبة ما فيه من سلامه أعضائه والعكس بالعكس. وعلى هذه النظرية فقمة الشعوب إنما هي بقدر سلامتها من العاطلين الذين لا عمل لهم، والذين هم عالة على غيرهم^٨ وما مثلهم إلا كمثل الحشائش الطفيلية التي تخنق ما حولها من النباتات النافعة مما كانت قوتها.

والشعب الأمريكي شعبٌ عاملٌ سواء في أفراده، أو في مجتمعه. أو بعبارة أخرى بما يمثل أفراده من نواب، ونقيابات، وشركات. ولكل طائفة من هؤلاء جهادها في دائرة عملها، ولكل اجتهادها في خدمة ممثليها، ولكل اعتبارها سواء عند الشعب أو عند الحكومة، مهما سرت في بلاد الاتحاد لا ترى غير عظمة الشعب التي تستمد منها الحكومة قوتها وعظمتها! فترى الحكومة لا تتكلّم إلا باسم الشعب، ولا تعمل إلا لاسم الشعب.

أما في الشرق فاعتبار الحكومات فوق كل اعتبار! وعظمة الأفراد هي الهيكل الذي تنحني أمامه رءوس الشعوب!

وحكومة الولايات لا دأب لها إلا التفكير في كل ما يُرقي شعبها، سواء في علومه أو فنونه، أو صناعاته، أو تجاراته، فهي بقوّة شعبها لا تفتّأ تُزخرّ ما في طريقه من الموانع، وتُمهد له السبيل إلى العمل والكسب، سواء في داخليتها أو فيما هو أبعد من ذلك، وترتها على الدوام مندمجة في شعبها، وشعبها مندمج فيها، ولكن لكل حدوده وأنظمته التي لا يتعداها، والشعب على كل حال لا يشعر من الحكومة بضغط ولا بسلطان، ولكنما السلطان هو لمعنى القانون ولروح الدستور، وهنا فقط يشعر الناس بأن هناك حاكم ومحكوم، أما في الشرق؛ فالسلطان كله للحاكم مهما لبس لباس الدستور، وتظاهر بمظاهر القانون.

^٨ نعم، ذكرت الجرائد الأمريكية أخيراً أنه يوجد الآن (سنة ١٩٣٠م) نحو خمسة ملايين نفس من العاطلين في الولايات المتحدة، على أثر الصدمة الاقتصادية الهائلة التي أصابت العالم كله وأمريكا بصفة خاصة! وقد أعلنت وزارة العمل بولايات الاتحاد أنها ستضع مشروعًا لاستخدام عدد كبير من هؤلاء العاطلين في القريب العاجل.



قاعة الانتظار بإحدى محطات السكة الحديدية بالولايات المتحدة.

وفي ثاني يوم من وصولي إلى نيويورك أخذت تذكرة السفر إلى فرنسا على مركب **تُبْرِجْ** في يوم ٦ أغسطس، ولما كانت نيويورك شديدة الحرارة جدًا خطر بيالي السفر إلى مدينة نيagara؛ لمشاهدة شلالاتها؛ هذه الشلالات التي قطعت إليها ذهابًا وجبيه أكثر من ألفي ميل، لا شيء إلا لمشاهدتها! وفضلت السفر إليها ليلاً حتى لاأشعر بشفقته نهاراً، وركبت القطار من محطة سنترال استيشن بعربة النوم، فسار بنا في الساعة التاسعة، وفي الصباح وصل إلى مدينة نيagara التي أقمت بها يومين في جوٌ لطيف جدًا يختلف كلَّ الاختلاف عن جو نيويورك.

(٧١) شلالات نيagara

إذا نزلت من محطة السكة الحديدية بمدينة نيagara، فسِرْ قليلاً إلى الجنوب ثم انعطف إلى جهة الشرق في حديقة غَنَاء قد فُرشَت أرضها ببساط سدني نخر رواه، وزهرت أرجاؤه، في ظلال تلك الأشجار اليانعة، التي كُلُّما عانقها الهواء العليل سمعت لأوراقها أصواتاً كالتي تسمعها من عاشقين قد اجتمعا بعد غياب طويل!

هناك ترى بحيرة أريو التي يبلغ طولها ٤٩٠ كيلومترًا، وعرضها ١٠٠ كيلومتر، قد انبسطت أساريرها، وصفَا أديمها، وأخذت خطرات النسيم تعبث بصفحتها فتتماوج

تماوج مادة الجمال في وجنة الحسناً! وقد استأنس بها الطير فحنى عليها، وهوئ إليها، وأخذ يغدو ويروح بين يديها، مما تَحْكُم به بأن هذا المخلوق الهدائِ قد جمع بين صفتَيه من آيات الحسن، والجمال واللطف، ما لم يتيسّر جَمِيعه في مخلوق آخر، وتشعر في وجودك بقربه بالسعادة التامة، والنعيم المقيم.

فإذا وَلَّيْت وجهك إلى الغرب وقد اتَّخذ الماء له مجرَّى إلى الشلال، ووقفت عند القنطرة التي تجمع بين شاطئيه، رأيت عجباً! رأيت هذا المخلوق الذي كُنْت تراه من برهة كحمل اليسوع في وداعته، أو هو الجمال واللطافة بكل معناهما، وهو يعدو عدو الوحش المفترس قد لمح من بُعدٍ فريسته، ولا يزال يثب من صخرة إلى صخرة، ومن عالية إلى هاوية، وهو يغلي غليان القدر، والشرر يقدح من عينيه، والزبد يتطاير من شدقته، يضطرم اضطراماً ويحتمد احتداماً، وقد علا زئيره، وصرخ نذيره بما في طريقه من خطر!

وما كنت أعرف قبل هذا الوقت أن هذه الطبيعة التي هي أرق من النسيم، وألطف من التنسين، وأصفى من أيام النعيم، هذه الطبيعة التي جعل الله فيها حياة حَلْقه تنقلب هنا إلى هذا الخطر الجسيم.

وما زال الماء في هيجانه وثورانه يقصم كل شيء في طريقه، حتى إذا وصل إلى غيابة الجب أخذته معها رعدة، وكأنني به وقد أحجم قليلاً يريد النكوص على عقبيه فزعًا منها، ولكنه لم يلبث أن سقط فيها سقوطًا مروًعا من ارتفاع ٧٠ متراً، واصطدم بما في قاعها من صخور تناثرت منها أعضاؤه، وتطايرت أشلاؤه، فملأت الجو رذاذًا كان يصل إلى وجوهنا ونحن على أكثر من مائة متراً عن مَسْقَطِه! وقد تكون من فضلاته ومن فضلات الشلال الذي في جنوبه نهر نياجرا الذي يصب بعد قليل في بحيرة أونتاريو.

وهذا الشلال الأخير ينزل من مجراً آخر تفصل بينهما جزيرة جميلة كلها في أرض كندا، قامت على أرضها غابة أشجارها المخلدة ذات ظلال وارفة، وطرق مشرفة على مسقط الشلال.

وهذا الشلال في منتهى الوادي الذي يبدأ منه النهر، وسقوط الماء منه على شكل علامه الجزر عند الرياضيين، أو هي شكل رقم سبعة منفرجة من ضلعها الأيمن، ومع أن مسقط الماء هنا أوسع منه في الشلال الأول، فإن كتلة الماء فيه أقل، وارتفاعه ٦٧ متراً، وإذا اتجهت إلى طريق هذا الشلال الأخير، وجدت ما يسمونه الجزر الثلاث، وهي ثلاثة جزر صغيرة قامت وسط شلالات صغيرة كثيرة، وهي تشبه في حال من الأحوال شيئاً عندنا فيما وراء حَلْفاً، يسمونه الشلال!



.شلالات نياجرا بالولايات المتحدة.

وشكل الماء في سقوطه من الشلالين الكبيرين لا يمكن أن أقربه إليك إلا برجاء واحد، هو أن تتصور دولاباً من دواليب حليج القطن بسعة الشلال وبقوّة تتناسبُ مع سعته، والقطن ينزل منه مندوفاً منقوشاً بسرعة إلى الهاوية، بشرط أن تكون كتلته لا تقل في حجمها عن ٥٠ سنتيمتراً.

وهذان الشلالان الكباران يُعدّيان النهر بما مقداره ٧٠٠٠ متر مكعب في الثانية الواحدة، وبما ينتج عنه قوة خمسة ملايين حصان عملية!

سار هذا النهر بين ضفتين شاهقتين، أقل ارتفاع لهما مائة متر، وقد أقيمت على ضفتيه معامل الكهرباء الكبرى تدور بقوة الماء الذي يرتب لإدارة جملة من الترابين التي

تُحَرِّك موتورات هائلة بما يتولد عنها ملايين الكيلووات، وقد زرت من هذه العامل اثنين، مجموع ما ينتجه من الكيلووات في كل يوم نحو عشرين مليوناً أو تزيد! وهذه القوى الكهربائية تسير تياراتها إلى جهة مدينة «بافالو» لتشغيل ما فيها من عامل الحديد، والأوتوموبيلات، والموتوسكلات، والدقيق، وهي على بُعد ثلاثين كيلومتراً من بافالو، ثم إلى «سراقوسه»، وتَبَعُّد عن نياجارا بنحو خمسين كيلومتراً؛ لإدارة ما فيها من معامل الصناعات المختلفة.

لقد كنا نفهم من قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا﴾ أن ذلك خاصًّا بما في طبيعة الحياة من حيوان ونبات، ولكننا اليوم عرَفْنا أنه حياة لهذه الجمادات التي تنتجها العامل، والتي أصبحت من أهم الضروريات للإنسان والحيوان والنبات جميعاً، سبحانك ما أَقْدَرْتَك! وما أَكْبَرَ ما وراء هذه الطبيعة من خلقٍ لا نعلم!

وبمناسبة الكلام على شلالات نياجرا أقول لك: إن أعظم شلالات العالم هي شلالات الزمبيز في شرق إفريقيا الجنوبيّة، وشلال ريوسان فرنسيسكو في البرازيل، وشلالات نياجرا نصفها في الولايات المتحدة ونصفها في كندا، وشلال أجوانزو في أمريكا الجنوبيّة، ثم شلالات جافاروني في جبال الألب العليا.

(٧٢) كلمة عن أمريكا

تاريخ الأرض الجديدة يتغلغل في ظلمات الماضي، ويظن علماء الشعوب أن أصل سكان هذه البلاد نزحوا إليها من آسيا من بوغاز بهرنج في وقت لا يُعْلَم، ويزعمون أن صور سكان الألaska (وهي في الشمال الغربي من أمريكا الشماليّة) تشبه صور السiberيين. وسكان العالم الجديد الأصليون ينقسمون إلى قبائل اسمهم «أتوس»، وقد كانوا يُلْجئون إلى الحصون الطبيعية، أو إلى ما كانوا يحفرونه منها في المناطق التي كانوا يعيشون فيها لتخفيتهم من الحيوانات المفترسة، أو من هجوم بعضهم على بعض؛ ولذلك يسمونهم «بناؤ الحصون»، وبحكم ضرورة العمران كانوا ينتقلون من ضروري إلى آخر بما كانت لهم منه مدينة أخصها في بلاد المكسيك التي وجدوا بها أخيراً كهوفاً كانوا يحفرونها في الصخور لإيوائهم أحيا، ثم لإيداع جثثهم بها أمواتاً، وفي هذه الحفريات عرفوا أن قد كانت لسكان أمريكا في غابر الزمان مدينة تتصل بالأجيال الحجرية ولكنها أقل منها في العالم القديم.

أما تاريخ الاستعمار فيها فقد بدأ في القرن الحادي عشر الميلادي على يد النورفيجيين، وأول ما استُكشِفَ من هذه البلاد جزيرة ويفلاند، استكشفها البحار النورفيجي كانجورن، ثم هاجر إليها بعض سكان جزيرة أسلاندا، وبعض السكندانافيين ولكن الإسكيمو طردواهم، وبقيت هذه الجهة بعيدة عن كل عمران إلى سنة ١٧٢٤ م حيث استعمر شواطئها الهولنديون.

أما الإسبان فإنهم لم يستكشفوا جزائر خليج المكسيك إلا في آخر القرن الخامس عشر، ثم أتبعهم الفرنسيون والإنجليز في منطقة الولايات المتحدة، وكان هذان العنصران على الدوام في حرب مع بعضهما البعض.

ولما زاد الضغط الديني في أوروبا في القرن السادس عشر بدأ الناس يهاجرون إلى أمريكا، وأخذت الهجرة تزداد إليها شيئاً فشيئاً، وكان كل قبيل يتجه إلى جهة خاصة به، فاستولى البرتغاليون على البرازيل سنة ١٥٥٩ م، ثم تغلب عليها الإسبان، ثم استولت عليها هولندا، ثم استرجعتها البرتغال في سنة ١٦٥٤ م، واستولى الفرنسيون في سنة ١٥٣٤ م على كندا إلى نهر المسيسيبي، إلى أن طردتهم منها الإنجليز في سنة ١٧٦٣ م.

وفي سنة ١٧٧٠ م كانت أمريكا كلها في يد ثلاث دول؛ فأمريكا الشمالية كانت مع الإنجليز، وكانت البرازيل مع البرتغاليين، والمكسيك وأمريكا الوسطى والجنوبية مع الإسبان.

وكانت البلاد الأمريكية التي في جنوب كندا تنقسم إلى جملة ولايات، اتحد منها ١٣ ولاية قامت ثورتها ضد الإنجليز؛ لكنه الضرائب التي كانوا يأخذونها منهم، ولعداوة الجمارك التي كانوا يحصلونها على محاصيلهم. وفي سنة ١٧٧٥ م أعلن الأمريكيون على الإنجليز حرب استقلالهم التي كانت تساعدهم فيها فرنسا، فألْفُوا جيشاً تحت قيادة واشنطن. وفي سنة ١٧٧٦ م وضعوا لهم دستوراً أساسه حفظ كل ولاية لاستقلالها الداخلي استقلالاً تاماً، وما زال الأمريكيون مع الإنجليز في حرب انتهت بانسحاب هؤلاء من الولايات المتحدة، واعترافهم في معاهدة فرساي سنة ١٧٨١ م باستقلالهم.

وفي سنة ١٧٨٩ م انتُخب واشنطن رئيساً عاماً لجمهورية الولايات المتحدة، وبقي في رئاستها إلى سنة ١٧٩٧ م، وفيها ترك مركز الرئاسة لغيره ثم ذهب للإقامة في مزرعته حتى مات سنة ١٧٩٩ م، وفي مُدّته نُقِح الدستور، وأنشئ بنك للبلاد لتنظيم ماليتها التي أثقلت كاهلها محاربة الإنجليز، وهذا هي الآن بعد قرن وربع من استقلالها تُسِيرُ دفة العالم بمال الذي هو أساس كل رُؤيٍ وتقدُم.



ميدان نياجرا في مدينة بفالو.

وما زالت الولايات الأخرى تنضم إلى هذا الاتحاد واحدة بعد الأخرى، حتى تم اتحادها في سنة ١٨٤٨ م وهي ٤٨ ولاية، كل واحدة مستقلة في داخليتها استقلالها تاماً، ومجموع مساحتها جمِيعاً ٣٢٦٠٠٠ كيلومتر مربع، وعدد سكانها ١٢٥ مليون نفس! ولقد اتصلت نيران الثورة التي قامت بها الولايات الاتحاد إلى الجهات الأخرى من أمريكا، فأعلنت البرازيل استقلالها في سنة ١٨١٠ م، ثم تبعتها المكسيك في سنة ١٨٢١ م، ثم جاء بعد ذلك اتحاد جمهوريات هوندوراس، وسان سلفادور، ونيكاراجوا ثم اتحاد كولومبيا، وفانزويلا، وجوبان، ثم استقلال جمهوريتي باراجواه وأوراجواه، ثم استقلال الشيلي والأرجنتين واستيلاؤهما معاً على أراضي باتاغونيا إلى رأس ماجيلان الذي في جنوب القارة الأمريكية.

وبقيت إسبانيا في جزر الأنتيل حتى طردتها منها الولايات المتحدة سنة ١٨٩٨ م بعد حرب قضت على البحرية الإسبانية التي لم تقم لها من بعدها قائمة، وأصبحت حكومات أمريكا كلها جمهوريات ليس فيها ذكرٌ لملك من الملوك، اللهم إلا في كندا وحدها لدخولها في إمبراطورية الإنجليزية.

وقد انضمت الولايات المتحدة إلى الحلفاء في الحرب الأوروپية التي انتهت في مصلحة الحلفاء ببركة شروط الرئيس ولسون التي كانت تدور حول شرطين أساسيين؛ أولهما: عدم

أخذ المنتصر شيئاً من أملاك المنكسر! ثانيهما: حرية الشعوب الضعيفة! تلك الشروط التي لم يتحقق منها شيء خصوصاً فيما يختص بالشعوب الضعيفة المغلوبة على أمرها! وأمريكا بصفة عامة أرضها خصبة فتية لأنها لم تستغل بالزراعة إلا من مدة قرن تقريباً، ولا تزال على حالتها من الخصب، خصوصاً في الأراضي التي يمر بها نهر المسيسيبي، وكذلك الأراضي البركانية التي تكثر في الجهات الشرقية من الولايات المتحدة، ولا تزال براكينها ثائرة لم تخمد، وهي في خط الاستواء وما يليه من المناطق، وليس في أمريكا كلها من الأراضي الغير الصالحة للزراعة إلا نحو ١٥ من ١٠٠ من مساحتها، وهي أرض حجرية متبلورة، وأراضيها الخصبة بصفة عامة مكونة من المواد التي تحملها إليها أنهارها العظيمة، كنهر المسيسيبي الذي يخرج من بحيرات إيتاسكا في كندا، ويخترق الولايات المتحدة حتى يصب في خليج المكسيك وطوله ٤٦٢٠ كيلومتراً، ونهر مسوري الذي يصب في المسيسيبي، ونهر هيدسون، ونهر فرجان، وكنكتكون، ودلاور، وأسكونهانا، وجمس، وكلها تسير في مناطق سهلة! ويُقدّرون مساحتها بأكثر من مليون وربع ميل مربع!

أما أمريكا الجنوبية فأعظم أنهارها الأمازون، وسان فرنسيسكو، وريودو لا بلاتا، وأكثر محاصيل أمريكا الشمالية الذرة والحبوب على اختلافها، خصوصاً القمح، وأهم محاصيل الولايات المتحدة القطن الذي يُزرع في ولاياتها الجنوبية.

أما أمريكا الجنوبية فأهم محاصيلها الذرة والبن وقصب السكر، وعلى الأخص القمح الذي يُصدّرون منه كميات هائلة إلى العالم القديم خصوصاً من الشيلي التي يسمونها مزرعة العالم؛ وذلك لانبساط أراضيها، وتتوفر مواد الخصوبة فيها، وكثرة ما فيها من معادن نترات الصودا، أما أحواض الأمازون فغالبها غابات كثيفة، ويُصدّرون منها كثيراً من خشب العمارة، ومنها الجنو، والأينوس، والبيليستر، أما معادن أمريكا فهي الذهب، والفضة، ويوجدان بكثرة في كاليفورنيا، وكولورادو، ومكسيكا، وتكثر في الولايات المتحدة معادن الرصاص، والحديد، وتنتج منها أكثر مما ينتجه العالم كله، ومعادن الفحم كثيرة جدًا في أمريكا الشمالية، ويُقدّرون بخمسة وثمانين في المائة من محصول العالم كله! وكذلك معادن البترول تكثر فيها جدًا، ويقدّرون لنفاد الموجود فيها الآن بثلاثين سنة؛ وذلك لكثرة ما يستهلكونه منه أو يُصدّرونه إلى الخارج.

أما حيواناتها فكثيرة جدًا، وكثير منها يختلف في شكله عن حيوانات العالم القديم، أما ما فيها من البقر والخيول والحمير والأغنام، فقد انتقل إليها مع المستعمرين الذين

عنوا بتربيتها حتى أصبحت فيها بكثرة هائلة ببركة عنايتهم بها، وهم الآن يُصدرون من لحومها مجهزة وغير مجهزة بكميات كبيرة جدًا إلى العالم القديم.

(٧٣) معرفة الفضل لذويه

وهنا يجدر بي أنأشكر من كان يرافقنا في رحلتنا من رجال الاتحاد، كما أُثني على رجال قَلْم الاستعلامات بوزارة الزراعة، وكذلك رجال الغرف التجارية، فقد كنت أَجَأ إلَيْهم في تعرُّف كثير من المعلومات، كما أشكر رجال مفوَضِيَّتنا المصرية، وعلى الخصوص حضرة صاحب السعادة محمود باشا سامي، ورجال قنصلية نيويورك خصوصًا عسل بك. على ما ساعدوني به من جُمُّ التحقيقات، أما صديقي المرحوم محمود أباظة بك — أسكنه الله فسيح جناته — فقد كان لي مادةً قَيَّمةً في المسائل الزراعية، وكذلك المستر هوبسن المندوب الزراعي عن حكومة الاتحاد، فقد كان لي نِعْم العون في كل ما كنت أَجَأ إلَيْه في جزاه الله خيرًا.

وهنا أختتم كلمتي بالذكرى الحسنة التي أحافظ بها لحضرات أعضاء المؤتمر بصفة عامة، لا سيما مَنْ تشرَّفتُ بمعرفيتهم بصفة خاصة، وعَرَفْتُ فيهم العلم الجم، والأدب الفاضلة، والصفات السامية، ولا غرو فهم زينة الزمان وخلاصة بنى الإنسان.
أما الكتب التي أفادتني في معلوماتي العامة عن ولايات الاتحاد فهي:

Ies Etats Unis par And rè Siegfried.

Ies Etats Unis par Iarousse.

Ies Etats Unis par cambon.

En Amerique par-jule hnret.

وبعد عودتي إلى مصر عثرت في كتبخانة بنك مصر على التقرير الرسمي المقدَّم من المفوضية المصرية إلى وزارة الخارجية المصرية، فرجعت إليه في كثير من التحقيقات والتديقations المالية والاقتصادية.

